ممدوح رزق



الفشل في النوم مع السيدة نون

الحضارة للنشر

الفشل في النوم مع السيدة نون

(رواية)

ممدوح رزق

ممدوح رزق: الفشل فى النوم مع السيدة نون

(رواية)

الحضارة للنشر

7 شارع أبو السعود – الدقى 12311 – القاهرة

Al-Hadara Publishing
7 Abou El-Seoud Street
Dokki 1231
Cairo, Egypt

tel.: (20-2) 3761 94 39
mobile: (20-122) 316 48 67
e-mail: elhamy.boulos@gmail.com
www.alhadara.com

الطبعة الأولى: أبريل 2014

رقم الإيداع بدار الكتب / 2014

I.S.B.N. 978-977-476-

إلى ماما... نثرية محمد حنفي

طبعاً

كل الذي قلته

وصرخته

خلال حياتك كلها

تكثّف

في دمعة واحدة

والدمعة صارت فقاعة

تور آلفن

(1)

ثديا أمي كانا ثديَي أمٍ تقليدية في أواخر الأربعينيات؛ ضخمين، ومترهلين، بحلمتين كبيرتين، تشبهان نصفَي إصبعين سمينين، ويبرزان بقوة من عينين واسعتين لونهما بني غامق.. ثديان عريضان، أقرب إلى مستطيلين يتدليان بالطول، ويبدو عليهما جمال الامتلاء المتماسك الذي أصبح ماضياً.. كانت بدينة، وقصيرة، ولو مالت قليلاً للأمام، وهي عارية لأمكن لتهدل ثدييها تجاوز سُرتها مستريحاً.. يعني تمتلك بالنسبة لي مواصفات النموذج الجنسي المقزز.. كانت أبعد بكثير جداً من أن تكون (Milf) فاجرة مثل الجميلات اللاتي ينمن مع أبنائهن، أو مع الشباب الصغير في الأفلام كـ (Kay Parker)، أو (Amalia)، أو (Carrie Moon) مثلاً.. تعوّدت أن تقلع، وتلبس أمامي، وأنا في الابتدائي بتلقائية، لكنني لم أرها أبداً من غير كلوت.. لم ألمح في عينيها كذلك أنها تراقب نظراتي، أو أن وقوفها بدون ملابس تحت بصري يخلق لحظة غريبة، أو مرتبكة، منتهكة للتوقع.. لكن الفرجة على ثديَي أمي العاريين كانت تسرني دائماً.. بمعنى أصح كانت تطمئنني ككائن صغير.. كنت أرى فيهما دليلاً دامغاً على طيبة قلبها، ونقاء روحها.. من الجائز أيضاً أن ما كنت أحبه هو البساطة التي كانت تكشف بها عن جسمها في مواجهة عينيّ.. كأنها تقوم بأي فعل يومي آخر لا يحتاج إلى تفكير مثل الأكل، والشُرب، وفتح الأبواب، وغلقها.. يمكن هذا من أحد الأسباب التي جعلت أجمل جنس عندي هو الذي تمارسه واحدة ليست مشغولة بعريها، ولا بالترتيبات التي تُمهد للمضاجعة داخل الحيز الذي تسكنه.. لا مؤاخذة يا دكتور بالنسبة لعضوي الذي انتصب الآن – أعلم أن عضوك منتصب هو الآخر من كلامي لكنك ستُنكر ذلك كأي حقير – حضرتك لا تعرف ماذا يعني بالنسبة لي أن

تمتطي فرسة وهي تتحدث في التليفون، أو تطبخ، أو تمسح أثاث بيتها من التراب خاصةً لو لم يكن عريها كاملاً.. ترتدي مريلة مطبخ فقط، روب مفتوحاً على اللحم، جلباباً بيتياً يغطي الجسد تماماً، يسهل رفعه.. يخرج ثدياها كاملين من فتحة صدره، بينما تنهمك صاحبتهما في أفعال عادية لا علاقة لها بالجنس.. كأنها تقول بالضبط – ولنا في الغاليةKay Parker بأروابها الفتّاكة قدوة حسنة: (سأؤدي أموري التقليدية التي لابد من إنجازها، تاركة ما يحتاجه رَجُلي لمتعته من جسمي متاحاً، ومتوفراً طوال الوقت.. هذا مُنهك جداً، لكنها وظيفتي التي تمنحني السعادة، التي لا معنى لحياتي لو توقفت عن أداءها).. الحسم، والثِقَل، والسيطرة هنا يا دكتور ليست في الأجزاء العارية، بل على العكس في المساحات المُغطاة التي تُزيد من قوة العري، ووحشيته.. يعني الجنس عندها مفروغ منه، الحياة بكل تفاصيلها البديهية، موجود داخل كل شيء، وحاضر دائماً.. تخيّل يا دكتور رجلاً يرتدي الملابس اللائقة بالبيت، أو بالعمل، لكن عضوه خارجاً طوال الوقت.. إنه يعطي نفس الرسالة، ولكن كرجل: (سأؤدي أموري التقليدية التي لابد من إنجازها تاركاً أداة استمتاعي جاهزة دائما لقبول عروض الخدمة الأنثوية).. الجنس الذي لا يستدعي التجهيز، أو الانتباه؛ لأنه ممكن، بل لابد أن يحدث في أي لحظة مثل التنفس بالظبط.. أو مثل الموت يا دكتور.

مرة كنت غاضباً جداً منها لسبب لا أتذكره.. رأيتها جالسةً على الكرسي الخشب الصغير، وتشطف الغسيل في آخر الحمام.. وقفت عند الباب، وأنزلت البنطلون، وتبولت عليها.. كان الحمام ضيقاً، والمسافة بيني، وبينها مهيأة للصنانة كي تغرق وجهها، وجسمها.. ظلت تحدّق فيّ بذهول، وهي تحاول تفادي المطر الأصفر، الساخن دون فائدة.. يومها غضبت مني جداً يا دكتور، وتقريبا صفعتني، وخاصمتني لفترة قصيرة.. كان لدي يقين بأنها لا تعاقبني على التبول نفسه، وإنما على المتعة التي

عشتها في تلك اللحظة.. انتقام من الشغف الذي احتفلت به ملامحي نتيجة إذلال نجحت في ارتكابه ضدها.. هل كانت هناك وفرة من الأجزاء المكشوفة في جسد أمي وقت انهمار الصنانة عليها.. لا أتذكر.

كانت تُحذرني دائماً من التحدث، أو الرد على (الأشرار) الذين تمتلىء بهم المنطقة الشعبية التي نسكنها.. باعة المخدرات، والحرامية، والبلطجية، والقوادون، والمومسات.. ذات مرة كنت عائداً معها من المدرسة، وبينما كنت أسبقها بخطوة واحدة في المرور على الرصيف النائم تحت بلكونتنا؛ كان واحداً من (الأشرار) جالساً.. مد رأسه مبتسماً بودٍ لحظة عبوري أمامه بالمريلة، والحقيبة المدرسية فوق ظهري، ثم سألني مُداعباً: (المدرسة حلوة؟).. لم أنظر إليه، ولم أرد تنفيذاً لتعليمات أمي، لكنني فوجئت بها تُجيبه من خلفي قائلة: (حلوة).. التفت مذهولاً، فوجدتها مبتسمة بودٍ يفوق ذلك الذي على ملامح (الشرير) كأنها تعتذر له عن عدم ردي عليه.. لم تكن هناك ذِلة تجبرها على الرد؛ لأنها كانت (الأبلة) الوقورة، الطيبة، التي تُعلم أطفالهم، وكان الجميع في الشارع يحترمونها جداً، ويتعاملون معها بكل التقدير.. لم أطلب منها تفسيراً للتناقض بين أوامرها، وأفعالها، ولم أخبرها بأنني لا أعتبرهم (أشراراً)، وبأنني أريد أن أتكلم معهم، وأضحك لهم، أو على الأقل الرد عليهم لو تحدثوا إليّ.. احتفظت بكل التخبّط في داخلي، وربما كان هذا الموقف من ضمن الأسس التي ستجعلني أكتب القصة القصيرة بعد ذلك.

لم أرها قبل ذلك سوى مرتين، أو ثلاثة.. إحدى هذه المرات كانت في منتصف التسعينيات بمجلة (أدب ونقد).. كنت لازلت طالباً في ثانوي، وكانت جريدة (المساء) قد قدمتني منذ فترة قصيرة إلى الساحة الأدبية.. لم تكن الزيارة الأولى للمجلة بل سبقتها – ربما بأسبوعين فقط – زيارة أخرى تركت فيها قصصي القصيرة للنشر مع سكرتير التحرير (مجدي حسنين)..

في المرة الثانية قابلت (حلمي سالم) الذي صافحني بسعادة، وأخبرني أنه قرأ قصصي، وأنه كان يتصور أنني أكبر سناً بكثير.. يومها أهداني كتاب صغير اسمه (الشبكة السردية للقضيب) للكاتب، والناقد الانجليزي (توماس باري)، ترجمة (مرسال عبد الواحد).. كتاب رائع، وممتع يتناول التقنيات الكتابية، والتجارب الواقعية التي استخدمها القصاصون الميتون من الخجل لاصطياد النساء.. الذين تنقصهم القدرة، والشجاعة على اتخاذ الخطوة الأولى باتجاه علاقة جسدية مع امرأة.. تحدث (توماس باري) عن أن نَسب النصوص الأدبية إلى الحياة الشخصية للكاتب، والإصرار على انتماء تفاصيلها إلى عالم خفي لخالقها سيظل إجراءاً روتينياً، وممارسة خالدة، لن تتمكن النظريات، والدراسات النقدية المتعاقبة من تعطيلها - بل يظهر في حقيقة الأمر أن تلك النظريات، والدراسات المتراكمة تزيد عبر الزمن من قوة الحاجة الغريزية لإلصاق السرديات بما يمكن وصفه الحقائق السرية لأصحابها.. إذا كان الأمر كذلك فيمكن لنوعٍ من الكتّاب الاستفادة من حتمية تلك الهيمنة.. يمكن لقاصٍ مثلاً أن يتعمّد في قصصٍ له أن يتكلم بضمير الأنا داخل حالات مشيدة على دعائم مأخوذة من حياته الشخصية، ليسرد من خلالها الملامح التي يرغب لها أن تكوّن صورة راسخة لجبروته الجنسي.. يمكنه استغلال القص بهذا الشكل في تمرير الصفات، والسمات الخارقة لقضيبه عبر مناخ يبدو للوهلة الأولى بريئاً، ومحايداً.. حلل الكاتب كثيراً من النماذج التي أعطى فيها القص الدعائي للقضيب نتائج باهرة لأصحابها.. أولئك القصاصون، المهووسون بالأثداء، الذين يعانون من عقدة أوديب مثلاً، وكانوا يقضون حياتهم بين الكتابة، والاستمناء، والرعب من تخيل الاقتراب من النساء.. الذين انهالت عليهم هدايا القارئات بعد نشر قصصهم الترويجية مثلما تنهمر دائماً المغازلات، والدعوات الصريحة من الرجال على كاتبات النصوص الإيروتيكية.. لا

أتذكر الآن هل أشار (توماس باري) إلى نجاح هؤلاء القصاصون في استغلال تلك الهدايا أم لا.

عمري ما شعرت وأنا في الابتدائي، ولا حتى بعد ذلك أن أبي، وأمي ناما مع بعضهما.. لم يكن هناك أثر لتلك الخرافة المستبعدة.. حينما كنت صغيراً لم أفكر في العلاقة الجنسية بينهما، لكن عندما كبرت ظللت أسأل نفسي متى، وكيف كانا يفعلان ذلك في شقة ليست واسعة، حجراتها متلاصقة، وفي وجود أربع أبناء، ثلاثة منهم شباب!.. خاصة لو عرفت يا دكتور أن حجرة والديّ كانت محاصرة بين حجرتي أنا، وأخي، وأختي، وحجرة أصغر تخص أخي الأكبر، والتي بينها، وبين حجرة أبي، وأمي شباك واسع جداً.. إذن كيف؟!.. إذا كان في مرة ذات صباح يا دكتور، وبعدما استيقظ أخي الأكبر من النوم زعق في أبي لأنه لم يتمكن من النوم بسبب صوت جيصه القوي الذي لم يتوقف طوال الليل.. أبي ظل يضحك، وقال لأخي أنه هو أيضاً لم يتمكن من النوم لنفس السبب.. قوة صوت جيص أبي كانت تُقلق منامه شخصياً!.. إذاً عبور الصوت كان سهلاً للغاية يا دكتور؛ فهل كان أخي الأكبر يسمع تأوهات أمي الصارخة، وزمجرة أبي الوحشية طوال سنوات طويلة، وأن هذا قد يكون من أحد الأسباب التي ربما تُفسر وفاته شاباً؟!.

أبي كان يحمل المواصفات الجسمانية لمارد إفريقي باستثناء أنه كان قصيراً.. سمار، وملامح غليظة، ونظرة نارية محتقنة، شرسة، تحوّل من يواجهها إلى فريسة مستسلمة فوراً.. رأس أصلع، وجسد ممتلىء، قوي، جلده سميك، وعضلاته متكتلة.. كان أكولاً، عاشقاً لل- (الشعراوي)، و(السادات)، و(الخطيب)، و(الكحلاوي)، و(نعيمة عاكف) و(وردة)، والبيض المسلوق.. لا تفوته ركعة، ولا ينقطع عن المسجد، أو عن قراءة المصحف كل ليلة على كنبة الصالة قبل النوم.. عنيف الملامح، والقول،

والطباع.. يتكلم كأداة ضبط أخلاقي، لا تخطيء أبداً ذاكرتها في فتح الصفحة المناسبة من القرآن، والسنة لاستدعاء الاستشهاد الصحيح.. قيل أنه كان يشرب لبن الحمير وهو طفل، وقيل أنه كان يلعب ملاكمة في شبابه، لكن المؤكد أنه كان من أولئك الذين يتعاملون مع الطعام كديانة تشغل ترتيباً متقدماً في قائمة المقدسات، وأنه لم يشرب الدخان، ولا القهوة، والمؤكد أيضا أن له أصول إفريقية –سودانية ربما– قادرة على تبرير شهوته الجنسية المشتعلة دائماً، التي أورثها لي.. تعرف يا دكتور.. لما كنت أراه بالفانلة الحمّالات، مع المواصفات التي قلتها لحضرتك بالإضافة إلى شعر صدره الكثيف، الخشن، وياسلام مع العرق، ورائحته كنت تحس فعلاً أنه واحد من السود ذوي الأعضاء الضخمة، الذين يلتهمون البيضاوات في أفلام البورنو المصنفة تحت عنوان Big Cock، أو Big Dick، أو Monster Cock.. أمي كانت بيضاء، وضعيفة جداً يا دكتور.

فاكر حضرتك (عدلي كاسب) في فيلم (المراهقات) حينما كان جالساً مثل الوحش بالفانلة الحمّالات على السُفرة، ويأكل، ويسكر، ويزعق، ويقفّش في (عزيزة حلمي)، ثم نهض ليفترس ابنه (جلال عيسى)، وتركه أشلاءاً وحطاماً، ليعود بعد ذلك متطوحاً، ولاهثاً إلى السفرة ليُكمل الأكل والسُكر؟.. هذا هو أبي يا دكتور باستثناء أنه لم يسكر، ولم يكن يقفّش في أمي أمامنا – ربما كان يفعل بلسانه أحياناً عبر ممثلة، أو راقصة في التليفزيون مثلاً – وكذلك باستثناء أن ضربه لم يكن يُسبب نزيفاً ظاهرياً.. كان يجبرني دائماً على الصلاة معه جماعة داخل حجرته، ليفرغ شهوته في العمل كإمام جامع.. السنة، والفرض، والتسبيح، والدعاء بصوته الثقيل، الخانق، الممتزج برائحة قدميه الكريهة.. كل هذا أيضاً لم يكن يسبب نزيفاً ظاهرياً.. مرة سألني (صليت الصبح؟)، قلت له (أيوة).. (طب صليت الفجر؟).. (ما هو الفجر هو الصبح).. (لأ دي حاجة، ودي

حاجة.. بسألك صليت الفجر؟).. (أيوة).. (إمتى؟).. (صحيت من النوم، واتوضيت، وصليته من غير ما حد يحس).. (مممممممم طب صليت الضُحى؟).. (إيه صلاة الضُحى دي؟).. (دي تمن ركعات من بعد شروق الشمس لغاية قبل صلاة الضهر).. (أيوة صليتها).. (انت بتكدب؟).. (لا أبداً.. أنا بس كنت فاكرك تقصد حاجة تانية، لإني على طول بصلي التمن ركعات دول في الميعاد ده بس مكنتش عارف الصلاة دي إسمها إيه).. (طب روح اتوضى يالا عشان نصلي الضهر جماعة).

رأيتها تجلس على مكتب صغير في (أدب ونقد).. بالطبع كنت أعرفها جيداً.. كنت أعرف من شِعرها، ومن الكتابات عن شِعرها، ومن قصص، وذكريات أصدقائها معها، ومما يقوله الجميع عن حياتها أنها أيقونة.. أسطورة شعرية.. أميرة خيالية قادمة من إحدى قرى الدلتا، خلّدت قاهرة التسعينيات بحكاياتها، وانتهكت بكتاباتها سلطة الآباء، والأمهات، والأطباء، والمناضلين، والمؤسسات، والمدارس الشعرية.. ليس فقط لأن شعرها جميل، وفارق، وحاد، وذكي، وعميق، وإنما لأن شخصيتها تحمل نفس السمات.. لم أتكلم معها في المرّتين، أو الثلاثة التي رأيتها فيها.. تأكدت فحسب من مراقبتها أن الملامح التي شكّلها الآخرون عنها حقيقية فعلاً.. طريقتها في إلقاء القصائد.. سكوتها.. كلامها.. ضحكها.. جلوسها وسط الأصدقاء.. مشيّها.. كل شيء يا دكتور.. هي ليست جميلة إطلاقاً، وإنما شاعرة جبارة.. لكن الموضوع أيضاً ليس الشعر فقط.. شخصيتها.. هي ذكية جداً، أو تقدر تقول عندها خبث الفلاحين بزيادة (نعم أقصد هذا التعبير الانتقامي، المتعالي)، وهذا هو الفرق بينها، وبين أي شاعرة أُخرى كتبت شعراً رائعاً، ومرت معها في نفس الزمن، ونفس الأماكن.. أظن أن ما جعلها (هكذا) ليست كتاباتها بقدر التجارب الحياتية التي قررت أن تخوضها، والنتائج التي أرادت أن تخرج بها، التي لم تقتصر بكل تأكيد على أن تكون مجرد شاعرة يُشار إليها كواحدة من قطيع يضم شاعرات

جيلها.. تعرف يا دكتور لو كنت نمت معها في هذا اليوم كانت انتهت تقريباً كل مشاكلي.. كنت تقبّلت فشلي في التعليم، وأنني عاطل، ولا أطيق البشر.. كان بوسعي تحمّل موت أسرتي واحداً وراء الآخر.. كان بإمكاني حل مشكلتي مع الموت نفسه، ولم أكن اضطررت للمجيء إلى حضرتك كي أجلس على (كرسي الاعتراف) هذا يا عرص.. كأنني هنا كي أجد حلاً، وكأنك هنا لأن معك الحل.. أنت التائه، الممزق، معدوم القدرة، الذي يدّعي الاتزان، والتنظيم، والسيطرة، وتريد أن تختبيء في شخصٍ آخر يستطيع الفصل، والمراقبة، والضبط.. كأننا لا نفهم بعضنا جيداً، وكأننا لم نطرد الطمأنينة للأبد، ولم نضلل مُخبري العائلة، ولم نلقِ بمعقوليتها خارج الغلاف الجوي.. أنت تحاول أن تكون مثلهم: لا تبحث عن ما سيتضح تدريجياً، وإنما عما هو حاضر، معروف، ولكنه يهرب.

أختي عمري ما رأيت جسمها إلا مرتين تقريباً، وبشكل خاطف جداً ومن زوايا بلهاء.. كان ذلك غالباً قبل أن أدخل الابتدائي.. كانت تغيّر ملابسها، ورأيتها تخلع سوتيانها بقوة لأعلى؛ فاندفع ثدياها بعنف لأسفل، ولم يكونا صغيرَين جداً.. كنت أقف وراءها من الجانب الأيمن، وهذا منعني من رؤية شيء سوى الحافة الخارجية لثديها الأسمر.. المرة الثانية كانت حينما طلع لها تقريباً دمّل بين فخذيها، وأتذكر أنني رأيت شفرتي مهبلها، وهي تفحصه.. قطعتان سوداوان، ملزّقتان من الجلد المتشقق المضغوط.. طبعا حضرتك ستسألني كيف عرفت أنه كان ملزّقاً، سأقول لك أنه كان واضحاً عليه لمعان سائل، لكنه ليس بللاً.. صدقني كان تلزيقاً.. الواحد يقدر على التفريق بالنظر حتى لو كان طفلاً صغيراً.. ستكون هناك مشكلة كبيرة بالنسبة لأمك يا دكتور لو لمحت الآن أي أثر لهياج على ملامحك.

ساعات بنت خالة أمي كانت تأتي لزيارتنا – هي أصغر من أمي، ومتزوجة، ولديها أبناء – قل مثلاً أنها كانت في الثلاثينيات وقتها، وأبي

في منتصف الخمسينيات، وأمي في أواخر الأربعينيات.. كان أبي يحاول تقبيلها من خدها، ونحن جالسون – على سبيل الهزار يعني – وكانت بنت خالة أمي تُبعد رأسها، وهي تضحك، وتقول بميوعة (متوضية والله).. كانت أمي تضحك، وأختي تضحك، وجدتي تضحك، وأنا أضحك، ولكنني لم أكن أعرف من غيري يرى أن هذا ليس هزاراً، وأن أبي هائج بالفعل على هذه المرأة.. كانت تستحق يا دكتور.. من غيري كان يرى أنها هى الأخرى هائجة بشكل عام، وليس على أبي تحديداً.. لم أكن أعرف بماذا كانت أمي تشعر في هذا الوقت.. هل كانت تفكر في زوج بنت خالتها.. أختي – بصرف النظر عن كونه أبيها – بماذا كانت تشعر كذلك، وهي ترى رجلاً يحاول تقبيل امرأة – خصوصاً أنها ليست زوجته – بعيداً عن شاشة التليفزيون، وعن صفحات الروايات التي كانت تقرأها.. ربما يمكن للطفل في طفولته، وبواسطة مناظر، وأحداث كهذه أن يبني ما يمكن أن يُعد أصولاً، أو جذوراً للعب.. يمكنه أن يكتسب بصراً سرياً، يجعله يدرك أن الجنس هو أكثر المشاهد التي كلما أخذت راحتك في التبديل بين تفاصيلها كلما كان ذلك أكثر استجابة لإرادتها الجوهرية.

هامش الرجل الذي ربما يكون طبيباً نفسياً، أو طفلاً يلعب River Raid

قسوة قادة الفرق الجرمانية المأجورة في إيطاليا أقل بشاعة من تعامله معي أحياناً كأبيه، أو أمه، أو السيدة (نون)، أو أي شخصية أخرى، حيث يُبدع في خلق اللغة العدائية اللازمة للتعامل مع ذلك الواقع.

يمكن لنا تبادل الشخصيات باستمرار داخل لوحات (ادموند بلير ليتون) عن القرون الوسطى؛ لكنه ربما يصر على التمسك بشخصية الموسيقي، والشاعر الحزين، المنكسر، خائب الأمل، ويعطيني شخصية الحبيبة، الجميلة، التي تضع يدها على كتفه، وتحاول بعينيها، وبصوتها أن تُعيد إليه الحياة.. الحالة الوحيدة التي قد يرضي حينها بأخذ شخصية الحبيبة هي تفكيره في الانتحار.

أثناء كلامه عن (الجاز) يتعمّد الهمس؛ فأضطر للاقتراب منه أكثر كي أسمع جيداً ما يقوله عن (نيو أورلينز)، والمهاجرين، والعبيد، وحقول القطن، و(الفالس)، و(البولكا)، والألحان الإفريقية، وأغاني الكنائس، والصرخات.

أصابني الإحباط الأقوى لحظة غياب الانفعال، والتأثر عن وجهه حينما دخل العيادة ذات يوم، ووجد ملابس العصور الوسطى معلقة على الحائط، وأسلحتها متراصة فوق المكتب، وصوراً لخانات فقراءها، ومسافريها مطبوعة على الـ (تي شيرت) الذي أرتديه.

ما الذي يعنيه أن يحلم دائماً برجل عجوز، جالس في دكان قديم، ضيق جداً، لا يعرف في أي حارة عتيقة يوجد، ولا ما الذي يبيعه، بل أن ملامح

العجوز نفسه تتغير كل مرة، لكنه يضع دائماً صورة (السادات) بالأبيض، والأسود وراءه فوق الجدار.. حلم يراه في النوم، وفي اليقظة.

بالطبع التنبيه الخاص بغلق الموبايل لا نقاش فيه، لكنه أحياناً يتعمّد تركه مفتوحاً، بل، ويتعمّد أحياناً أن يطلب من أحدٍ ما الاتصال به وقت الجلسة كي يُسمعني الرنّة.. وجدتها مرة صوت (محمد عبد الوهاب)، وهو يهنيء (محمد التابعي) برجوعه من (رأس البر).

لا شيء يدعو للخجل.. الخجل نفسه ليس مكروهاً بالتأكيد، بل دعنا نقول أن عليك أن تترك نفسك لتلقائيتها.. خذ بالك أن مقاومتك للتلقائية هو أمر بديهي أيضاً.. أنت تفهم بالطبع أنني أتحدث عن كلامك الواثق، المتدفق من يقينك عن عدلٍ ما.. عن مبادئ عامة، وأخلاقيات ثابتة يمكن الرجوع إليها، والقياس على بداهتها في جميع الأحوال.. كل هذا عادي جداً، فإذا كان عليك أن تشعر بنوع من الإحراج نتيجة إيمانك السري، المُضمر داخل كل كلامك الواثق عن يقينك؛ فلا تأخذ ذلك الإحراج على محمل شخصي كأنه بقعة طبيخ في قميصك النظيف، المكوي جيداً.. هذا الإحراج ليس فيه مشكلة، وإيمانك السري بأن ما يُعد دوافعاً عنيفة، أو سيئة، ومريضة هو بمثابة الخير الخالص – هذه دعابة لأنك تعرف أنه لا وجود لشيء يحمل هذه الصفة – هذا الإيمان ليس فيه سمة الحقارة، أو الفاشية، أو الظلم.. كل هذا لا معنى له.. مجرد كلمات تُستخدم لادّعاء الجدية.. لغة مخصصة لتدليل العبث بمزيل عرق يُسمى الحقيقة.. كما أنه لا بأس لو كنت – بأي معيار استهلاكي – حقيراً، أو فاشياً، أو ظالماً.. اعتبرها لعبة يا أخي، كل ما يمكن أن يحدث لابد، وحتماً أنه جزء منها.. رغبة شهوانية لازمة لوجودها.

لا يفتح شات (الفيس بوك) مطلقاً، وهذا يؤلمه.. في المرات النادرة التي يفتحه فيها، لا يبادر بالتحدث مع أحد، وهذا يؤلمه أكثر.. حينما يغلق

شات (الفيس بوك) في نهاية اليوم الذي شهد إحدى المرات النادرة التي فتحه فيها دون أن يبادر أحد بالتحدث معه فإن هذا يؤلمه أكثر، وأكثر.. لحظتها يفتح (الصوت المنفرد) لـ (فرانك أوكونور) على الفور، ويقرأ الجملة الافتتاحية، المهووس بها: " يا للعجب! لقد كان في هذا المكان يوماً ما رجل يُدعى (نيد ساليفان)، وقد حدث له شيء غريب في ساعة متأخرة من إحدى الليالي، وهو قادم في طريق (فالي رود) من (دارلاس) ".

(2)

كان من المعروف جداً منذ بداية ظهورها في الحياة الأدبية أن جميع الكتّاب يحاولون التقرّب إليها – على ماذا لا أعرف – جائز أنها كانت تمثّل استفزازاً لهم بسبب شخصيتها، أو من الجائز أنها كانت تُبدي أحياناً ما يدل على استعدادها للوصول إلى أشكال أكثر تجاوزاً من التقارب الحسي.. لا أنسى يوم زيارتي لأحد الكتّاب العواجيز.. وجدته فرحاً جداً، وعندما سألته عن السبب قالي لي أنها أغلقت معه التليفون حالاً.. كانت تطلب منه أسماء مراجع لرسالة الماجستير التي تعدّها.. كان يحكي هذا الموقف العادي يا دكتور بفخر، وامتنان، وسعادة غامرة كأنها ساعدته بصوتها على الاستمناء في التليفون.. لكن الكاتب العجوز في حقيقة الأمر كان مجرد مثال صغير، وتافه للغاية عن الحالة القديمة، المعروفة، التي تشكّل جزءاً أساسياً من ماضي الحركة الأدبية في هذه المدينة.. حالة الشاعرة التي أشعلت مقاهي، وبارات القاهرة بالشعر، والحواديت والشائعات حتى – أو خصوصاً – وهي غائبة.. التي أحبّها كتّاب كثيرون، وجروا وراءها، وكتبوا دواوين، وقصائد، ونصوص، ويوميات – لا أعرف هل توجد لوحات، أو مقطوعات موسيقية، أو أفلام سينمائية عنها أم لا – وثّقت حبهم لها، ورغبتهم في الزواج بها، أو النوم معها، وكذلك اليأس منها.

تصدّق يا دكتور.. مثلما كتب شعراء عنها، هناك شاعرات كتبن عنها أيضاً.. كتبن شعراً عن معرفتها، وخيالاتها، وملامحها، وعن السحر المدهش في قصائدها.

أول ثديين لمستهما، وأمسكت بهما، ونمت عليهما في حياتي، وأنا واعي، ومتذكر جيداً هما ثديا جدتي.. كنت أنام في حضنها، ونتغطى حتى طرفي رأسينا، ثم تُخرج لي ثدياً واحداً، وأحياناً الاثنين كي أمسكه، وأنام عليه..

كان ذلك أيضاً قبل الابتدائي، وتقريباً متأكد أنه استمر بعد دخولي المدرسة.. بصراحة لا أتذكر هل هي التي فعلت ذلك للمرة الأولى من نفسها، أم أنا الذي طلبته منها، خاصة أنني أتذكر الجملة التقليدية التي كنت استخدمها في هذه اللحظة (تيته؛ طلعيلي بزو).. كل احتمال له برهان يؤكده.. عرفت بعدما كبرت أنها كانت تفعل ذلك لأولاد أخيها، وهم أطفال بما يدل على أن تلك كانت عادتها - ربما عادة بعض العجائز الشعبيات والريفيات - لكنني أتذكر أيضاً يا دكتور أن حبي، وتعلقي بالأثداء - الذي تحوّل إلى هوس فيما بعد - كان يدفعني دائماً، وأنا صغير للبحث عن أي ثدي حتى أمسكه، وهذا يعطي احتمالاً كبيراً بأنني من طلبت منها أولاً أن تُخرج لي ثديها.. لا تسألني يا دكتور لماذا أنا متأكد إلى هذه الدرجة من رغبتي في الأثداء في هذا السن الصغيرة.. تلك هي الحقيقة، وليس هناك سواها.. هل تصدّق - حتى لو تذكُري لهذا شاحباً - أنني طلبت من نساء أخريات، من الجائز أنهن كن أقارب، أو لا أن يُخرجن لي أثدائهن، وأنني ساعات كنت أبكي، وأصرخ لأن المرأة التي طلبت منها هذا رفضت حيث لم تكن سوى زبونة لا أعرفها في (عمر أفندي)، أو (صيدناوي)، وجاءت لتشتري قماش؛ فوقفت بالصدفة بجواري أنا وأمي، وأختي، وهما تشتريان مثلها.

ثديا جدتي كانا صغيرَين، ومترهلَين، وممصوصَين.. تعرف حضرتك عجينة الرغيف الفينو، ولكن أكبر قليلاً؟.. حتى نفس اللون، والتشققات، والتهدل.. كنت أستمتع بهما جداً.. تحوّل الأمر بالنسبة لي إلى إدمان، وكانت مُتعتي تزيد حينما نكون في الشتاء، وننام تحت اللحاف والبطانية وقت المطر.. جدتي كانت فرحة جداً، ومستمتعة بقوة لدرجة أنني أتذكر جيداً أنها كانت تتعجل الفرصة التي تُمكننا من النوم بهذه الطريقة.. لا أعرف لماذا لم أكن أطلب هذا الطلب من أمي.. ربما لأنه كان عندي وعي ما بأن ذلك الأمر لم يعد ينفع بعدما تجاوزت مرحلة الرضاعة، وربما لأنها

أمي، ولم يكن ذلك يصح جنسياً، ولكنه ممكن مع جدتي لأنها تشغل موقعاً أبعد في هرم السلطة الأسرية، وبالتالي سيكون الموقف أخف قليلاً.. ممكن أيضاً لأن حضن أمي كان بالنسبة لي مرتبط كلياً بالأمان الطفولي، ولم يكن له علاقة بذلك الشكل المختلف من الاستمتاع المجرّد بالثدي بعد الفطام.. ستقول لي أن هذا يرجع لكون حضن أمي كان خالياً من العري على عكس جدتي، ممكن.. لماذا لا؟!.. جائز لو كانت هناك فرصة للمس ثدي أمي العاري، ومسكه، والنوم فوقه – دون رضاعة – كان شعوري تجاه حضنها سيختلف.. أتصور يا دكتور أن استمتاعي بحضنها كان سيبدو غير قابل للوصف، وسيتخطى استمتاعي بحضن جدتي كثيراً جداً.. الغريب – أو يمكن كان هذا هو العادي وقتها – أنني لم أجرّب ولو من باب المحاولة الطفولية الطائشة، المتخلصة من التمهل أمام حسابات العواقب أن أطلب من أمي أن (تُخرج لي بزو).. يمكن فكرت في هذا الطلب لكنني كنت متأكداً من أنها سترفض، وسترفض بغضب شديد – لماذا أتحدث عن نفسي في تلك الفترة التي ربما لم أُكمل خلالها أعوامي الستة بعد كرجل قادر على لمس شهوته؟!.. في هذه اللحظة التي أتخيّل فيها غضب أمي يا دكتور أتأكد أكثر من احتمال أن جدتي هي التي بادرت بإخراج ثديها لي قبل أن أطلب منها ذلك، لأنني لا أتذكر امتلاكي لجرأة أن أطلب مثل هذا الطلب حتى من جدتي رغم بُعدها عن دائرة الأمر، والنهي التي تحاصرني.. لكن أرجع، وأقول أن هذا الاحتمال غير محسوم، ويظل مجرد احتمال، لكنه قوي.. من يعرف.. الطفل في هذا العمر ممكن أن يفعل أي شيء، أو يطلب أي طلب مهما كان عنف، وصرامة السلطة المفروضة على حياته.. لذلك يا دكتور فتعاملي بحرية مع ثديي جدتي، ويتحفظ مع ثديي أمي كان راجعاً لحساباتي الخاصة، وللصدف، وللتعوّد الذي يتحكم فيه آليات الخضوع والانضباط الأسري بشكل أو بآخر.

كنت أنا، وجدتي أشبه بعاشقين في السر.. بمعنى أصح أنا، وثدييها رغم أنني لابد أيضاً أن أقول بأنني كنت أحس معهما بمشاعر الرضيع.. مشاعر الطفل الذي كبر، ولا يريد أن يعترف بذلك، ويريد أن يستمر في الإحساس بأنه لايزال يرضع.. رغم تأكدي من أن فمي لم يلمس حلمتها.. بطريقة أخرى حضرتك تقدر تقول أن ثديَي جدتي كانا تعويضاً عن خيانة ثديَي أمي لي – اللذين لا أذكر علاقتي بهما وقت الرضاعة – وتقدر تقول أيضاً أنهما كانا بداية اكتشاف عشقي العظيم، وهوسي المحموم بالأثداء والحلمات.. أتصوّر أن هياجي كان واضحاً حتى ولو كان مُغطى بأحكام تقف بيني، وبين التعرف عليه وقتها.. أكثر لحظة شعرت، وتأكدت فيها بأنني وجدتي رجل وامرأة يمارسان جنساً ما حينما كنا وحدنا في البيت بالليل.. جميعهم خرجوا، وأنا طلبت منها أن نذهب إلى السرير، حتى تُخرج لي ثدييها.. بعد فترة رن جرس الباب، قمت من تحت الغطاء، وفتحت فوجدت أختي الكبيرة.. رجعت إلى جانب جدتي، وجذبت الغطاء كالمعتاد إلى رأسينا.. مدت أختي يدها ورفعت الغطاء، ورأت ثديَي جدتي خارجين من جلبابها، وأنا احتضنهما.. ظهر على أختي الاستياء – وليس الغضب – ثم تركتنا، وهي تنفخ.. انتظر.. تذكرت الآن يا دكتور أن ساعتها قالت شيئاً مثل: (ينفع كده؟!) أو (مايصحش كده).. لا أتذكر جيداً، لكن جدتي بنفس الهدوء، والبساطة، والتلقائية التي كانت تُخرجهما بهم، أدخلت ثدييها، ونهضت من جواري.. كأنها أُماً فُهمت خطأً، أو امرأة هائجة تستعيد شبابها باستغلال طفلٍ لا يفهم، وبيتٍ خالٍ.. أتذكر الآن عينيها وقت ما كنا مع بعضنا، وأنا أحتضن ثدييها.. عينان سارحتان كأنهما تريان شيئاً لم يعد موجوداً.. هل نقلت أختي ما رأته إلى أمها فعاتبت جدتي، ونبّهت عليها ألا يتكرر مرة ثانية؟.. هل كان ذلك – لو كان قد حصل فعلاً – سبباً في أننا توقفنا عما كنا نفعله؟.. لو أن جدتي كانت تعرف أن هناك عيب، أو خطأً لماذا لم تُدخل ثدييها حينما رن جرس الباب

يا دكتور؟!.. كان المشهد غبياً على أختي لأسباب تتعلق بخيالها الخاص، وليس بعلاقة طفل بثديي جدته العاريين.. العلاقة التي لم تنته حتى الآن يا دكتور، رغم موت جدتي منذ زمن بعيد.

بعد سنوات طويلة جداً يا دكتور، وبعد أن تزوجَت، وأنجبَت، وسافَرت خارج مصر للتدريس في إحدى الجامعات، وبعدما بدأ تواجدها على الانترنت مدعوماً بنصوصها، وشهرتها، وشهادات الأصدقاء، والنقاد، والقراء عنها.. بعد كل هذا يا دكتور نشرت أنا نصاً على أحد جروبات (الياهو) الأدبية التي كانت هي الأخرى مشتركة به.. فوجئت، بل صُدمت بأنها كتبت رداً ليس به سوى هذه الجملة (لسه فيه شعر وحش كده؟).. طبعاً مثلما قرأ كل أعضاء الجروب نصي على إيميلاتهم، قرأوا أيضاً ردّها عليه.. شعرت بغضب هائل يا دكتور لأنني اعتبرته – وقتها – تعليقاً مهيناً رغم كونه تافهاً، ولا علاقة له بالشعر، ولا بالكتابة، ولا بأي شيء سوى بخراء البيض.. شخرت، وشتمتها بيني، وبين نفسي خاصةً أنها أرسلت هذا الرد العبيط بعد نشر نصي بثوانٍ، فضلاً عن أنه تعليق لا يكتبه طفل مازال يتبرز على نفسه.. ما زاد من غضبي أن هذا الرد وصل لجميع أعضاء الجروب، وليس لي وحدي، وهو ما اعتبرته اعتداءاً على اسمي الذي أصبح وجوده في فترة وجيزة معروفاً للغاية في الأوساط الأدبية العربية على الانترنت.

أول تجربة جنسية تتجاوز حدود ما كنت أفعله مع جدتي كانت مع ابنتَي خالي.. كنا جميعاً في ابتدائي.. الاثنتان كانتا أكبر مني؛ واحدة بثلاث سنوات، والثانية بسنتين، وكان جسم كلاً منهما جميلاً، ويسبق سنها.. هما من اقترحتا عليّ اللعب (عريس وعروسة) في شقتهما التي تُجاور شقتي.. لا أتذكر متى، ومن أي شخص سمعت أن خالي، وزوجته يناما معاً أمامهما، ولذلك أرادتا تقليدهما معي.. غالباً تقافزت هذه المعلومة بين

لسانَي أمي، وجدتي بعدما اعترفت على علاقتي بإبنة خالي الصغرى أمامهما دون سبب ظناً بأنني أقوم بعمل بطولي، خبيث، أو من الجائز أنه حدث شيء لا أتذكره جعلني أقرر فضح الدنيا.. لكنني أتذكر يا دكتور أنني بالفعل رأيت ذات مرة خالي، وزوجته نائمين بجوار بعضهما في سرير حجرة نومهما.. كنت كالعادة ألعب مع أولادهما، وكنا تقريباً وقت العصر.. كانا نائمين، ويحتضن كل منهما الآخر، وغالباً كانا يقبّلان بعضهما أيضاً، والباب مفتوح.. متأكد أنهما كانا يرتديان ملابسهما، ومتأكد كذلك أن البنتين تركتاني، ووقفتا حول السرير للفرجة، والضحك، بينما دخلت وراءهما لأشاهد ما يحدث.. خالي، وزوجته كانا يضحكان أيضاً بدون أن ينظرا إلينا، وأنا لم أكن أفهم شيئاً على الإطلاق أكثر من أن ما أراه الآن يعد نوعاً من الدعابة الغامضة.. كان لابد أن أضحك كي لا أكون وحدي يا دكتور.. في هذا الوقت كنت أظن أن الواحدة تصبح حاملاً حينما يقبّلها الرجل فترة طويلة، وأن الأطفال يخرجون من فتحة شرجها، وأن الاغتصاب ليس سوى مرض عضوي يأتي للرجل، والمرأة في مكان مجهول من الجسم حينما يقبّلان بعضهما من الفم بدون زواج، وأن الممثلين في التليفزيون، والسينما لا يتبادلون القبلات مثلما نتصور، وإنما يقوم المخرج بتقريب صورتي وجهيهما إلى درجة الالتصاق (خدعة يعني)، وإلا لأصبحت جميع الممثلات حوامل.

لكن عموماً الموضوع في هذا اليوم يا دكتور لم يتطور أمامنا إلى خلع ملابس ومضاجعة، وإنما ممكن حضرتك تقول أن هذه اللحظة كانت تأكيداً على صدق المعلومة التي قالتها أمي وجدتي، وإشارة إلى اللحظات الأقوى التي لم أشاهدها.. طبعاً تلك اللحظات الأقوى أثبتتها البنتان من تعاملهما معي في لعبة (عريس وعروسة)، لكن دعني أولاً أقول لك أن زوجة خالي كانت فرسة بحق.. سمار، وثديان كبيران، ووجه شهواني.. كنا نقعد كلنا نتفرج على التليفزيون في شقتهم؛ أنا، وأبناءها، بينما تجلس هي وراءنا

لترضع طفلها.. كنت أنظر بطرف عيني إلى ثديها الكبير الرائع، وقلبي يدق بسرعة.. مرة فضحتني بنت خالي الكبرى، وظلت تمثّل لهم كيف أنظر إلى التليفزيون، وأحرّك عيني في نفس الوقت لأنظر على أمها، وهي ترضع أخيها.. كانوا يضحكون، وأنا مكسوف، وهائج.. هائج كطفل، بما يعني الفرح، والارتباك أمام ذلك البالون الأسمر، الذي يبدو ناعماً، وجميلاً، ومُطمئِناً.. هل كنت قادراً حقاً على تمييز اختلافه عن ثديَي أمي، وثديَي جدتي، الأمر الذي جعلني أتعامل معه ككائن لا أمتلكه، وبالتالي لا يحق لي التطلع نحوه مباشرة، ولمسه، بل الاكتفاء باختلاس النظر إليه كلما خرج من فتحة الجلباب، واستراحت حلمته في فم الرضيع؟!

تريد الصراحة يا دكتور.. السبب الحقيقي، والأساسي لغضبي الشديد، وما جعلني أعتبر ذلك التعليق إهانة قاسية هو أنه جاء منها هي تحديداً، وليس من أي أحد آخر.. من الأيقونة المعروفة، والنجمة البراقة، الراسخة، التي رضاها يعني الجنة، وعدم رضاها يعني الجحيم.. هذا كان شعوري يا دكتور.. أنا دخلت النار، ولن أخرج منها ثانيةً.. فكرت وقتها في أن اللغة، والطريقة المقتضبة التي ردّت بها على النص تليق فعلاً بإلهة متعالية، مقدسة، محصّنة، لا تحتاج إلى ثرثرة حتى تُصدر حكماً على أحد.. خمس كلمات كافية جداً لتقرر بها مصير أمثالي.. خمس كلمات فيهم من الحدة، والثقة، والتهكم ما يحوّلني إلى قطة شوارع تهرب من عجلات السيارات لتأكل من قمامة الخرائب.. لهذا يا دكتور، لم ينشغل عقلي المحطم، وأعصابي التالفة، ودمي المحروق بمسألة أنها لم تأخذ وقتاً في قراءة النص، والتفكير فيه، وأن تعليقها غير موضوعي، وأنه ليس هناك شيء اسمه شعر (حلو)، وشعر (وحش) أصلاً، بل كان استغراقي كله في أن رأيها يعبّر عنها.. كان من المفروض أن يكون هذا في صالحي، حيث أنها لا تُمثّل سوى نفسها.. لكن المشكلة، والمصيبة،

والكارثة أن رأيها يعبّر عنها حقاً.. يعبّر عن الأيقونة، ولهذا يا دكتور جلست أقرأ النص مرة، واثنتين، وعشرة.. ظللت أُعيد قراءته كثيراً، أتركه، ثم أعود إليه.. أقرأه، وأفكر فيه محاولاً العثور على ما يمكن أن يكون قد تسبب في عدم إعجابها به.. أُعيد قراءة كل التعليقات التي كتبها القرّاء، والكتّاب عليه في جميع المجلات، والمواقع، والمنتديات التي نُشر بها، التي عبّروا من خلالها عن إعجابهم به، بل وأعدت قراءة أجمل ما كُتب عن كتاباتي الأخرى:

(الحقيقة أنني قرأتُها في وقتٍ باكر، وَاكتفيتُ بقراءتها يومياً.. نسخته لصديقتي على الماسنجر، وَبقينا نقرأها معاً.. أنت تكتب كل شيء كما هو دون أن تُبالغ في وصفه، وَلأنك عميق، وَلأن الله يُحبّك جداً جداً؛ الحرف بيديك يبدو وَكأنه طفل صغير يميل للدلال، وَيعرف جيداً كيف يستقطب أرواحنا نحوه. ما قرأته هنا والله والله أكثر من رائع، وَأعتقد أنني سأسهر ذات ليلة مع كافة نصوصك لأكتشف السر).

(أستطيع أن أُعرّف (بهجة الحزن) – إن كان للحزن بهجة – هكذا: قراءة نص بديع كهذا.. تتجرد اللغة على يديك من خدعة التزويق، والابتذال، وتهبط إلى قاع كل واحد فينا لتهزنا بعنف شرس، وتعيدنا بكل هدوء للحظة بسيطة ومؤلمة كلحظة الولادة.. وماذا بعد.. يبدو أنك قلت كل شيء بطريقة أفضل بكثير لذلك سأصمت.. كم أنا سعيدة لأنني بدأت أكتشف وجودك).

(عندما تنتهي من القراءة لا تملك إلا الجلوس، والبكاء كثيراً بعد أن تدرك أن كل الأشياء البسيطة التى تحدث لنا يوميا هى بهذا الحجم من الألم، والمرارة، وأنها تستحق كل هذا البكاء وأكثر وأكثر وأكثر.. أخى؛ أتابعك منذ عام تقريباً حتى بت شخصاً أخراً).

كل هذه الآراء لم تعد لها قيمة فجأة يا دكتور.. ردها هو الوحيد الجدير بالاهتمام، وحمل الهم بسببه.. طالما قالت (وِحِش) بتلك الطريقة الساخرة، الذابحة فهذا معناه أنه سيء فعلاً.. لابد أن يكون العيب فيّ أنا، لأنه يستحيل أن يكون فيها.

هامش الرجل الذي ربما يكون طبيباً نفسياً، أو صائغاً من البصرة

كأن الجلسة تحدث على هامش المعركة الكبرى التي دارت بين (الأثينيين)، والنساء المحاربات (الأمازون)، ذلك لأنني اضطررت لمناقشته في آراء (إريك فروم) حول التأمل الفكري، والشعور، ووظيفة المجتمع في زرع الوهم داخل الذهن لحجب الحقيقة.. لكن يبدو أنه لم يكن مرتاحاً للفصل بين الذات، والموضوع هذه المرة الأمر الذي جعل وجهه يتخذ ملامح الشيطان الساخرة، المخفية منذ القرون الوسطى في ثنايا سحابة جدارية للفنان الإيطالي (جيوتو) بكنيسة القديس (فرنسيس).

كان السؤال الذي يشغله كثيراً، ويعيد ترديده لي، ولنفسه طوال الوقت عن ما الذي كان يتحدث فيه الذين يمرون في الشوارع أمام المباني، والبيوت التي كانت تُعقد فيها لقاءات، واجتماعات المجموعات الماركسية في السبعينيات.. هل كان منهم من يقف قليلاً تحت أحد الشبابيك العالية، ليأخذ درساً أخلاقياً، ومحاضرة نضالية عن رداءة الزمن، وفساد البشر، وخيانة الرفاق.. لكنه كان يطلب مني العودة إلى العصور الوسطى، وتخيّل الرموز الدينية التي كان يمكن لفناني الكنائس استخدامها في رسم (نادية سليمان)، وأطفالها الـ 14 أثناء تصوير فيلمها الجنسي.. على فكرة هو لا تعجبه حلمتي (نادية).

رأي مجموعة محددة في عملك.. الرأي يتحول إلى تقييم، وترتيب فتخرج نتيجة مسابقة.. هل هناك في العالم ما يستطيع إجبارنا على الاقتناع بأن تلك المجموعة أهم، وأفضل، وأعظم من مجموعة أخرى!.. مجموعة محددة.. مجرد فئة من البشر، وشكراً.. لكن على جانب آخر يمكن للواحد منا أن تكون له حسابات خاصة، أو معايير، أو دلائل – هل لاحظت أنني أستخدم عادة ثلاثة مرادفات – يمكنه بواسطتها أن يُفضل جائزة على

جائزة أخرى.. أن يحمل أغلب المحكّمين مثلاً جنسية أخرى غير جنسيتك.. لم يسبق أن تشرفوا بتبادل كلمة واحدة معك، ولا يعرفون عنك، أكثر من نصوصك، ولو رآك أحدهم في الشارع لما تعرّف عليك.. ليس هناك أي استفادة مالية لدور النشر من الموضوع.. لا يشير تاريخ المسابقة إلى ميل لمجاملة المشاركين، المشتغلين في الصحافة الأدبية، خاصة محرري المطبوعات الثقافية الشهيرة.. لم يسبق أن أثارت نتائجها من قبل تناحراً، وتقطيعاً، ونشراً للغسيل الوسخ مثلما حدث مؤخراً على صفحات (المدن).. لهذا أنا أعتز بالجوائز التي حصلت عليها جداً.. هذه الكلمات البسيطة، المؤقتة من وحي لقاء بمقهى (أندريا) بالمنصورة مع ضيف قاهري، وكاتب معروف، أسعدنا بحكاياته عن كواليس إحدى المسابقات الأدبية الكبيرة - مادياً - وهي الحكايات التي تظاهرنا - إكراماً له- أننا نسمعها للمرة الأولى في حين أننا سبق، وحفظناها عن ظهر قلب من آخرين كثيرين.

يقول فجأة أن (كافكا) لخص طريقة عمله في جملة (كل كلمة تنظر أولاً حولها في كل اتجاه، قبل أن تدعني أكتبها)، وأن (كافكا) لو كان مكانه كان سيفعل ما فعله: سيجمع المعارك بين كتّاب وسط البلد القاهريين على صفحات الانترنت داخل فولدر، ويسميه (غرام الخولات).

هل لديه مشكلة مع أسماء شخصيات (ديستوفيسكي)؛ ذلك لأنه بدأ اليوم في قراءة (الشياطين)، وراح يناديني بـ (نيقولاي فسيفولودوفتش) مجرداً دون (دكتور).

(3)

بنت خالي الكبرى أخذت جسم أمها.. ممتلئة، وساخنة، وذات ثديين ثقيلين، مشدودين بنعومة، وبحلمتين غليظتين.. جسد ليس له علاقة بسنها نهائياً يا دكتور.. أتذكر الآن أنني منذ مدة قصيرة، وبينما كنت أبحث عن فيلم سكس جيد بموقع Xvideos داخل قائمة الأفلام التي ينام فيها الآباء مع بناتهم؛ عثرت على فيلم بعنوان French father found his daughter on the casting.. بطلة الفيلم تشبه ابنة خالي الكبيرة يا دكتور في كل شيء: الشعر.. الملامح.. الجسم.. حتى أن أبيها في الفيلم يحمل نفس برود خالي، وثقل دمه.. وفقاً لمعرفتي به لا أستبعد أن يكون قد فعل شيئاً مع ابنتيه، حتى ولو على خفيف.. سأكون سعيداً لو تأكّد لي – رغم صعوبة ذلك بالطبع – أن الفيلم كان تجسيداً للجانب الخفي من علاقتي مع ابنة خالي.. أنني، وأبيها كنا شركاء فيها.. سأكون سعيداً لو تأكد لي أن مساهمتي كانت تنتمي إلى مشهد أكبر.. إلى حكاية كُنت خيطاً مؤثراً من خيوط حبكتها الشبقة.. لا أتذكر متى بالضبط قالت لي تعال نلعب (عريس، وعروسة)، وإذا كانت أول مرة معها، أم مع أختها.. المهم أننا بدأنا نقبّل بعضنا في بلكونتهما الصغيرة.. كانت ضلفة الشيش حينما تُفتح إلى الآخر تُغلق على السور؛ فتكوّن مع الحائط زاوية مقفولة، أو مخبأً صغيراً، لا نظهر لو جلسنا على الأرض بداخله.. كانت شفتاها مشتعلتين، ولسانها حارق.. لكن مهارات التقبيل صراحةً يا دكتور كانت أعلى لدى أختها الصغرى.. كانت في نفس المكان تطلب مني ضم شفتيّ، وزمّهما.. حينما كنت أستجيب لها، كانت تأخذهما في فمها، وتعصرهما بشفتيها، وأنا أذوب في دفءٍ لا آخِر لعمقه.. كأن جسمي كله يُشفط بحنان بالغ، سخاءه غير محدود، داخل رحم من الحرير الساخن،

المبتل.. كأن العالم كله قد أصبح هذا الرحم.. طبعاً حركة الشفتين هذه لم تأتِ بها من خيالها، وإنما كانت تقليداً لمنظر لم تتفرج عليه فحسب، وإنما جلست أمامه، واستراحت، وركّزت، وأخذت وقتها حتى حفظته بدقة.. طبعاً طعم أول قبلة، وبهذا الشكل، وفي هذا السن شيء ليس له حل يا دكتور.. اكتشاف للذة ليس هناك أروع منه، وحتماً لا يمكن لطعمه التبخر من روح الواحد.. كنت بيني، وبين نفسي أشعر بالسرور العارم لأنني أعرف أن هناك جسمَين ينتظراني لا يعرف أحد عنهما شيئاً.. جسمان جميلان، وممتعان، تحت أمري في أي وقت.. يوجد ثديان كالملبن، موجودين على بُعد خطوات، مختبئين وراء سوتيان، ويفكران فيّ، وينتظران الفرصة حتى يخرجا من أجلي.. حتى أتحسسهما يا دكتور، وأمسك بهما، وألعب فيهما.. هذان الثديان كانا ثديَي أختها الكبرى.. إحدى مزايا هذه البنت أنها كانت تُجيد تظبيط الحالة.. بمعنى أن الجنس بيننا كان لابد أن يكون من خلال قصة نقوم بتمثيلها، وطبعاً هذا الأسلوب الجبار كان يُلهب الممارسة أكثر، ويزيد من متعتي لأبعد مدى.. خذ بالك يا دكتور أن ذلك من الممكن أن يكون له علاقة، أو تأثير على مزاجي في الأفلام الجنسية.. أجمل الأفلام عندي هي التي تحكي قصة عادية جداً، قائمة على أحداث وتفاصيل بعيدة عن الجنس.. مشكلات روتينية، ومفاجآت محبوكة تجعل من الجنس حين يحدث فائق الحميمية، كأنه ينتمي دون شك إلى الحياة المألوفة للجالس أمام الفيلم.. مرة بناءاً على اقتراحها قُمنا بتمثيل مشهد الملوخية، والفرخة بين (سمير غانم) و(شيرين) في مسرحية (المتزوجون).. جاءت بطبقين فيهما ماء، وملعقتين، ووضعتهم فوق طاولة صغيرة داخل مخبأنا في البلكونة.. تبادلنا الحوار كما جاء في المشهد بالضبط، وبنفس الحركات، والانفعالات، لكن الفرق البسيط أنها تركت أزرار جلبابها البيتي مفتوحة كلها، وفرق ثدييها ظاهراً بكرمٍ باهر مع نصف صدرها العلوي.. لماذا يا دكتور.. حتى أمد يدي عندما ينتهي

المشهد – بناءاً على توجيهها – داخل الجلباب المفتوح، ثم أُمسك بثدييها، وأعتصرهما، وأنا أُقبّل شفتيها.. تذكرت الآن يا دكتور أن الاحتمال الأقرب هو أن مشهد مسرحية (المتزوجون) حدث بيني، وبين أختها الصغرى، وليس هي.. أنا تقريباً متأكد من هذا رغم أنني عمري ما أمسكت بثديَي الصغرى.. جائز تحسست فخذيها العاريين بعد المشهد، وأنا أقبّلها في فمها.. تذكرت.. أنا لم أتحسس فخذيها فقط.. هي رفعت جلبابها أيضاً، وخلعت الكلوت، وأنا أنزلت بنطلون البيجاما، والكلوت – بناءاً على إرشادها – ثم طلبت مني أن أُدخِله في هذه الفتحة، وأشارت إلى مهبلها.. كانت أول مرة أرى فيها مهبلاً بغرض اقتحامه – المرة الأولى كانت أختي لو فاكر يا دكتور – طبعاً فاكر لأنك خول.. كان صغيراً، ومقفولاً؛ فلم أرَ غير خط رفيع فاصل بين الشفتين الملحومتين.. لا أدري لماذا أنا متأكد الآن من أن عضوي كان واقفاً، وتقريباً أيضاً كان هذا أول إدراك للانتصاب.. عبرتني دهشة سريعة، فرحة، وأنا اكتشف حالة جديدة لعضوي لم يسبق لي أن رأيته فيها.. كان صغيراً، ولكن واقف، وهي غالباً كانت قاعدة على كرسي في مخبأنا الصغير داخل البلكونة، وفاتحة رجليها.. أمسكته، وضغطته فيها بدون توجيه، ولكن بشغف ملتذ، ومتأهب.. همسَت، وهي تتوجع "نزله تحت عشان داخل في بطني".. فعلاً أنزلته بفخر أنه أوجعها، ولا أتذكر ماذا حدث بعد ذلك.. تقريباً اقتصر الأمر على حكّات سطحية، ووخز ضعيف، ثم لَبِس كل منا كلوته.. خالي، وزوجته فضلهما عظيم عليّ يا دكتور.

كأنه كان لكل واحدة منطقة تميزها، أو حقل متعتها الخاص إضافة لبراعة التقبيل الحار، المشتركة بينهما.. الكبرى من فوق – رغم أن جسمها كان جميلاً كله – والصغرى من تحت – الفخذان الأبيضان، الناعمان، كموجتين طيّعتين من اللحم – حيث أنني لم ألمس أبداً ثدييها، ولو من فوق الملابس.. كنت أمثّل أنا، والكبرى أفلاماً من اختراعها؛ وتُحفّظني

السيناريو، والحوار كل مرة قبل أن نبدأ.. ندعي مثلاً - داخل البلكونة المقفولة- أنني دكتور، وهي مريضة، وأنها تتصل بي كي أحضر إلى البيت لأكشف عليها.. أقول -كأنني أكلّم نفسي- (الله، دي فيها حاجات حلوة قوي) -لاحظ يادكتور أنها مخترعة الحوار- ثم أقول لها (حاضر، جايلك حالاً).. أمثّل أنني ذهبت إلى بيتها، وأنني أكشف عليها بالسماعة، ثم أمد يدي من فتحة جلبابها المفتوح، وأُمسك ثدييها، واعتصرهما، وأنا أقبّلها من شفتيها.. مرة قالت لي بالحرف (عارف الحتة البارزة إللي في سِدري؛ أُعصرها جامد) فعلاً عصرت الحلمة جامد، وانتبهت إلى أنني لم أكن أعصرها قبل ذلك، وأن عصرها رائع جداً، وأن حلمتي زوجة خالي مهريتان بالتأكيد.

أجمل مرة يا دكتور كانت الأخيرة.. كأنه كان وداعاً غير مقصود.. كنا في الصيف، وكنت عندهم في الشقة، وكانت ترتدي جلابية حمّالات على اللحم، ولم تكن فتحة الصدر كبيرة فقط، وإنما أيضاً فتحتي الذراعين.. يعني باختصار كان ثدياها قادرين على الخروج من أي مكان.. كنت أنا، وهي فحسب، وكانت أمها في المطبخ.. جلسنا مع بعضنا في الحجرة مدة طويلة، وأمها لم تقرّب ناحيتنا ولو مرة واحدة - هل هناك مشكلة يا دكتور لو تصورت الآن أنها كانت تعرف، وتتجاهل، أو موافقة، أم أنا الذي أريد الاعتقاد بذلك؟ - عموماً لا أتذكر أي دليل، ولو بسيط يؤكد تصوري، لكن المهم أننا أخذنا راحتنا في هذا اليوم جداً رغم الباب المفتوح.. كان الفيلم الذي اخترعته البنت هذه المرة يفترض أنني خطفتها، وأخذتها إلى مكان مهجور، وفعلت بها كل ما أريده.. فعلاً يا دكتور أنا فعلت في هذا اليوم كل ما أريده لدرجة أنني شعرت فجأة بأنني، وهي لن نقدر على إيقاف أنفسنا.. شعرت أنها لن تستطيع بعد الآن أن تُخبيء ثدييها، وأنني لن أقدر على تركهما من يدي.. كان السيناريو يفترض أيضاً أنها أُصيبت بالإغماء تحت تأثير الاختطاف، وأنني حملتها، ونقلتها إلى مخبأي.. طبعاً

لم يكن باستطاعتي حملها.. نهضَت من على الأرض، وتحركت، ثم ألقت بنفسها على السرير كأنني أنا الذي قمت بذلك.. كانت متعاونة جداً يا دكتور، وحريصة على راحتي.. في هذا اليوم هرست ثدييها، وشفتيها بحق يا دكتور حتى جاء أبوها من الخارج.. من أمتع لحظات عمري ما حصل حينما دخل خالي إلى الحمام بعد رجوعه، وبعد أن عاد أخوها الأكبر هو الآخر، ودخل المطبخ عند أمه.. أنا، وهي جلسنا في الصالة على كنبة الأنتريه أمام التليفزيون لنشاهد فيلما أجنبيا كأنه لم يكن هناك أي شيء بيننا منذ دقائق قليلة.. البنت، وهي تعلم أن أبيها في الحمام، وأمها، وأخيها في المطبخ قالت لي بصوت واطيء: (أطلعهولك من هنا؟).. عارف يا دكتور ماذا كانت تقصد؟.. كانت تقصد أن تُخرج لي ثديها الذي في ناحيتي من فتحة ذراع الجلابية الحمّالات.. هززت رأسي موافقاً بشدة على الفور؛ فأدخلت يدها من فتحة الصدر، وأمسكت ثديها، وأخرجته من فتحة الذراع كأنها تعزف عليه موسيقى حالمة.. أمسكته، وظللت أتحسسه، وأعتصره، وأقرص حلمته حتى أحسّت بخطوات تقترب في الردهة المؤدية إلى المطبخ، والحمام.. أدخلت ثديها بسرعة، وهي تبتسم بخبث، وتشير بعينيها الشبقتين ناحية التليفزيون قائلة لي: (الفيلم جه).

تعرف ماذا فعلت يا دكتور؟.. كمذنب قرر التوبة بعد معصية.. أضفت إيميلها إلى الماسنجر طمعاً في الغفران، ثم جلست منتظراً عودتي إلى النعيم.. لم أكن أطيق روحي يا دكتور، ولا أطيق الناس، ولا الدنيا، ولا أعرف ماذا أفعل.. أريد أن أتصرف بسرعة لأعيد العالم إلى ما كان عليه قبل تعليقها على النص.. كنت أريد إصلاح الدمار الذي أصاب حياتي بعد ما كتبته عني.. قررت أن أتحدّث معها، وأعرف منها لماذا كتبت ذلك الرد.. طبعاً كان عندي ما يشبه اليقين بأن السبب يرجع إلى رفض أنثوي تقليدي لمشاعر رجل يكتب عن قتله بواسطة امرأة تحمّله مسؤلية آلامها، في حين أنه يفكر في نفسه كدويلير يتلّقى العقاب بدلاً من بطل غائب، هو

الوحيد الذي يستحق ذلك العقاب.. كنت أعلم أن في ذلك استفزاز ذكوري للجروح النسوية العادية، لكنني بصراحة لم أكن أتخيل أنها من الممكن أن تتورط، وتندفع بهذه السطحية وراء هذا الكيتش.. كنت أظن أن بمقدورها ترويضه أحياناً، إذا كان من الحتمي الاستمرار في خضوعها له.. كنت أريد التأكد من ذلك اليقين يا دكتور.

هل كنت أعتبر ثديَي ابنة خالي تعويضاً عن ثديَي أمها اللذين كنت أريد لمسهما، ووضع حلمتيهما في فمي.. لا أتذكر أنني وضعت حلمة ثدي ابنة خالي في فمي.. هي لم تطلب ذلك، مما يجعلني أتصور أنها لم ترى أبوها يفعل ذلك في أمها.. الآن أعرف أن علاقتي بثديَي ابنة خالي كان ينقصها شيئاً مهماً.. هل كان ثدياها تعويضاً عن ثديَي أمي، وجدتي، وعن ثديَي أختي اللذين لم أكن على علم بوجودهما حتى كبرت رغم رؤيتي لهما، وأنا طفل.. لكن أتذكر أن شعوري حيالهما كان مختلفاً عن ما كنت أحس به مع ثديَي جدتي.. مع جدتي كنت طفلاً فقط.. مع ابنتي خالي كنت طفلاً، يحاول ببهجة خالصة ألا يتوقف عند حدود طفولته.

مثلما يمكن للواحد، وهو يسترجع طفولته يا دكتور أن تجد مترادفات جمة في كلامه تتعلق بالنقاء، وانعدام التعقيد، أو الهموم، والطيران، والخفة، والبراءة، والشغف الصافي، ومثلما يمكن له أن يرتعش بمنتهى النشوة، وهو يراقب تحوّل تلك المرادفات على لسانه إلى معاني خارقة لشرح السحر المشبع، المحمي بالغفلة، والسكينة في تجربته لأمتع شيء في الوجود، وهو لايزال في الابتدائي.. يمكنه أن يخبرك أيضاً يا دكتور أن الطفولة بالطبع بها أمور غريبة جداً، خبيثة، غير معقولة، وتحدث فجأة دون سبب أكثر من أن فكرة، أو هاجس ما يأتي في دماغ الطفل، ولو بشكل عابر فينفّذه على الفور دون حرص، أو تفكير.. في المساء، وبعد المغرب تحديداً؛ كانت أمي، وجدتي، وأختي جالسات على الكنبة في شقتنا – لا

أتذكر إذا كانت بنت خالي الصغرى كانت موجودة من البداية، أم أنهن أرسلن لها كي تحضر عندما اعترفت عليها.. كان شيئاً وسخاً جداً يا دكتور.. قلت لهن أنها تقبّلني، وأنها تكشف لي عن (قمرها).. دعنا نقف قليلاً عند هذه الكلمة يا دكتور لأنني أتذكر أنها خرجت مني بينما أتهكم بغباء، كضحية، فاضحاً صاحبة الفخذين الجميلين.. من الممكن أنني أخذت هذه الكلمة من بنت خالي نفسها حينما قالت لي (دخّله).. لو أن هذا صحيح من أين جاءت بها؟!.. لكنني أشك جداً في هذا، ولذلك هناك احتمال كبير أنني لم أقل هذه الكلمة، وأنني استخدمت بدلاً منها تعبيراً آخراً حينما كنت أشرح لهم ماذا كنا نفعل.. جدتي هي من سألتها (ومش عيب توريله قمرِك؟).. بهذا من الممكن أن تكون جدتي هي أول من استخدم تلك الكلمة، وليس أنا، أو البنت، وهذا ما جعلها تلفت انتباهي، وتستقر في ذاكرتي.. مهبلها كان يشبه القمر فعلاً، وكان الشق الممتد في منتصفه يجعله بادياً في حالة خسوف انتظاراً لموعد التحوّل إلى بدرٍ واسع.. كان أقرب إلى هلالين ملضومين، ويبدو أن إطلاق اسم القمر على المهبل – ربما مهبل البنت خاصةً – له أساس في الخيال الشعبي، أو الريفي القديم.. ابنة خالي ظلت مسمّرة وجهها في الأرض بوجوم ذاهل، ولا تتكلم، ولا أتذكر أي رد فعل من جدتي أكثر من هذا السؤال، ولا أتذكر رد فعل من أمي، وأختي أكثر من الصمت التام.. تصدّق يا دكتور أنه بعد هذا الموقف بدقائق قليلة كنت أنا، وبنت خالي جالسين في مخبأنا المعتاد داخل البلكونة، ونقبّل بعضنا، وأحاول إدخال عضوي الصغير في مهبلها المقفول؟!.. الذي زاد فقط هذه المرة أن بنت خالي قالت لي بعتاب خافت (بس إوعى تقولهم).

لا أعرف لماذا اعترفت على هذه بالذات، ولم أعترف على الكبرى ذات الثديين الكبيرين.. جائز بسبب الثديين الكبيرين.. وجائز لأن بنت خالي الصغرى فعلت شيئاً لا أتذكره جعلني أنتقم منها.. جائز أيضاً لأنني خشيت

من الخطأ الذي أرتكبه في الخفاء؛ فقررت التطهّر بالاعتراف قبل أن يكتشفه أحد.. كنت سأُدلي به في جميع الأحوال يا دكتور حتى لو كنت متأكداً مليون في المائة أنني لن أنكشف.. كان الرعب من السلطة الأسرية المتمثلة في النظرات الصارمة، وتحديق العيون المحذرة، المميتة، والصفع، والإهانة كان كافيا لتعمّد إرضاء أبي، وأمي، وأختي، والاعتذار لهم على ذنب لا يعرفون عنه شيئا.. لكن غالباً يا دكتور أنني فعلت ذلك لمجرد رغبتي في فعله وقتها فحسب.. امتزاج بين الرغبة التلقائية في اختبار أي شيء بأي طريقة، والتخلص الآلي أيضاً من خطيئة قد تتحول مع استمرارها إلى عبء غير محتمل مع هيمنة الانضباط، والعقاب داخل البيت.. كأنني كنت أشعر بيقين تام أنني، وابنتي خالي مراقبين من الجميع.. في الطفولة يمكنك تخيّل أن المراقبة لا تقتصر على البشر، وإنما تشترك في مهمتها جميع الأشياء التي تحيط بك سواء كانت زخارف، ولوحات الحوائط، أو حتى أدواتك المدرسية.. أشياء تراقبك، وتسجّل كلماتك، وأفعالك، وربما أفكارك أيضاً، وفي وقت ما ستُبلغ أباك وأمك بها إن لم تكن قد أبلغتهما بالفعل أولاً بأول.. كنت أشعر بأن كل من حولنا يعرفون آثامنا السرية، وأن سكوتهم ليس إلا تحضيراً للجزاء الملائم.. أنهم ربما يعطون لنا فرصة آخذة في التضاؤل لعدم التمادي في الذنب، وإيقافه بإرادتنا قبل أن يزيد الاستمرار فيه من هَول العقاب.. العقاب الذي كلما تأجّل كلما أصبح أكثر بشاعة.. لكن الجزاء ليس كله ضرب، وإهانة يا دكتور.. ربما في أوقات غير محسومة قد يكون مجرد النبذ، التجاهل، الخصام المقترن بنظرات الحزن، وخيبة الأمل هو الجزاء الأعنف.. أن تتحول فجأة إلى الفاسد الملعون، الذي خان الثقة، وحطم أحلام الطيبين، المغلوبين على أمرهم!

شعرت بفرح الغريق الذي أمسك بقشّة حينما وافقت على إضافتي للماسنجر، وأول ما رأيتها أرسلت لها تحية روتينية؛ فردّت عليها.. فوجئت

بها يا دكتور، بعد رد التحية تكتب على الفور ما يشبه اعتذاراً عن الجملة التي علّقت بها على النص، وقالت أنها غضبت من نفسها، وأحست أنها تسرّعت، وكانت تتمنى لو لحقت بالرد قبل أن يُنشر بالجروب.. قالت أنها حكت لزوجها ما حدث؛ فعاتبها، لكن الأمر كان قد انتهى للأسف.. كتبت شيئاً يشبه هذا يا دكتور، وكل ما كنت أشعر به هو الزهو، والانبهار لأنني أتحدث معها.. الارتباك، والحرص المتوتر على عدم قول أي كلمة خاطئة حتى لا تنطبق السماء على الأرض.. بالطبع شعرت ببعض الارتياح، والهدوء من كلامها؛ فشكرتها بينما أحاول أن أبدو في منتهى الذوق، واللطف.. لكن المشكلة لم تكن قد حُلت بعد، لأن ندمها على الأسلوب لم يمحُ رأيها في النص، ولهذا سألتها بتردد عما لم يعجبها.. تقريباً قالت لي نفس ما كنت متأكداً منه.. تدريجياً أحسست بالأمان يعود لي يا دكتور، ليس بسبب التيقن من الدافع وراء تعليقها، والذي اعتبرته مجرد (حرقان نسوي تقليدي) ليس له أهمية، وإنما لأننا بدأنا نخطو خارج النقاش عن النص إلى الحديث في أمور أخرى.

طبعاً يا دكتور كان من ضمن الأسباب القوية التي أنجحت العلاقة الجنسية مع ابنتي خالي أنني كنت، ولازلت بشكل كبير من النوع المطيع.. أخاف أن أرفض، أو أمتنع عن تنفيذ طلب، أو أمر، سواء من الأسرة، أو من خارجها.. هذا الخوف حاضر بقوة في داخلي، ويجعلني متأكداً طوال الوقت من أن هناك عقاب دائم مجهز من أجلي في حالة مخالفتي الطلبات، والأوامر.. لا أعرف ما هو هذا العقاب، لكن كل ما أعرفه أنني لابد أن أفعل ما يُقال لي من أي أحد، ولهذا فإن لحظات تمردي في الطفولة كانت نادرة جداً يا دكتور.. كانت خاطفة، وغالبا سرية بالشكل الذي يحميني من الفضح، ومن تلقي الجزاء الذي كان يعني الضرب، أو التهديد المروّع به، أو الشتيمة.. على هذا فطالما ابنتي خالي أرادتا مني

أن أقبّل، وأتحسس، وأعتصر، وأقرص، وأحك، فلابد إذن أن أفعل.. لو لم يكن ذلك يمتعني كنت سأفعله أيضاً.

نسيت أن أحكي لك يا دكتور.. مرة كنت في شقة خالي عصراً، وكان نائماً في حجرته، وجدتي نائمة في حجرة الأولاد، وأنا، والبنتان في نفس الحجرة، بينما أمهما في المطبخ.. كنا نلعب نحن الثلاثة، وغالباً الكبرى هي من اقترحت أن أنام معهما سوياً.. أيوه، بالمعنى الذي جاء في دماغ حضرتك الآن يا دكتور.. أنا، والصغرى تحمّسنا جداً للفكرة، وبالفعل نمت بينهما فوق السرير الآخر المواجه للسرير الذي تنام عليه جدتي.. لا أتذكر من الذي قام بتنسيق الأداء، وجعله يخرج بهذا الشكل المنظّم: أضع يدي بين فخذي واحدة، وأقبّلها في شفتيها، ثم انقلب على جانبي الآخر، وأضع يدي بين فخذي الثانية، وأقبّلها، وهكذا.. كانتا تتشاجران في السرير يا دكتور إذا ما أحست واحدة أنني وضعت يدي بين فخذي الأخرى مدة أطول منها.. ظللنا على هذا الحال حتى جاءت مرة انتهيت فيها من تقبيل الكبيرة، وسحبت يدي من بين فخذيها.. كانت أفخاذهما ناعمة، وممتلئة، ونار يا دكتور، ولكن الكبرى كانت أكثر امتلاءاً واشتعالاً.. تذكّرت شيئاً مهماً جداً.. مهما قلت لك يا دكتور لن تتخيل السعادة الممتعة التي كنت أشعر بها، وأنفاس البنت الكبرى الساخنة، اللاهثة بفعل الإثارة، وهي تحرق وجهي أثناء التقبيل بينما يديّ تعتصران ثدييها الكبيرين.. أنا لا أحكي لأبي يا دكتور؛ لذا فمن الأفضل أن تتخلص من تلك الملامح الصارمة التي تحاول أن تبدو بواسطتها متفهماً، ومسانداً، ولكن على مسافة تبقيك بعيداً عن الخضوع لتأثيرات حكاياتي.. شكلك مضحك جداً يا دكتور.. المهم.. كنت أقول لك أنني انقلبت على جانبي لأن الدور كان على البنت الصغرى لكنني وجدتها تعطيني ظهرها وتنكمش.. استغربت؛ فأمسكت بذراعها العاري، وظللت أتحسسه، وأقبّله، وأنا ملتصق بظهرها، سعيداً بالتلاحم.. وجدتها تشير بخوف إلى شيء ورائي.. التفت؛ وجدت

خالي واقفاً بجوار السرير، ويشاهد أجمل منظر يمكن أن يشاهده أب لبنات.. بنتان نائمتان بجلبابين حمّالات، خفيفين، ومرفوعين لأعلي، وأنا بينهما.. كان الغضب ظاهراً على خالي، لكنه قال لي بصوت واطيء (قوم نام جنب ستّك).. فعلاً قمت، ونمت بجوار جدتي، لكنني لم أكن خائفاً، ولا أتذكر لماذا.. البنتان هما من كانتا مرعوبتين.. تذكرت شيئاً مهماً جداً آخراً يا دكتور.. البنت الكبرى كان شعر عانتها كثيفاً، وكانت يدي تذوب بجنون من لهيبه، وهي مضغوطة بين فخذيها.

هامش الرجل الذي ربما يكون طبيباً نفسياً، أو مونولجست في كازينوهات عماد الدين

لم أعد واثقاً هل من الصواب استفزازه بكلمات كالتي قالها القديس (أوغسطين) أن الإنسان يتذكر ذاته، ويعقل ذاته، ويحب ذاته، وأن هذه هي صورة الثالوث في الطبيعة الإنسانية، كأن الإنسان يحتوي صورة الله.. ربما يؤدي هذا إلى نتائج عكسية غير متوقعة؛ فيطلب مني – مثلاً – تخيّل الحياة الزوجية بين الطالب الجامعي الذي اشتعلت النار في حجرة نومه فـ (مشى) نحو مطفأة الحريق، والمرأة التي فقدت قلمها المفضّل فظلت في حالة عصبية شديدة لأيام متواصلة.

يعقد صلات بين أشياء غريبة، وأنا أحاول مجاراته في ذلك.. يقول أن لوحات مراكب الصيد في القرون الوسطى تزيد من كراهيتك لكل العوامل التي منعت تحوّلك إلى بحّار يوثّق يومياته مع الأساطير، لكنها في نفس الوقت تحميك من الغرق، ومن ضياع اليوميات قبل أن يقرأها أحد.. أرد عليه بأنني ظللت أتحاشى مشاهدة فيلم Amelie لأن شيئا غامضاً، يبعث على القلق في الملامح الطفولية، والنظرة البريئة لـ (أودري تاتو) إلى أن أجبرت نفسي على الجلوس أمامه؛ فعرفت أنني كنت محقاً في التخوّف مما سيصيبني في النهاية.. ما حلمت أن أكونه، وما تمنيت أن أفعله في الخيال، وفي الكتابة أيضاً كانت هي عليه، وفعلته في الفيلم، حتى أنني جرّبت – ولا أتذكر تحديداً كيف – أن أكون (نينو)، وأجمع الصور الممزقة من الشوارع بشكل أو بآخر لكنني فشلت.

لاشك أنه مريض ابن كلب جداً لأنه رد عليّ بأن كل كتابة مثلما تُقدم تعويضاً، وأكثر، فإنها أيضاً تثبّت في نفس الوقت استحالته، بل وعدم إمكانية حيازة ما امتلكه غيرك من تعويض على نفس خسارتك، لذا فأنا –

بحسب كلامه – لم أحصل على التجربة، وكذلك على كافة التوابع المعزّية لفقداني لها.. لكنني أقول له أن Amelie خسرت أن تكون عادية أيضاً، ولو أنني لا أعرف ما هي المعايير الجازمة للعادي، وما هي الفروق الراسخة التي تجعله نقيضاً لغرابة الأطوار.

هناك ملاحظات، وأفكار أحرص تماماً على تدوينها، حتى لو تأخر التدوين، وتم إرجاءه إلى وقت قادم.. تظل في ذهني، أحاول حمايتها من النسيان، ولا أهدأ إلا بعد استعادتها لو سقطت في ظلامه.. لكن هناك ملاحظات، وأفكار أخرى لا أهتم بتدوينها، وأعتمد على قوة ذاكرتي – حتى مع الشك في تلك القوة – لاسترجاعها.. ليس الأمر راجعاً للتعمد، وإنما بسبب الكسل، لكن في حقيقة الأمر فطبيعة الملاحظات، والأفكار هي التي تفرض – ضمنياً، ودون مبرر واضح– هل يجب الحرص على تدوينها، أم ترك مصيرها لحالة الذاكرة.. ملاحظات، وأفكار تعرف وحدها الطريقة التي تلائمها في الوجود داخلك.. ثم أن هناك ملاحظات، وأفكار عليها أن تُنسى.. تقول لنفسك: سأدوّنها فيما بعد، لكنك ستعجز عن تذكرها، وستضيع، لأن هذا ما ينبغي أن تلاقيه وفقاً لجوهر خفي يخصها.. ربما لأنها تمتلك مشيئة للعودة إليك في صورة أخرى، وربما لأن كل الملاحظات، والأفكار تتلبس بعضها، وربما لأنه لا يوجد اختلاف بين فكرة قديمة تضيع، وفكرة جديدة تطرأ، ويتم تدوينها.

هنا – مثلما تعوّد دون أي تمهيد– يبدأ في الكلام عن الفن الإغريقي، والهمجية، والقوطية، والأديرة، والكاتدرائيات، والقصور الملكية، والحكايات الشعبية، والشائعات.

أنظر إليه، وهو مستغرق بفرحٍ، وفزعٍ في حديثه فأرى أمامي ساحرة، عارية تماماً، يتخد شعرها، ومكياجها، وطلاء أظافرها الأسود رهبة السنوات الأولى من القرن العشرين في فرنسا.. أمامها بلّورة ترى فيها ثلجاً يتساقط

فوق بيت ريفي، به مدفأة، يجلس على مائدة طعام بجوارها امرأة، ورجل.. يتناولان العشاء، ويشربان النبيذ الأحمر، ويستمعان إلى أغاني قديمة، ويرقصان، بينما التاريخ على الحائط يشير إلى بداية القرن الواحد، والعشرين.

أحكي له عن إحدى هواياتي المفضلة: تختار واحدة من قائمة الفريندز على (الفيس بوك).. كاتبة.. صحفية.. مترجمة.. المهم أن يكون لها علاقة بما يسمى بالعمل، أو النشاط الثقافي.. تأخذ برنت سكرين لستاتس لها.. أي ستاتس.. تضع بواسطة برنامج Paint مستطيلاً أبيضاً على كلمات الستاتس لتجعل مكانه فارغاً.. تكتب على هذا الفراغ بخط Tahoma ويمقاس 10 - نفس خط ومقاس الستاتس الأصلي - أي ستاتس آخر: (لسه شايفة فيلم سكس، ومولعة نار)، (الواحدة لما بتفضل تلعب لنفسها كتير ريحة إيدها بتبقى وااو)، (النهاردة كنت راكبة جنب سواق تاكس، ابن الوسخة هاراني تقفيش).. يمكنك أن تكتب قصة كاملة بحسب مساحة الستاتس الأصلي.. بعد حفظ الصورة لابد من إجراء تعديل بسيط عليها بواسطة برنامج Photo Filtre Portable حيث تقوم بحذف التعليقات - لأنها ستصبح فاقدة الصلة بالستاتس الجديد، أو لو عندك وقت، وتريد تطوير الموضوع إلى مثاليته القصوى يمكنك تعديلها أيضاً بما يتوافق معه، وتُبقى على اللايكات، والشيرز.. مع خالص أمنياتي بسرتنة ممتعة.

أسمعه يسألني فجأة إذا كنت قد جربت من قبل الاستماع إلى (فاجنر) لحظة هبوب الأذان من ميكروفونات الجوامع الملاصقة للعيادة.

(4)

بدأت الحوارات في التكوّن بيننا على الانترنت، كانت قليلة لأنها لم تكن تفتح الماسنجر كثيراً، وفي نفس الوقت كانت أحاديثنا غالباً قصيرة، وليست متعمقة بما فيه الكفاية.. كلام عام عن حياتها، وبيتها، والجامعة، وعن مصر، والشعر، وأصدقائها الذين أعرفهم، وذكرياتها معهم.. بالنسبة لي كانت الرهبة تزول على مهل، وطبعاً نسيت موضوع النص تماماً.. في البداية كنت أشعر بكل ما يمكن أن تتخيله يا دكتور من خجل، وارتباك، وتوتر.. لكن التحدّث عبر الانترنت له مزايا كثيرة للغاية بالنسبة لواحد مثلي.. من تكلّمه لا يراك، يعني لن يشاهد احمرار وجهك، ولا تقلصات ملامحك عندما تفشل في كتم انفعالاتك.. أيضاً هو لا يسمعك، يعني لن تصله لجلجتك، واضطراب الحروف، والكلمات التعس، المضحك، الناقل الأمين لتشوش، وتخبّط أفكارك، ومشاعرك وهي تتصارع لرسمك في أفضل صورة دون جدوى.. التحدث عبر الانترنت يعطيك الفرصة للتفكير في الكلام، وفي الردود المناسبة لأن مساحة الصمت التي يستغرقها التفكير – خاصة لأصحاب المرض من نوعيتي – مجهولة، وغير مهددة ممن يمسك بالطرف الآخر.. يعني من الممكن أن يكون السبب في تأخرك عن الرد راجعاً لانشغالك بمسألة ما على الانترنت، أو لأنك بعيد في تلك اللحظة عن الكومبيوتر، في حين أن التأخر في الرد أمام شخص يراك سيفضح حتماً عجزك، وبطء البديهة الذي تعاني منه.. سيكشف احتياجك الكارتوني لأخذ وقت طويل في صياغة إجابة ذكية، وأنيقة.. لحسن الحظ أنها لم تكن تستعمل (الكام) أو (المايك)، ولم تطلب مني استعمالهما.

كان ساعات يا دكتور يكون عندنا ضيوف في شقتنا.. واحدة من البنتين تناديني، ونغلق باب الحجرة.. نستغل انشغال أهلي بالضيوف، ونمثّل فيلم

سكس من أفلامنا.. مرة الكبرى قالت لي: (أنا هفتح زراير الجلابية، وانت تسألني كأنك زعلان " انتي سايبة سدرك باين ليه؟ "، فأرد عليك وأقولك: " أنا عاملة زي الست دي " وأشاورلك عليها...).. كانت تقصد أن تشير إلى لوحة كبيرة معلقة فوق الحائط وراءنا لفلاحة وقعت منها الفاكهة على الأرض؛ فجلست بجوارها واضعة يدها على خدها، وجلبابها الريفي مرفوعًا، مظهراً فخذيها.. (بعد كده تبتسم، وتمد إيدك من فتحة الجلابية، وتمسك سدري).. نفذنا السيناريو، والحوار بالحرف يا دكتور، وأمسكت ثديها الذي كان نصفه مرئياً من الفتحة، وظللت أعتصره، وأقرص حلمته، وأنا أقبّلها حتى قالت لي (كفاية)، ثم طلبت أن نخرج قبل أن يأخذ أحد باله، أو يدخل علينا الحجرة فجأة.

في هذا الوقت كنت أحب التمعن فيما يظهر من أثداء، وأفخاذ (سعاد حسني)، و(نجوى فؤاد)، و(ميرفت أمين)، و(سهير رمزي)، و(هند رستم) و(نجلاء فتحي) و(ناهد شريف) وغيرهن.. هذا غير أثداء، وأفخاذ الممثلات الأجنبيات اللاتي عرفت فيما بعد أنهن (صوفيا لورين)، و(مارلين مونرو) و(جين مانسفيلد).. أفكر الآن في أنني كنت أشعر أثناء ذلك التمعن بالسرور، أو الاستمتاع النفسي الذي لم يكن له علاقة بالتعرف الصريح على الجوع الجنسي، أو التفكير في ممارسة واضحة، محددة لإخماد هذا الجوع.. كنت أشاهد، وأراقب، وأتفحص، وأستمتع فقط.. ربما لأنهن من كشفن عن أجسامهن أمام عينيّ؛ وإثر ذلك كان يجب عليّ الاستجابة.. ربما لو بقي كل شيء متمسكاً بغطائه ما خطرت في بالي أصلاً فكرة الاستمتاع بالتحديق.

لا أتذكر أنني شعرت بالاستغراب لوجود ثديين كبيرين لأمي، وأختي، وجدتي، ولا من عدم وجود عضو كالذي أمتلكه لدى أختي، وابنتي خالي.. ربما شعرت بذلك وقتها حقاً، وربما هناك شيء ما يمنعني من تذكره..

تذكرت الآن يا دكتور أنني ذات يوم أمسكت بأحد أمواس الحلاقة التي كان يستعملها أبي، ثم نظرت إلى عضوي الصغير.. أتذكر جيداً أنه كانت لدي رغبة في قطعه.. ليس في ذهني الوقت بالتحديد، لكنني متأكد مما أقوله، لدرجة أنني كنت أتخيل ما الذي يمكن أن يحدث لو قطعته فعلاً.. الدماء.. الصراخ.. أن أصبح كأختي، وابنتي خالي.. الرغبة كانت ممزوجة برعب بالغ من تنفيذها.. لماذا الموس.. وأي مناسبة تلك التي كانت تسمح لي بتعرية عضوي، والإمساك بالموس في نفس اللحظة دون انتباه من أحد.. هل كنت أعتبره بالذات جزءا زائداً عن الحاجة في جسمي لالزوم له، عليه أن يُنزع.. شيء بغيض، يجلب دائماً الإحساس بالفزع الذي تُسببه كلمة (عيب)، لذا ينبغي أن أتخلّص منه.. هل كان تفكيراً في إمكانية أن أتولى تنفيذ العقاب الذي أستحقه بنفسي؟!.

لكنني لابد أن أقول شيئاً يا دكتور أعتقد أنه من الممكن أن يكون أهم ما في تلك المدة القصيرة التي قضيناها في التحدث على الانترنت.. أنني وجدت أمامي واحدة أخرى غير تلك التي قلت لحضرتك أنني أعرفها جيداً من حكايات الناس.. كان يُقال عنها أنها حادة، وقاسية في كلامها، ولسانها طويل، وانفعالاتها عنيفة.. ما رأيته كان صورة مناقضة – أو جائز أنني الذي نجحت في عدم استفزازها – تؤكد على أنها إنسانة طيبة، بسيطة، ورقيقة.. هادئة، وغير متكلّفة على الإطلاق.. شخصيتها قوية، وذكية، وواثقة جداً من نفسها، لكنني لا أعرف من قام بربط هذه الصفات بالشر عندي.. هل الناس هي من غلّفت حكاياتهم عنها بتلك الانطباعات، أم أن ذلك الربط كان بديهياً بالنسبة لي نتيجة أساسيات معينة، وراسخة في تكويني، وزاد (إيماني) بصدقها بعد ردها العنيف على نصي؟.. لا أتذكر إذا كنت قد صارحتها بأنني وجدتها امرأة أخرى تختلف عن تلك التي يتحدثون عنها أم لا.. لكن في الأغلب لا.. ربما خشيت أن

تغضب، أو أن تفهمني خطأً، أو يمكن استقريت على أن هذا الاكتشاف ليست هناك أهمية من إعلانه، ولهذا احتفظت به لنفسي.

خلال تلك الفترة أيضاً لم أفكر فيها جنسياً، لأنها في نظري كأنثى لا تساوي شيئاً، لكن مجرد الحديث معها على الانترنت كان يمثل بالنسبة لي بهجة خاصة.. فرح الاقتراب من نمط حياة طالما حلمت به، وفشلت في تحقيقه، ولا زالت حياتي - وستستمر- دفع ثمن لذلك الفشل.. الحياة الأنيقة للكاتب كما تظهر في الأفلام الأجنبية: جامعات.. برامج كتابة.. ندوات.. فنادق.. مكتبات.. قاعات ندوات.. مضاجعة كاتبات، وفنانات.. حفلات.. مقاهي.. حدائق.. بيوت جميلة.. بحر.. أشجار.

هل تعرف يا دكتور جو فرق المسرح، والأفلام المستقلة، وورش الكتابة، والكوميكس، والحكي، وما شابه.. تمنيت على الأقل أن أعيش هذا الجو، وأن أضحك، وأقفّش في أثداء زميلاتي، وأتبادل الدعابات معهن، وأن نذهب إلى المطاعم، والكافيهات، والبارات، والديسكوهات، والحفلات العامة، والخاصة، وأن أضرب مؤخراتهن، وأضاجعهن في الكواليس، وفي شقق الزملاء.. تمنيت أن أكون واحداً من هؤلاء الذين ينشرون صورهم على (الفيس بوك) مع أصدقاء من الشباب، والبنات، ويظهرون فيها متلاصقين جداً، ويحتضنون بعضهم، وهم جالسون على كنبة تحت إضاءة خافتة، وأمامهم على الطاولة أكل، وخمرة، وسجائر، وحشيش، وموبايلات حديثة.. تمنيت أن أجلس، وتُلتقط لي صورة في مشهد كهذا؛ علي يميني واحدة تُخرج لسانها، وعلى يساري واحدة تبعبص للكاميرا.. أن نبدو سكرانين، وعلى وشك مضاجعة جماعية، أو انتهينا منها.

كنت أستغل كذلك الأوقات المناسبة حتى أُعرّف اصحابي متباهياً بأنني أتكلم معها على الانترنت، وأنها قالت لي كذا، وقلت لها كذا، متقناً تشييد صورة خارجية لعدم الاهتمام، وعادية الأمر.

مرة يا دكتور كنا نلعب على السلم أنا، وبنت خالي الصغرى.. لا أعرف هل كنا على وشك لعب (عريس، وعروسة) أم لا.. لكنني أتذكر أن بنت الجيران التي تسكن فوقنا نزلت لتلعب معنا.. بنت خالي قررت أن ألعب مع هذه البنت (عريس وعروسة).. كنت مستسلماً كالعادة، وليس عندي أي مانع، وكذلك وافقت ابنة الجيران.. قامت بنت خالي بزفّنا، ثم أخبرتنا بعد ذلك بأننا لابد أن نقبّل بعضنا الآن من الفم.. بنت الجيران رفضت.. كانت في سن بنت خالي، يعني أكبر مني بسنتين تقريباً، وكان عندي وقتها قل سبع، أو ثمانية أعوام.. كانت حلوة، لكنني لا أتذكر هل كان جسمها جميلاً، أم أنه كان لا يزال جسم طفلة.. المهم يا دكتور ابنة خالي استغربت جداً من رفض البنت، وظلت تلح عليها، وفي النهاية بعدما يأست منها قالت لها: (خلاص يبوسك من خدك).. رفضت البنت أيضاً، ثم تركتنا، وصعدت إلى شقتها.. لا أعرف يا دكتور ماذا سيكون رد فعلها لو كانت عرفت الطلب الثاني الذي ستطلبه منها ابنة خالي بعد التقبيل.

لا أتذكر متى انتهى كل هذا.. جائز حينما طلّق خالي زوجته؛ فأخذت أبناءها إلى محافظة أخرى.. جائز قبل ذلك بكثير.. لكنه شيء مؤلم جداً يا دكتور، وأنا واثق من أنك ستوافقني.. كان من الطبيعي أن يتطور الجنس بيني، وبين ابنتي خالي كلما كبرنا لا أن ينتهي.. لكنه بكل أسف انتهى.. دون كلمة واحدة يا دكتور.

أنا ضحية خِدع لا يمكن وصف وساختها، ولا نتائجها القذرة يا دكتور.. خِدع بدأت منذ بداية مراهقتي أوصلتني لحياة عقيمة بسبب الارتباط بالأسرة، والحبيبة، والمدينة التي ولدت فيها، والرغبة في الزواج، وما إلى ذلك.. لا تتصور ما الذي كنت أعده لنفسي يا دكتور.. شيء يشبه السيطرة على العالم، ربما بدأ انهياره فعلياً في اللحظة التي أُصبت فيها بالوسواس القهري، ورهاب الشوارع، والقولون العصبي.. الخوف الذي ظل

يتزايد حتى شل حركتي، وأهان طموحي، وتسبب في المصير الأسود الذي أعيشه الآن.

إقرأ يا دكتور هذه النماذج مما كتبته منذ عشرين سنة.. ما لازلت أعيد كتابته حتى الآن:

(صنعت في قصصي ما كنت أريده في الواقع، ولم يتحقق.. لقد صنعت شيئاً ما.. تجاوزت الآلام، والشرور، والقبح.. مخلوقاتي القصصية الصغيرة.. كائناتي الجميلة حقاً التي لم يعرفها إلا قليلون.. هي أعظم ما أمتلكه.. بل هي كل ما أمتلك.. التقدير الخاص لمسته، وشعرت به، لكن القبح باعتياده السافل يلتهم الجمال في مهده.. لكن.. أنا صنعت شيئاً جميلاً.. شعر به البعض، وأيقنت أنني أستحق تحققاً متزايداً لفني.. أما الآخرون.. فليظلوا في جحيم الإرادة، وذاكرتهم لن تحتفظ في النهاية سوى بالذي أريد أن يوقنوه عني فقط، وليس أي شيء آخر.. وإذا لم يحدث فلنقل أنني غير نادم عن ما قمت به من ترويض لعزلتي تجاه المسوخ، والبلهاء.. فلقد منحني في النهاية خلاصاً من الألم لم يتذوقوا لذته ولو لمرة واحدة (الفن).. هؤلاء (العاديون)، والباقي فحوارهم معي معروف).

(راقبت ما يحدث لأصدقائي مع أنفسهم، ومع بعضهم.. تم الوصول إلى الحد الكافي من الحميمية مع الأصدقاء.. التجربة، والاختبار، والطقوس أثبتت ذلك في أغلب الأحيان).

(إعداد ورقة عمل لمجالات الكتابة في المقالات الصحفية تشتمل على بنود متنوعة من شأنها تغطية الساحة الثقافية، والفكرية، والفنية.. الأدب.. السينما.. المسرح.. الفلسفة.. علم النفس.. الصحافة.. الفن.. الإعلام.. السياسة.. الفكر.. القضايا الثقافية.. الدراما.. النقد الأدبي.. التليفزيون، والإذاعة.. البرامج المختلفة.. علم الجمال.. فلسفة الفن.. تاريخ الأفكار.. التيارات الفكرية، والثقافية، والأدبية.. مراعاة العديد من النواحي الهامة في

ورقة العمل الخاصة بالمقالات مثل التنوع، والغزارة، والإلمام.. تتضمن ورقة العمل أيضاً قائمة خاصة بمصادر النشر من صحف، ومجلات، ودوريات مصرية، وعربية، وأجنبية، والسعي وراء التواجد (فيما يخص الكم) مع أكبر قدر من هذه المصادر الصحفية المختلفة.. تجميع المقالات في شكل كتب، وتوزيعها من خلال خطة دعاية خاصة.. المقالات القديمة سواء المنشورة، وغير المنشورة.. الإصدارات الأدبية: الأدباء، والنقاد، والمثقفون، والفنانون، والإعلاميون في مصر، وخارجها.. قائمة بالصحف، والمجلات، والدوريات المصرية، والعربية، والأجنبية، وكذلك الصحفيين، والمشرفين على الصفحات الثقافية، والأدبية.. الأخبار.. الندوات.. المقالات، والدراسات النقدية.. التعليقات.. مصادر إعلامية أخرى للنشر، والتواجد).

هامش الرجل الذي ربما يكون طبيباً نفسياً، أو طفلاً في إعلان لافاش كيري

ينام على الكنبة.. بعد قليل سأنام بجواره، وأبكي مثل (عبد المنعم مدبولي)، و(فؤاد المهندس) في (مطاردة غرامية).. يقرأ أمامي فقرة قصيرة عن العلاقة بين روما القديمة، والقوط الغربيين في إسبانيا.. أستمع إليه، متأكداً من أن الـ (هو) لديه قد بلغ أقصى درجات الرغبة في قتل (الأنا)، و(الأنا العليا)، وتحنيطهما، وتعليقهما أمام عينيه، ثم البكاء عليهما.

أعرف أنه بارع في رد اللعبة إليّ؛ فأجد نفسي مستسلماً للتداعي الحر، متيقظاً في نفس الوقت لقدرته على رصد التكرارات اللفظية التي أستخدمها في سرد الذكريات.. لكنني أيضاً بارع في إفساد اللعبة كلها.. أتعمّد إبراز سلوك معين، أو ألم مختزن بالكيفية التي تدفعه لتركيز انتقائي، يُربك (الانتباه العائم المتساوي)، حيث يعثر في ذلك السلوك، أو الألم على ما له علاقة بسلطة تخصه حتماً.. النتيجة دائماً تكون مضحكة بالطبع؛ فنماذج الصراعات التي ينبغي تحليلها معاً يجب أن تُعطي قبل أن نصدّق استقرارها أسباباً مُرضية لتبرير جدارتها كموضوع للنقاش، والحسم دون غيرها.. الجملة الوحيدة التي تمكّنت من قولها في هذا اليوم له: (الوسواس القهري مريض بك).

(لو كنت أعيش في العصور الوسطى؛ لفشلت أيضاً في النوم مع المرأة التي تجمع الزهور بجوار بحيرة ما، كنت ستعرف ذلك من اللوحات) هكذا رد عليّ.

لماذا لم يجعلني العالم أتكلم كثيراً، وأتحرك كثيراً، وأفاجيء من حولي بانفعالات لحظية غير متوقعة أبدو من خلالها ذكياً، ومجنوناً، ومتفلسفاً،

وساخراً، وعصبياً، وطفولياً، ومهموماً، وقيادياً، وحسّاساً بغرابة متناهية كـ (نور الشريف)، أو (يوسف شاهين) في (حدوتة مصرية).. لكن ربما ما نفع (يوسف شاهين) فقط أنه كان مخرجاً، ولاشك أن ذلك حرمه من أن يكون مثلي.. أنا مقتنع للغاية بأنني مثلما خسرت بسبب عدم وجودي في الحياة كشخصٍ ما؛ فإن ذلك الشخص – مهما كان – قد خسر بالضرورة أن يتخذ وجودي.. لهذا أنا أرفض، وبشدة مصطلح (الفن المسيحي) في القرون الوسطى.. فيه من التضليل ما يفوق الإهمال الذي لاقاه تحليل (هيجل) عن الديالكتيك في القبلة: (اختلاط الأفكار، والرغبات المتناقضة في التقاء شفاه الرجل بشفاه المرأة، حيث لديهما فرصة التحوّل إلى شيء أفضل).. يتذكر؛ فيقاطعني (لا أحب "هيجل" لكنني لا أنسى: "احتفل بهذا المزيج بقبلة، وسوف تكون قد طبّقت الديالكتيك بطريقة تجعل " ماركس "، و"انجلز" يغاران منك").

ينتقل من الكنبة إلى الكرسي.. يضع رِجلاً على رِجل كأنه جالس على مقهى.. أنظر إليه، وأتخيله ميتاً في هذه الوضعية، مستعيداً إفّيه (أمين الهنيدي) في (عبود عبده عبود): (أظن ده يوم القيامة يصقـتف، ويقول "الحساب").

يُعد التعالي على النوستالجيا من أهم سمات صاحب الشخصية القوية، ومن أنجح أدوات اكتساب الهيبة.. لكن ذلك التعالي ليس بالفعل السهل كما يتخيل البعض، بل أنه يستلزم في الواقع التضحية بثلاث ميزات: استيعاب إمكانية قدرة أي حالة حنين على الكشف عما لم يكن ظاهراً فيها بوضوح بناءاً على ما تقترحه من خلخلة للذاكرة.. فهم أن النوستالجيا ارتكابات لتكاثر الدال، وليست صلاة تأليهية لمدلول مهما بدا أن الخدعة – العاطفية – التي تدعي العكس متفوقة في عملها.. الاعتراف بأن التعالي في صورته الأعنف ربما يكون تعبيراً عن الانحياز للحنين

الشخصي، كراهية، وإنكار الضعف تجاهه، وذلك بواسطة الاعتداء على حنين الآخرين، والانتقام منه.. ربما يكون تعبيراً عن الغيرة الناجمة عن النسيان، والعجز عن التذكر.. لكن في النهاية لا عليك من هذه الميزات، حتى لو كانت التضحية بها تجعلك مستحقاً لأن توضَع على حمار بالعكس حتى يزفّك الأطفال.. كن متعالياً فحسب.

يأخذ سيجارة من علبتي التي على المكتب.. بعد أن يشعلها، يخبرني أنه توصّل إلى حل رائع لإنهاء مشكلة الشك في الذين يقولون، أو يكتبون عنه كلاماً جميلاً.. (على الأقل لم تصل بشاعتي للدرجة التي لا يقدرون معها على الكذب).. يمكن لهذه القاعدة أن تنجح أيضاً مع من يعذبه التفكير في ممارسة الجنس مقابل المال (على الأقل لم تصل بشاعتك للدرجة التي ترفض معها امرأة فتح فخذيها من أجلك، ولو بمقابل).. هذا ما تضطر إليه مع فقدان قوارب النجاة، وكلما خطوت داخل إعصار كالذي صادفت فيه (جوزيف كونراد) ذات مرة.

(5)

كما يبدو لي الآن أن أول واحدة كبيرة أشعر بالهياج عليها، وأفكر في جسمها طوال الوقت، ولا أتوقف عن تخيل نفسي نائماً معها كانت إحدى بنات الجيران التي تسكن فوقنا.. كانت فرسة جامدة جداً يا دكتور، ولازالت على فكرة حتى بعد أن أصبحت جدة، واقتربت من الستين.. كانت ملامحها، ونظراتها، وصوتها كأنهم مخلوقين من أجل الجنس فقط.. كانت طويلة، لكن دون مبالغة، مع ثديين كبيرين، واقفين، كأنهما محبوسين رغماً عنهما.. حينما تمشي، وهما بارزان جداً من تحت بلوزتها يظهرا كأنها تقدمهما هدية لكل المشتاقين الذين تعوزهم الراحة.. كان عليها استدارة مؤخرة بنت حرام.. حينما تقعد – أحياناً كانت تدخل عندنا لتجلس دقائق مع أمي – كانت مؤخرتها تفترش الكرسي، أو الكنبة كملكة قادرة.. اللحم المهيب يبرز من جَنبيها بمكر، كأنه لا يقصد شيئاً داخل الجيبة الضيقة، يقول لعينَي المذهول هذا هو العادي.. زبدة يا دكتور.. قشطة، خيالك لا يمكنه بلوغ طعامتها، ولا إجرامها.. أضف البياض، ومكياج الثمانينيات ستجد أمامك Cassandra.. إبحث عنها على الانترنت بروح أهلك يا دكتور.

كنت في أواخر الابتدائي، أو أوائل الاعدادي حينما بدأت أجن بهذه المرأة، وظللت هكذا حتى الآن.. هل شاهدت فيلم Malena يا دكتور.. كنت أتخيل أحياناً أن الغيوم الرمادية في الليل تتشكل على هيئة جسمها العاري.. تصفيفة شعرها، ووجهها، وثدياها الكبيران، وتموجات وسطها، ومؤخرتها، وساقيها.. كل هذا كان يُرسم في ظلمة السماء كحلم كوني، غامض، أنظر إليه برهبة، وهياج، كأن ذلك الجسد الساحر، المحلّق، والمفرود بما يمكّنه من احتضان المدينة كلها بين فخذيه سوف يسحبني إليه وحدي لأعلى..

كانت امرأة تطابق ما يقوله الكتاب - أي كتاب - عن المواصفات النموذجية للمرأة المثيرة.. ظلت تجيء إلى أمها يومياً منذ الصباح حتى آخر المساء بعد أن تزوجت.. كل ما كنت أشوفها على السلم، أو في الشارع؛ أحس بدمي يغلي يا دكتور لكن ليس فقط بسبب جسمها.. عيناها، والانطباع الذي تصدّره ملامحها طوال الوقت.. كأنها تخبرك دائماً أنها متعَبة للغاية، وتتمنى بشدة، ولم تعد قادرة على التحمّل.. انطباع لا يترك في داخلك شك بأن حياتها منقسمة بين ممارسة الجنس، وبين التفكير في ممارسة الجنس، وأن جسدها موجود فحسب من أجل الراغبين في الاستمتاع به.. لم أكن قد بدأت في الاستمناء يا دكتور لأنني لم أكن أعرف ما هو الاستمناء، لكنني حينما عرفته عن طريق أحد زملاء الثانوي؛ أصبحت هذه المرأة هي بطلة تخيلاتي في العادة السرية رغم أنني وقتها لم أكن أراها إلا نادراً بعد موت والديها.. كان مخزونها في ذاكرتي هائلاً، ويستحيل أن ينقص.. ضاجعتها كثيراً جداً يا دكتور وأغرقتها لبناً - بأثر رجعي - بما يعادل محيطات.

طبعا الاستمناء يا دكتور لم يكن مقتصراً عليها فقط.. كان معها (سعاد حسني)، و(نجوى فؤاد)، و(سهير رمزي).. كنت أتخيل نفسي أذهب إلى مواقع تصوير أفلامهن؛ فتتسلل كل واحدة بعيداً عن الموجودين حتى أنام معها خلسة في مكانٍ متوارٍ.. كانت هناك ممثلات أخريات، لكن هؤلاء كن الأهم.. مهم بالطبع يا دكتور أن أُبلغ حضرتك بأنني بدأت أتوقف عن العادة السرية على الممثلات، والراقصات تدريجياً بعدما اكتشفت أن الاستمناء على النساء اللاتي في حياتي أكثر إمتاعاً مثل جارتي الفرسة.. كلما كان احتمال المضاجعة في الواقع أقوى كلما كانت أشد متعة في الخيال، وأكثر إثارة فيما يتعلق بإحكام، وضبط حكاياتها.. بمعنى أدق أنت من المستحيل أن تنام مع (سعاد حسني) أو (نجوى فؤاد) أو (سهير رمزي)، لكن من يعرف؛ من الممكن أن تضاجع جارتك، وهنا بوسعك قبل

ممارسة العادة السرية أن تضع شروطاً، وعوامل واقعية ممكنة للغاية تخلق الموقف الذي يسمح، أو يعطيك الفرصة للنوم معها.. كنت أتخيل مثلاً نفسي أقفل باب الشقة، وقبل أن أنزل السلالم أجد جارتي واقفة، وتناديني بهمس كي لا يسمعها أحد غيري.. تطلب مني الطلوع لأنها تريدني؛ فأصعد، وأراها ترتدي قميص نوم فاجر؛ فأضاجعها.. هذا ممكن.. لكن كيف يحدث هذا مع (سعاد حسني)، و(نجوى فؤاد)، و(سهير رمزي)؟.. فهمت قصدي يا دكتور؟.. شيء آخر.. (سعاد حسني)، و(نجوى فؤاد)، و(سهير رمزي) ملايين البشر يستمنون عليهن، ويتمنون النوم معهن.. لكن واحدة مثل جارتي قد يكون من يمارس العادة السرية عليها، ويتمنى مضاجعتها بقية سكان العمارة، والشارع فقط.

أخبرتني ذات يوم أنها قادمة في أجازة إلى مصر قريباً.. دون تردد، وعلى الفور، وبتلقائية أُحسد عليها كتبت لها بأنه من الضروري، وحتماً أن تتصل بي فور مجيئها حتى نتقابل، ثم أعطيتها رقم موبايلي، وانتهى الحديث بيننا عند هذه النقطة.. انطفأ اسمها على الماسنجر أكثر من شهرين أقنعت نفسي خلالهما بأن رد فعلي كان حتمياً لأنه طالما بيننا تعارف ما حتى لو لم يرتق حتى الآن إلى مستوى الصداقة؛ فإنه من البديهي، وحتى من باب الذوق، والمجاملة أن أعطيها رقمي، وأن أطلب منها الاتصال، واللقاء حينما تخبرني أنها آتية إلى مصر.. أي تجاهل، أو صمت، أو أي رد فعل آخر خلاف هذا ستفسره هي بالتأكيد على أنني لا أرغب في مقابلتها، ولو أنني أيضاً لم أكن متأكداً إذا كان ذلك الأمر مهماً لها أم لا.. حاولت إقناع نفسي كذلك خلال تلك المدة بأن هناك احتمالات عديدة قد تمنع من حدوث هذا اللقاء: أن تحدث لها مثلاً ظروف تجعلها غير قادرة على الحضور إلى مصر، أو تكون أجازتها قصيرة للغاية، أو تكون طويلة، ولكنها مشحونة عن آخرها مما سيمنعها من إيجاد وقت للاتصال بي حتى تنتهي إقامتها، وتسافر ثانية في سلام.. كان لا يمكنني

تخيل لقاءها.. كان يستحيل عليّ إقناع نفسي بأنني سأجلس أمامها وجهاً لوجه، ونتحدث.. الشاعرة التي إذا لم تقدر عليها شعرياً، أو جسدياً؛ ملأت الدنيا صخباً عن فخرك بصداقتك لها، ووزعت شهاداتك الثمينة عن صلاتك الوطيدة بجهادها في الحياة، ودأبها في الشعر، وقوة (إيمانها) بنفسها.. التي خاف الكثيرون من الاقتراب منها نتيجة ما سمعوه عنها، وانشغل كثيرون آخرون بتعيين أنفسهم كجزء من تفاصيل حالة الإبهار التي تُفجرها في كل مكان تذهب إليه.. الكاتبة الفريدة، داهسة الوصاية، التي غارت منها الشاعرات، وخاصمن أصدقاءهن الشعراء بسببها، ثم رفضن الخضوع للعلاج النفسي منها.

كان تصور مقابلتها عذاباً لا يمكن وصفه يا دكتور؛ لذا عشت تلك الفترة على أمل أن ينجح أحد تلك الاحتمالات في التحقق، وتنتهي أجازتها، وتعود إلى الكومبيوتر المستقر في قارة أخرى، لنواصل التحدث عبر الماسنجر فحسب.

في المدرسة الابتدائي، وعلى مدار الست سنوات لم يكن هناك تلميذة أفكر فيها، أو أتمنى أن أفعل معها ما كنت أفعله مع ابنتي خالي.. جائز بل بالتأكيد لو أن تلميذة منهن طلبت مني أن نلعب (عريس وعروسة) كنت وافقت.. كنت قبّلت، وأمسكت، ولعبت، وتحسست، واعتصرت، وقرصت بقوة كالعادة.. لكن هذا لم يحدث، رغم أنني سمعت عن حالة نادرة، أو حالتين خائبتين بين زميل لي في الفصل مع بنت من فصل آخر داخل حمام المدرسة.. كأن شهوتي يا دكتور تظل مختبئة، ونائمة حتى تأتي واحدة تعريها، وتوقظها، وتشعلها.. على فكرة هناك آثار قوية، أو امتداد مستمر لهذا حتى الآن.. لكنني أحببت يا دكتور ذلك الحب الطفولي بأفكاره، ومشاعره، وتخيلاته البريئة، أو القامعة بمعنى أصح.. ممكن أذكر

لحضرتك ثلاث حالات تقريباً هي كل تجارب الحب الطفولي بالنسبة لي في ابتدائي:

زميلة قمحية، تبدو بملامحها، وبتسريحة شعرها كالقطة الوديعة.. كانت تضع توّك، وفيونكات تزيد من اقتناعك بأنها قطة فعلاً.. كانت جميلة، وطيبة، ومؤدبة، وفي حالها على عكس الكثير من بنات الابتدائي وقتها، وكانت زميلاتها يحبونها.. كنت أشعر أنها مهتمة، ومتعلقة بي من بعيد لبعيد.. لا أنسى يا دكتور عندما أجريت عملية اللوّز، واللحمية في الصف الثاني، وتغيبت عن المدرسة أسبوعاً كاملاً.. أرسلت كراساتها، وكشاكيلها مع أمي معلمة اللغة العربية في نفس المدرسة كي أنقل منها الدروس التي فاتتني.. كراريسها كانت جميلة وأنيقة مثلها؛ ملونة، وملصوق عليها زهور، وعصافير، وأشجار، وحيوانات، ووجوه كارتونية.. لكن لم يكن هناك موضوع بيننا، ولم تتجاوز علاقتنا أبداً حدود الزمالة، والكلام العادي، القليل للغاية رغم إحساسي بأنها تحبني، وتكتم حبها مثلي.. لا أعرف يا دكتور لماذا كنت متأكداً أيامها من أن حبي لها أقل من حبها لي، رغم أنه لم يكن واضحاً ما يدل على ذلك سوى المعاملة الطيبة، والرقيقة.. تذكرت الآن أنها كانت تبكي مثل القطط أيضاً بدموع صغيرة، وبصوت خافت يشبه المواء المتقطّع.. كان بكاؤها نادراً لأنها لم تكن تُضرب من المعلمات.. كانت متفوقة، ومهذبة، وتنظر لي دون أن انتبه.

الفتاة الثانية كانت بنت أخ، أو بنت أخت - لا أتذكر بالضبط - معلمة العربي التي كانت تدرّس لي في الفصل، والتي كنت أحبها، وأحترمها جداً.. كانت أصغر مني، ورغم أنها كانت ثقيلة، وباردة أحياناً، لكنني كنت أحب صحبتها بسبب هدوءها، ومسالمتها.. كانت جميلة، ورقيقة، وبيضاء، وصوتها غير مسموع، وشعرت أنني أحبها لدرجة الغيرة عليها من أحد تلاميذ فصلها.. كنا نمشي مع بعض كل يوم من المدرسة حتى

بيتي الذي يبعد خطوات قليلة.. نتكلم، ونضحك، ثم نوّدع بعضنا.. عمرنا ما تكلّمنا بصراحة في الحب، وما إلى ذلك لكن كان كل منا معلقاً بالآخر على قدر الصداقة، وبما لا يتجاوز الشعور المشترك بالبهجة من كلام أمي، وعمتها، أو خالتها بأننا سنكون لبعضنا حينما نكبر.. مشاعر، وحركات طفولية يا دكتور لكن ليس هناك ما يعادل جمالها.. ليس هناك ما يعوّض سحرها الذي انطفأ للأبد.

البنت الثالثة حكايتها حكاية يا دكتور.. باختصار كانت أجمل بنت رأيتها في حياتي.. حتى الآن لم أرى وجهاً ملائكياً يشبهها.. لكنها كانت عفريتة.. شقية، وخبيثة رغم صغر سنها، وضآلة جسمها، وضعف صوتها.. أحببت جمالها جداً، وكانت أصغر مني.. كنت أراقبها طوال الوقت، وأنتهز أي فرصة للتحدث معها في المدرسة، أو بجوارها حيث كانت تسكن في الحارة المجاورة لبيتي.. لا أتذكر كيف بدأت علاقتنا حيث كانت في صف أصغر مني، لكن بدأ ذهني في التأكد الآن من أنها بدأت في لفت انتباهي، والاقتراب مني، والتعلق بي – ربما بفعل صدف متوالية – إلى أن أصبحت مفتوناً بها.. لن أنسى يوم إحدى الحفلات المدرسية عندما جلسنا في جانب بعيداً عن الزحمة حتى نتكلم.. كانت قد وجّهت سباباً منذ لحظات قليلة لبنت أكبر مني، ومنها؛ فاشتكت لي تلك البنت من أن حبيبتي قليلة الأدب.. تحدثنا في الموضوع، وحبيبتي أصرّت على أنها ليست غلطانة فقلت لها فجأة (أنا بحبك).. طلبت مني بإجرام أن أقول (أنا حمار) حتى تقول لي هي الأخرى أنها تحبني.. قلتها بعد تردد فردت عليّ بأنها لا يمكن أن تحب شخصاً ليست لديه شخصية.. حزنت جداً منها يا دكتور، ومن نفسي لأنني كنت أحبها للغاية، وحتى هذه اللحظة أحلم بها.. لازلت حتى الآن أستعيد مشهد وقوفها في طابور الفرن المواجه لبيتي، وضمها ليدها البيضاء الصغيرة، النحيلة في وضع (البوكس) إذا رأتني واقفاً في البلكونة، كي تُرسل لي لكمات مُداعِبة في الهواء، وهي

تبتسم كوردة ضئيلة، لا يستحقها العالم.. أتذكر أنني رأيتها مرة واحدة فقط لما كبرنا.. كانت في كلية الآداب، ولا أتذكر كيف عرفت أنها دخلت قسم اللغة الفرنسية.. وجدتها أجمل مما كانت، وهي طفلة.. شيء وهم يا دكتور.. بجد لا يمكن أن تتخيل روعة عينيها، وملامحها، وشعرها.. الوحيدة من بنات ابتدائي التي قلت لأمي، وأختي أنني أحبها.. ضحكتا عليّ يا دكتور، وأنا تقريباً توقفت عن الكلام معها بعد (أنا حمار).

هؤلاء الثلاث فتيات لسن بالترتيب؛ لأن الطفل في ابتدائي بمقدوره أن يحب مائة بنت في وقت واحد.. ساعات مشاعره ناحية واحدة تعلو فيجد نفسه مركزاً معها دون أن يتخلى عن الباقيات، ثم تسيطر عليه أحاسيسه تجاه واحدة أخرى – لأسباب غير مستوعبة – فينقل تركيزه إليها، وهكذا.. كان الحب سهلاً، ولا تفسده عوائق، أما معاناته فتستطيع أن تأخذ، وتعطي معها، كما أن التعويض متوفر حولك بلا تعب، حتى وإن تأخر، أو توارى قليلاً.

حينما طالت فترة عدم ظهورها على الماسنجر؛ صار الاطمئنان يزيد بداخلي لدرجة أنني أوشكت على نسيان الأمر كله.. فكّرت أن معنى ذلك أنها الآن في مصر، ولم تجد وقتاً، أو لم ترغب، أو لم تهتم بالاتصال بي، أو أنها جاءت، وعادت، ولازالت مشغولة بترتيب أمورها، وأحوالها بعد الغياب، والعودة.. كلما مر الوقت، ولم تتصل أشعر بارتياح أكبر لأنه من المفترض أن الأجازة محددة بوقت عليها الالتزام به، وهذا يعني أنه حتى لو كان في نيتها الاتصال سيكون من الصعب جداً عليها أن تفعل لقرب انتهاء العطلة، وبالطبع واحدة مثلها ستكون في غاية الانشغال.. ظللت أقنع نفسي بذلك يا دكتور حتى جاءني ذات مساء، وأنا في البيت اتصال من رقم لا أعرفه.. لم تكن في بالي على الإطلاق، وكنت قد نسيت كل شيء يتعلق بأجازتها، وبرقمي الذي أعطيته لها.. كأن عفريتاً ظهر لك،

وأنت وحدك في البيت، تجلس غافلاً، ولا تتوقع الأذى خاصة حينما يكون بمثل هذه الشراسة، وانعدام الرحمة.. المفاجأة القاسية التي تُشعل كيانك، مهما بلغت حدة المصائب المبهمة، والمحتملة التي تفكر في إمكانيات حدوثها طوال الوقت.. لم أعرف ماذا أقول يا دكتور بعد ما قالت لي (إزيك).. افترسني فزع رهيب، وأنا أتلجلج، ولا أعرف أقول لها (إزيِك) يا ماذا!!.. هذه هي الحقيقة يا دكتور.. هذه المشكلة كان من السهل جداً تفاديها في الشات حيث لا تحتاج سوى أن تكتب (مساء الخير)، أو (إزيك؟) عند بدء المحادثة، أو ترد (كله تمام) حين تسألك عن أحوالك دون أن تتورط في مواجهة مباشرة مع اسم ينبغي عليك أن تكون ذكياً لأبعد مدى، وأنت تختار الغلاف المناسب له، أو أن تتركه مجرداً.. الأمر يختلف كلياً حينما تسمع صوتها في أذنك.. تخاطبك باسمك بشكل آلي للغاية، وبديهياً تنتظر رداً منك لا يقتصر على (إزيك...)، بل يجب أن يكون (إزيك يا...).. أي إصرار هنا على تفادي نطق الاسم سيكون فجاً، ومهيناً، وفاضحاً لخيبتي.. هذا إذاً ما كان يجب عليّ توقعه، وأنا أعطيها رقم موبايلي مؤكداً عليها بمنتهى العزيمة، والإصرار أن تتصل بي حينما تأتي.. كأن عقلي تحوّل على الفور إلى غرفة عناية مركزة يتخبّط داخلها برعب آلاف المسعفين لإنقاذي : لو ناديتها باسمها مجرداً فمن الممكن أن تعتبر ذلك تجاوزاً غير مبرر، ولا يمكن قبوله خاصة أن تعارفنا لم يمض عليه سوى زمن قصير، كما أننا لم نقترب بعد التعارف بما يسمح بهذا التبسّط، خاصة لو كان موجهاً من رجل لامرأة.. على جانب آخر فإن لقب (مدام) لن يجعلها في حاجة لسبب إضافي حتى تُسقطني من نظرها في بالوعة التقليديين الحمقى، الذين لا زالوا محبوسين في لغة الإرث الاجتماعي المتخلف.. لا يمكنني أيضاً أن أناديها بـ (أستاذة)، أو (إزّي حضرتِك)، أو (إزيِك يافندم).. كل تلك التعبيرات تحمل اعترافاً ضمنياً بالدونية لا أريد بالطبع أن تظنه عني، فضلاً عن أنها قد تُؤخذ من جانبها

كتذكير بفارق السن الذي بيننا، وهو ليس مهولاً إذ أنها تكبرني بتسع سنين فقط.. ماذا لو قلت لها (إزيِك يا حاجة؟).. بالتأكيد ستصنِف هذا اللقب كدعابة، ولكن هذا لن يحميني في خاطرها من تهمة التستر على تحاشي نطق الاسم، أو الفشل في إيجاد اللقب الصحيح.. عارف ماذا قلت لها يا دكتور؟.. (إزيِك يا ست الكل).. أليس لقباً عبقرياً حل جميع المشاكل في لحظة.. بصراحة كلما أتذكره، أستغرب من نفسي جداً.. كيف مع قوة المفاجأة، والصدمة العنيفة، والتوتر، ودقات القلب الثقيلة، المتسارعة، وضيق التنفس، والدوخة، ورعشة المفاصل تمكنت من التوصل لهذا الحل الرائع.. أولاً منعني من نطق اسمها سواء بلقب، أو بدونه.. ثانياً (ست الكل) صفة تحمل كل المعاني الجميلة: مجاملة لأنوثتها دون مبالغة، أو تكلّف، أو بذاءة.. تقدير مهذب لشخصها، ولمكانتها.. في نفس الوقت لا علاقة لهذا اللقب بالعمر، يعني ممكن للأب أن ينادي به ابنته، مثلما يمكن للابن أن ينادي به أمه.. حل رائع يا دكتور فرحت جداً بنفسي، وأنا أقوله رغم الرعب.. لكن للأسف رد فعلها لم يكن رائعاً.. أخبرتني بأنها موجودة في المدينة الآن، وسألتني عن المكان الذي أحب أن أقابلها فيه.. هل تعرف كيف قالت ذلك يا دكتور.. قالتها ملحّنة بضحكة خفيفة، واثقة، ظلت تجرح كل ما يصادفها، وهي تمر عبر الموبايل إلى داخلي.. حقيقة لم تكن تجرح بقدر ما كانت تلهو داخل الجروح الأزلية، والخالدة، المفتوحة دائماً كي تمنحها بتلقائية نشطة عمقاً جديداً.. هل هذه هي الطريقة المثالية للقاء المباشر الذي تم التمهيد له عبر الشات لمدة ليست طويلة بيننا.. لماذا هذه الضحكة الخفيفة، الواثقة يا دكتور؟!.. الضحكة التي تبدو كعنوان حاسم، مطمئن لأداءين ضمنيين مختلفين: تثبيت فوري، ومدرّب لسلطة يتم استدعاءها عفوياً حين يُلتقط من الآخر طرف خيط الخضوع المُسبق، وعلى جانب آخر إرسال تأكيد

جديد إلى الذات على امتلاك هذه السلطة.. يتحوّل كل موقف كهذا إذن إلى خبرة عادية، مستكينة، تنضم بهدوء لماضٍ متخم عن آخره بمثيلاتها.

بالنسبة للمعلّمات لا يخطر في ذهني الآن سوى واحدة كانت تُدرّس لنا المواد الاجتماعية.. كانت جميلة، وجسمها رائع، وكانت عصبية، وتضرب بغباء.. لديها بنتان أخذتا جمالها، وكانت مطلقة.. يمكنني الآن تفسير عصبيتها المبالغ فيها بالحرمان الجنسي الذي كان يُعذبها، لكنني للأسف لم أفكر في شهوتها، ولا في جسمها، ولم أتخيل حكايات، أو مواقف جنسية بيننا إلا في لحظات نادرة، وخاطفة جداً لدرجة أنني أشك الآن في حدوثها أصلاً.. جائز أن هذه التخيلات كانت مقتصرة على القبلات، والأحضان كما يليق بطفل في ابتدائي، واعتماداً على توجيهات التليفزيون.. لهذا يهمني يا دكتور أن أخبرك بأن جمال الوجه كان هو المستحوذ على كامل الاهتمام، والانشغال وقتها لدي مهما كان الجسم جباراً.. كأن الجسم لم يكن موضوع الانجذاب حتى لو كنت أمتلك ماضياً في التعامل معه كتجربتي مع ابنتي خالي.. ربما كانت الشهوة أيضاً تفرض تعتيماً بديهياً على الجسم وقت الرغبة في خلق صلة حسية مع البنت، أو المرأة.. لماذا لم استخدم تجربتي مع ابنتي خالي على الأقل في المقارنة بين جسميهما، وبين الأجسام الأنثوية الأخرى يا دكتور؟! لماذا لم أفكر، أو أتخيل نفسي أفعل في أجسامهم مثلما كنت أفعل في جسمَي ابنتي خالي؟! هل كانت معجزات ما أسفل الرقبة تضيع من ذاكرتي بمجرد الانفصال عنها، ولا تعود إلا مع رجوعي لعجنها؟ هل من الممكن أن انتباهي للجسد كان يحتاج إلى إرشاد من صاحبته أولاً حتى لو ينتظر عودتي من المدرسة جسد آخر سيتعرى من أجلي داخل بلكونة مغلقة؟!.. حصار يا دكتور لا تدركه مطلقاً يحتّم على مشاعرك البقاء في حدود جمال العينين، والملامح، والشعر، وطريقة الكلام، والسكوت، والمشي، والضحك، والجلوس، خاصة لو أثبت كل هذا أن صاحبتهم – مثلما تردد الأغاني

دائماً – قادمة من عالم آخر، وأنها – مثلما تردد الأغاني أيضاً – ليست بشراً مثلنا، وأنها تعيش وسط الملائكة – يخرب بيت أم الأغاني يا دكتور – إضافة بالطبع إلى الرقة، والنعومة، والمكياج البديع.. لا أعرف من أين أتيت بنموذج الجمال الذي كنت أقيس به، أو كيف تراكمت، وتناسقت المواصفات التي كانت تُطيّر عقلي حين أراها في امرأة، أو شابة، أو طفلة.. دعني أقول لك يا دكتور أن الجمال الذي أقصده قد يكون مرتبطاً بعينيّ كطفل، وتم تثبيت معاييره بآلية وفقاً لكتالوجات التليفزيون، والسينما، والصحافة وقتها، وهو – للعلم – لم يكن متوفراً في أي من فتيات، أو نساء عائلتي كلياً.. الذي تغيّر عندما كبرت هو أنا، في حين ظل الجمال كما هو.. لكن هل الجمال نفسه اختلف أيضاً يا دكتور، وما كنت أراه لم يعد موجوداً، أم أن مرحلة التعلّق بالوجه قد انتهت تدريجياً، وبصورة منطقية للغاية، ولم يعد لجماله دور سوى تعزيز، أو تعويض نتائج التركيز على الجسد؟.. هل هناك عوامل تتحكم في تشكيل الجمال ساهمت بقوة في اندثار ما لازلت أعتبرها أيقونات خاصة مع بداية التسعينيات؟.. التحقيب مخادع، ومضلل، وسادي.. أعرف يا دكتور.. أعرف أيضاً أنني أحدد الحقب الزمنية وفقاً لمراحل حياتي أنا أكثر مما أحددها وفقاً للتاريخ.. لماذا لا تعتبر أنني استغلها فقط كمجرد لغة أعبّر لحضرتك من خلالها عن مدى الخيانة التي أعيش فيها؟.. لم يتبق من تلك الأيقونات سوى أشباح، ومسوخ.. إنسَ عينيّ كطفل الآن يا دكتور، وحاول استرجاع الشوارع، وإعادة تأمل الصور الفوتوغرافية، ومراجعة الأفلام، والمسلسلات، والأغاني، والإعلانات التليفزيونية، وشرائط حفلات الزفاف.. لكن في نفس الوقت لماذا لا يندرج تفكيري هذا في نطاق الحماية العادية بمعيار يُفاضل، ويُفرز للفصل بين الجمال، والقبح وفقاً لذوق شخصي شكّلته سنوات الماضي؟.. أياً يكن السبب سواء نابعاً من النمو الفردي، أو من تبدّل العالم نفسه فإن لي الحق في الحسرة.. أحياناً يلح

عليّ الموضوع جداً يا دكتور تحت تأثير ذكرى، أو مشهد، أو حدث؛ فأبحث على الانترنت عن أحد تكلّم، أو كتب عن ما عشته في الثمانينيات، ليرسم –بواسطة التناقض، والتعدد، والتشابك– إشارات –غير حاكمة– لمقاييس جمال كنت –ولازلت– أراها متجاوزة طبقياً مهما كانت الإغراءات التي تريد إجباري على الاقتناع بأن تلك نظرة بديهية لابن الطبقة الوسطى.. عندي من الدلائل في المدرسة، والحي الذي كنت أسكنه، ومن البيوت، والشوارع، وكل الأماكن الأخرى ما يؤكد تصوراتي، أو على الأقل يمنع استبعادها.. أي شخص في أي زمن، وفي أي مكان يمكنه – وسيكون صادقاً طبعاً – أن يشرح لك يا دكتور كيف كانت هناك مخلوقات نورانية بحق تعيش على الأرض في طفولته، وأنها صعدت إلى السماء، وتركت خراباً ثقيلاً، معذِباً حينما كبر.. عندك مثلاً؛ منذ بداية صناعة السينما، وأفلام كل مرحلة تتحدث عن الانحطاط، وضياع القيم، وفساد الأخلاق في زمنها بعكس الأزمان المثالية الفائتة.. رثاء كوميدي، متواصل لعالم لم يعشه أحد.. يمكن لأي شخص أن يتكلم أمامك حتى يموت أحدكما أولاً عن التأثيرات الاجتماعية، والثقافية التي تتحكم في (الانهيار).. لماذا يُفرض على الواحد إذن أن يتناول الأمر بصيغة أفضل، وأسوأ؟!.. لا شيء يا دكتور اسمه الجمال الثمانيني الأعلى مكانة من الجمال التسعيني، وربما الأقل مرتبة من الجمال السبعيني، وهكذا.. تحدث كطفل عن نفسك، وهذا ما أفعله الآن.. عن حياتك دون تعميم، ودون تشييد سياقات، أو تعيين أنساق.. كنت أنظر إلى البنت الجميلة في طفولتي كأنني أنظر إلى سحابة ملونة.. نسيم غافل.. برودة معطرة.. كان الجنس مع ابنتي خالي متأججاً بتلك الخصائص.. حينما تقع نظرتي الآن فجأة يا دكتور على طفلة، أو بنت، أو امرأة دون أن استقبل جمالها بشبقٍ مباشر، وإنما أراها أنثى نادرة من جميلات الثمانينيات المنقرضات حتى لو يمشي حولها كثيرات أجمل، وأسخن منها.. لماذا هي تحديداً يا دكتور؟!..

هل لأنها تطابق النموذج المستقر في طفولتي الذي لا ينفع شرح مواصفاته؟.. لو استطعت شرحها لربما وجدتها تماثل معايير جمال أخرى، أو تطابق ما يعتبره آخرون مقاييس جمال عامة، ولهذا فهي لا تكتسب أي قداسة أكثر من كونها تنتمي لي فحسب.. هل لأنها صنعت لحظة حنين مبهمة، غير متوقعة، أحالتني لفتاة أخرى من الماضي لا أتذكرها؟.. الجمال هواجس متغيرة يا دكتور؛ قد تضطرك أحياناً لتصديقها كيقينيات ثابتة حتى تحصل على أدوات مناسبة لهدم أوهامها، ومبالغاتها.. عيناك اللتان يلتهم الوعي المتزايد طفولتهما.. الوجود المستقل لجمال أنثوي مرهون بتاريخك الخاص، الذي يحكمك الميل أحياناً لإلصاقه بزمن محدد كي تعيد خلقه كحالة عامة تختزل فيها كل ما هو خارجه، ولم يعد له وجود في حياتك الآن.. الجمال الذي ينبغي أن يموت في داخلك عند نقطة زمنية معينة حتى تفرح بالجروح الغائرة لافتقاده.. الانتهاز التلقائي لأي أثر محفّز، أو الاستجابة المتوسلة لأي رائحة عابرة من الأيام القديمة.. محاولة فهم الرتوش، والتحسينات القشرية، والمعالجات السطحية – أو الجذرية– من حقبة لأخرى لجمال يظل على حاله، ولا ينتهي.. الامتزاج غير المنضبط بين هذا، وذاك.. لا وجود لشيء اسمه الجمال يا دكتور.

هامش الرجل الذي ربما يكون طبيباً نفسياً،

أو ملحناً، وعازف جيتار في الثمانينيات

أغلب الظن أنه لو عاش في العصور الوسطى كان سيصبح كاتب أطفال.. كان سيحصل على دعم عظيم من الطبيعة، ومن الخيال الرومانسي، والثقافة الشعبية.. لكنه دون شك كان سيواجه عداءاً إجرامياً من العقائد التطهيرية، وسلطة الواجب الأخلاقي، والصراع بين الطبقات.

بحسب "لاكان" فأنا (مهني أزاول وظيفة رمزية)، وهذا يحتم عليّ أحياناً محاولة كسر التماهي بيني، وبينه، وتحويل خيالاته إلى رموز من الكلمات.. لكن بما أن تلك الإجراءات، أو الممارسات لا تنبع من يقين حاسم، بل تنتمي إلى رغبة في تحرير التفسيرات، والتأويلات التي تتعطل في جدالاتها، وإلهاماتها التعريفات، والمفاهيم الدقيقة المنضبطة؛ فإن الأمر يتطلّب مني إذن السعي إلى محو صورتي من خياله، وأنا أمتطي الخيول البيضاء، والبنية في القرون الوسطى داخل ضباب شتائي.. عليه أن يظل وحده فوق تلك الخيول، وأن يقاوم الخوف من السقوط، وأن يصبر قليلاً على الضباب.. اللذة الكامنة في تشريح الحصار المحكم للشهوات المتناقضة وراء عينيه المغلقتين.. هناك يكمن الزهو السحري، المتقطّع، الذي لا يجب أن يخسره حتى لو فقدته ذاكرته أحياناً، لأنه لن يعثر أبداً على ما يعوّض ذلك الألم الاستثنائي.

في إطار تحليلنا للكراهية؛ قلت له أنني لا أعرف عن الكراهية أكثر من شمولها، استهدافها للوجود المنفصل عن حياة إنسانية مثالية توجد في مكان مجهول.. أكره الجميع فعلاً، بمعنى أصح أكره بشاعة حضورهم المتعيّن الذي لا يزال يرسّخ إيماني بأنه لا أحد يصلح لي مثلما لا أصلح لأحد.. وجودهم الذي يعيش معي كبديل للمخلوقات الصحيحة التي لم تأت

إلى العالم بما فيهم أنا قطعاً.. أُحب كتّاب، وممثلين، ومطربين، وموسيقيين، وأبطال كارتونيين، وشخصيات تاريخية، وخيالية.. ليس لأنني أُحب أعمالهم وحكاياتهم، وإنما بدرجة أكبر لأنني عشت معهم دون أن يعرفونني.. كان هناك بشر يؤكدون على تلك الفكرة بوضوح تام في الأقمشة التي كانت تُطبع من اللوحات الخشبية المحفورة في العصور الوسطى.

مثلما أصبح مدمناً على مفاجئتي يتحدث بلا مقدمات عن فيلم (On est corps vivant)، وعن الأجساد الحية التي تحل في الأجساد الساكنة، المرسومة داخل اللوحات.. يخبرني أنه لا يمتطي حصان القرون الوسطى، وإنما يخلع ملابسه كلها، ويتخذ نفس وضعيته، متماهياً معه، وهو معلّق على الحائط داخل اللوحة.. يقول أنه يعدو ببطء داخل الضباب الشتائي عاجزاً عن تذكر طعم السُكَر، ومنتظراً سهماً، أو رصاصة من أي اتجاه.

أُذكّره بهواية اللعب بالستاتس التي شرحتها من قبل: كان هذا بالنسبة للنساء، ماذا عن الرجال.. تختار واحداً له نفس السمات.. كاتب.. صحفي.. مترجم.. تقوم بنفس الخطوات بالترتيب.. يمكنك أن تكتب على لسانه مثلاً (امبارح مراتي فتحت باب الشقة لبتاع النور، وهي لابسه قميص نوم، بنت الكلب عملت إن الوصل وقع منها، ووطت تجيبه قام سدرها خرج كله بره.. لما دخلت منعتها تخرج له تاني، ورحت أنا رايحله بالفلوس.. كانت ناقصة بتاع النور كمان).

يُخرج ورقة من جيبه مدوّن بها كلمات من قصيدة (أنا متعبة للغاية من جسدي) لـ (كريستين هامان): (الموسيقى الشائعة، سهرات الشرب / لحظات رومانتيكية / يمكن أن يُستخدَم ساعات / متظاهراً بأنه يتناسل).

لم أجد حرجاً في الاعتراف له بأن فهمي بطيء في أغلب الأحوال، وأنني عادةً أصل إلى الحلول متأخراً.. يمكنك أن تضع التربية المغلقة كتفسير،

ولن تكون مخطئاً تماماً.. التي تتحكم في طبيعتك طوال الحياة، مهما زادت سنوات العمر، ومهما حدث لك خلالها، وبشكل لا يمكن تصديقه.. التي شيّدت سوراً متيناً حول طفولتي، منعني من الخروج إلى عالم الغرباء، وأجبرني على الاختباء في الخيال تعويضاً عن واقع لم أتمكن من الاتصال به، فصار عدواً فاجراً، لا يقبل بالغنائم البسيطة حينما خرجت إليه وأنا أبيض، دون أدنى خبرة في مجاراة أبطاله المجرّبين، أو في التوافق مع آلياته المعقدة.. سيكون أهم تلك الغنائم هو القهر الذي يتركه دائماً في نفسك إدعاءك المستمر، المضحك، والبائس بأنك واحد من هؤلاء الأبطال.. فهمي البطيء مثلما يبدو لي – ليس راجعاً إلى خلل عقلي، أو عُقد نفسية، كما أنه ليس نتيجة سذاجة أصيلة في تكويني، أو طيبة مكتسبة من إرث متعدد، وإنما أيضاً لأنني صرت كفيفاً منذ اللحظة التي أيقنت فيها بأنه لا يوجد فهم، ولا حل ناجح.. تحت السماء ليس هناك فرق بين عماءٍ، وعماءٍ آخر، وليس هناك من يصل أبداً في الوقت المناسب.

(6)

هل التوتر الذي تملّكني لحظة سماعي صوتها كان شديد الوضوح فعلاً، أم أن المشكلة في (ست الكل)؟.. ظلت سخونة وجهي تتزايد، ويدي الممسكة بالموبايل تواصل الرجفة بينما اليقين بداخلي يُمعن في التضخم حتى بدأت أشعر أنني سأموت.. اليقين بأنها انتبهت تماماً لارتباكي، وأن (ست الكل) كان حلاً في منتهى السذاجة.. صفة مثيرة للشفقة، والسخرية، تجمع كافة الأضرار، وتتفادى كل المميزات.. ظهر جلياً خجلي من أن أناديها باسمها، كما أن تلك الصفة كانت أفظع في التعبير عن الدونية، وعن الرغبة المأساوية في نفيها.. ربما ليس بسبب الصفة نفسها بقدر النبرة الشاحبة، المرتعشة، والمتعثرة التي قِيلت بها.

يخطر في بالي الآن يا دكتور أن الطفل يستخدم في عاطفته الجنسية ما أتيح له معرفته.. المعلومات التي يحصل عليها، والاكتشافات التي كلما زادت كلما زادت معها شهوته، وكلما زادت بفضلها قوة استجابته لها، ورغبته في إشباعها.. هذا ممكن يا دكتور.. ما جعلني أفكر في ذلك هو وضع احتمال بأن التركيز الشبقي على الوجه، وإلقاء الجسم بعيداً عن كادر الرغبة يرجع إلى قمع مستتر يعمل بداخلي دون أن أشعر، زرعته المحاذير.. متى، وكيف وُجدت هذه المحاذير؟.. لا أتذكر أي أوامر مباشرة يا دكتور، أم أن كلمة (عيب) وحدها كانت كافية عندما كنت أطيل النظر إلى شيء غير ملائم في التليفزيون، أو أقول مثلاً كلمة على امرأة في الشارع، أو عن واحدة ليست حاضرة.. لكن هذا أيضاً لم يكن يحدث يا دكتور.. عمري ما تكلمت عن بنت، أو امرأة، كما لم يسبق لأي أحد أن قال لي (عيب) بخصوص ذلك الأمر.. ربما كنت أخضع للقمع ذاتياً عن طريق القياس؛ حيث يمكن من خبرة الفرجة على الواقع، وسماع كلماته،

ومراقبة أحداثه أن يحكم الطفل دليل إرشادات ضمني، لا يتطلب قول كلمة (عيب) على كل تصرف سيء، أو كل مخالفة.. ذلك ما يؤدي لما أسميته الآن يا دكتور بنقص المعطيات - وهو قمع مفروغ منه - التي تؤهّل الطفل للتعرف الكامل على شهوته الجنسية.

أنا عندي دليل على هذا يا دكتور.. كان عندي زميلين في الفصل، يسكنان معي في نفس المنطقة.. كانا مختلفين عني حيث كانت علاقتهما بالشوارع أقوى كثيراً، وبالتالي فخبرتهما في قلة الأدب كانت أعظم بالتأكيد.. يعني لم تكن هناك محاذير على وجودهما خارج البيت لأوقات طويلة، ولا على اختلاطهما بالناس، ولا على أن يكون لهما أصدقاء من شتى أنواع البشر.. هذا غير أن أحدهما كانت أمه راقصة، وإخوته يبيعون الحشيش، وغالباً أخته كانت مومس.. الثاني كان عنده أختان في الجامعة، وكانت واحدة منهما حينما أذهب إلى بيته كي نذاكر، أو آخذ درس تجلس بقميص النوم على الأرض، وينحسر حتى أعلى فخذيها.. على أساس أنني طفل صغير، ولا توجد مشكلة من رؤيتي لها هكذا.. فخذاها كانا أبيضين، وطويلين، ومتوردين دائماً.. مرة سمعتها تقول لأختها الكبرى بصوتٍ متهالك من الهياج (إحنا مش هنتجوز بقى).. واضح أنها كانت تريده جداً يا دكتور.. أخوها نفسه أراني صورها على البحر بالمايوه، ولهذا لم يكن غريباً أن تقعد أمه هي الأخرى أمامي -وكانت سمينة كالفيل- بجلباب البيت الحمّالات على اللحم، ويخرج من فتحتها ثلاثة أرباع ثدييها الضخمين.. ثدياها كانا عبارة عن درفيلين نصف عاريين، ويشيان بأسرة لا تطيق أرواحها.

ستفهم وحدك يا دكتور -إلا إذا كان ثقل دمك تعادل كفاءته غباءك- لماذا كنت أحب صحبتهما، وأكرهها في نفس الوقت.. في يوم من الأيام وجدت الاثنين في الحصة التي تسبق الفسحة يتفقان على شيء سيفعلانه.. كانا

يتهامسان، ويضحكان، وأنا كنت في طفولتي - ولازلت بالطبع - فضولي بشدة، ولا أحب أن يحدث أمر - خاصة لو بين اصحابي - دون أن أكون متواجداً فيه، أو على الأقل أدري به دراية كاملة.. طبعاً الغيرة لها دور كبير، أو تقدر تقول لها دور أساسي في كراهيتي لأن يكون بين اثنين من أصدقائي أسرار بعيدة عني.. ظللت ألح عليهما حتى يعرفّاني بما اتفقا عليه.. ابنَي الوسخة استمرا في الضحك دون أن يخبراني بشيء.. حينما جاءت الفسحة مشيت وراءهما داخل الفناء كي أعرف ماذا سيفعلان، وكانا بالطبع يدركان ذلك، ويعلمان أنني ملتصق بهما.. سمعتهما يادكتور يتحدثان في البحث عن (وجه جديد).. في الأول لم أفهم ماذا يعني ذلك، لكن فجأة وجدت حول الاثنين مجموعة من التلميذات في صفوف أصغر.. بنات أعرفهن جيدا، وأعرف أسماءهن، وأعرف بيوتهن لأن أغلب طلاب المدرسة كانوا من منطقتها، هذا غير أن أمي كانت تدرّس لهن اللغة العربية.. وجدت البنات يحاوطن زميليّ، ويضحكن لهما، ويمسكن بأيديهما، ويهمسن في آذانهما، ويتبادلن معهما الدعابات باللسان، والمسك، والضرب الخفيف المتدلل.. حينما رأيت هذا المنظر انتهت حياة، وبدأت حياة أخرى بالنسبة لي يا دكتور.. اترك ما حكيته لحضرتك قبل ذلك عن ابنتي خالي، و(سعاد حسني)، و(نجوى فؤاد)، و(سهير رمزي).. لن أنسى أبداً شعوري، وأنا واقف في الفناء هائجاً بهذا الشكل الذي لم يسبق لي أن عشته، رغم ما مررت به من قبل.. أتذكر أنه بالرغم تجربتي مع ابنتي خالي إلا أن هذا المنظر الذي يبدو بسيطاً للوهلة الأولى قد جعلني أشعر بما تعنيه الرجولة.. أن تكون ذكراً تغمره الشهوة، ويريد أن يشبعها بواسطة جسد أنثى.. اكتشاف فكك ذرات جسمي، وأعاد تركيبها بشكل مختلف في ثانية.. نشوة الإدراك الأول - رغم قصص الماضي المتخمة بالتقبيل، والتحسيس، والدعك، والقرص - لرغبتي الغريزية في الاستمتاع بجمال النساء... شيء غريب يا دكتور.. اكتشفت أيضاً أن الممارسة مع

ابنتي خالي كانت لعباً جميلاً، لا يخلو من اللذة، ولكنه مشوّش تحت ضغط القالب الضئيل لحياتي.. الواقف بيني وبين الاستيعاب.. كانت العلاقة بيني، وبين ابنتي خالي قد توقفت تماماً.. هل رأيت مهزلة مضحكة، وأكثر سفالة من هذه يا دكتور؟!.. عندما يكون هناك جسمين عاريين تحت أمرك يكون وعيك بالجنس أقل، وبالتالي استمتاعك به أقل، وحينما تفقدهما، وتشاهد فقط زميلين لك يتبادلان دعابات حسية غير بريئة مع بنات ابتدائي؛ تشعر بشبق حاد، وبرغبة في النوم فوق أي واحدة، ولا تجد.. هكذا أنظر للصورة القديمة من داخل لحظتي الحالية يا دكتور.. رغم أنني أيضاً لم أكن أعرف عن فعل (النوم) هذا أكثر من كونه عاطفة محمومة، مكبوتة، ليس في تصوري أداء محدد، ودقيق يجلب لها الراحة سوى الوصول إلى أقصى درجات التلاصق الجسدي مع الفتيات مع ضرورة أن أكون أنا الذي فوق.

كانت أول مرة في حياتي أرى جنساً واقعياً.. بالنسبة لي كان ما يفعله زميليّ مع البنات جنساً يا دكتور.. حينما تراه ناقصاً في التليفزيون، أو تمارس تعويضاً طفولياً له مع قريباتك شيء، وأن ترى أحداً غيرك يفعله فهذا أمر آخر تماماً.

هذا ما قلته لك.. كل من زميليّ عرف الجنس – بسبب أسرته – كما يعرفه الكبار، وبالتالي كانت شهوة كليهما شهوة كبار، واستجابتهما للشهوة استجابة كبار.. الولد الذي كانت أمه راقصة، وأخته مومس مرة جلس بجانبي يوم الجمعة عند الحلّاق المجاور للسينما.. كان الأفيش الضخم لـ (حمام الملاطيلي) ممدداً كإله فوق رأسينا.. (محمد العربي) يعتلي (شمس البارودي)، وشفاههم متلاحمة، بينما كادرات صغيرة من الفيلم بأوضاع جنسية مختلفة بينهما تزين الصورة الكبيرة.. كنت، وزميلي في انتظار الدور للحلاقة؛ فقرر أن يضيّع الوقت بشرح تفاصيل كل مشهد

في الأفيش: (في الصورة دي فاتحة رجليها، وهو مدخّل بتاعه من قدام.. هنا بقى بعد ما خلّص قدّام ركبها، ودخّل بتاعه فيها من وره.. هنا بيبوسها، وماسك بزازها، وهي سايحة في إيده خالص).. ظل يشرح لي بالتفصيل الممل يا دكتور، وأنا أضحك.. أضحك مثل أي طفل تُسرد له حكاية غير لائقة لم يتعوّد سماع مثلها.. كنت أشعر بالإثارة، لأنني كنت أريد أن أكون مكان (محمد العربي)، ولكن وقتها لم تكن تلك هي قضية حياتي الأساسية، ولم يكن الموضوع الذي من اللازم أن أبقى أسيراً له طول اليوم، أو على الأقل أتذكره كثيراً.. لهذا كنت أضحك كأنه كان يسرد لي نكتة طويلة فحسب.

كان لابد أن أقابلها يا دكتور.. لم يكن هناك أي مجال للهروب.. أي محاولة لتفادي اللقاء، والتحجج بأي عذر ستكون نتائجها شديدة السوء على حياتي بصرف النظر عنها.. أنا أعرف روحي يا دكتور.. كنت سأظل أجلد في نفسي، وأعذّب حالي، وأقطّع في أعصابي، وأعاقب من حولي على جُبني الذي دفعني للفرار من شيء المفروض أنه جميل، وممتع، أو حتى عادي لأي واحد مكاني.. شيء يفعله الآخرون ببساطة، وتلقائية، ودون تفكير.. بلا غرق، أو اختناق، أو حسابات.. سألتها عن مكان وجودها الآن بينما أمعائي مشدودة، وتتقلص كأنها تخص أعمى يتجهّز لخوض معركة إجبارية من أجل البقاء، ويعرف تماماً أن فرص انتصاره معدومة.. أخبرتني أنها في صالة فندق؛ فطلبت منها أن تأخذ تاكسي، وتأتي إلى (كافيه) أعطيتها عنوانه.. حينما سألتني عن السبب يا دكتور قلت لها أنني أريد شرب الشيشة.. سألتني عن احتمال أن تصل قبلي، فأكّدت لها أنني سأكون موجوداً حينما تصل لأن (الكافيه) قريب من بيتي، وأنني نازل حالاً.. أنهيت المكالمة، وبالطبع كل الكلام الذي قلته لها كنت أبذل مجهوداً كبيراً حتى يخرج من بين شفتيّ دون عراقيل، وبالشكل الذي

يوحي بشخصٍ واثقٍ، ليس في دماغه شيء، خبيث ومجرّب.. لا أعتقد عموماً أنني نجحت في توصيل ذلك الانطباع لها.

طلبت من الولدين أن أكون معهما.. يساعداني أن أكلّم بنات مثلهما، وأن أمشي معهن في الفناء بأذرع متشابكة مثلما يفعلان.. طبعاً كانت فرصة للاثنين أن يسخرا مني، ويعيشا في دور المهمّين، الخبيرَين، كأنهما يقوما بمهمة سرية خطيرة، لا يصح أن يشاركهما فيها شخص جديد.. لا أتذكر كيف ضمّاني إليهما في النهاية.. وجدت نفسي فجأة أُصاحب كل الفتيات اللاتي يعرفانهن، وأدركت وقتها لأول مرة في حياتي ذلك العالم المُسمّى بـ (تعليق البنات).. ماذا أقصد بـ (صاحبتهن)؟.. يعني مثلما قلت لحضرتك نتكلم، ونتبادل الدعابات، ونمشي بأذرع متشابكة.. أستطيع الأن أن أخبرك يا دكتور بأن الفتيات في ابتدائي، وربما في إعدادي أيضاً – مثل الأولاد بالضبط – من الممكن أن يرافقن أي ولد.. يعني لا توجد مقاييس، ولا مواصفات.. أي شيء في أي شيء من أجل أن يحاول كل واحد، وواحدة حيازة إحساس بنفسه، وبالآخر.. فك شفرته.. اختبار الذكورة، والأنوثة الطفولي.. اكتشاف متعة الشعور، ولذة التلامس الأولى.. بداية التيقن من الوجود.

وصلت لمرحلة يا دكتور أنني كنت أمشي في الفسحة، ومعي أربع، أو خمس بنات.. التي في ذراعي، والتي تسند رأسها على كتفي، والتي تسير في الخلف منتظرة أي فرصة.. فاكر البنت زميلتي في الفصل التي حكيت لك أنها تشبه القطة، التي أرسلت لي كراساتها، وكشاكيلها عندما أجريت عملية اللوّز واللحمية، وكنت أشعر أنها تحبني؟.. مرة رأتني بعد انتهاء الفسحة، وأنا أصعد السلالم متوّجاً في صدارة موكب من الفتيات.. سألتني بغضب واستنكار (انت ماشي مع البنات؟).. كان ظاهراً من ملامحها، ومن نبرة صوتها أن معنى سؤالها هو (عيب كده) لكنني كنت واثقاً من أن

معناه هو (المفروض تمشي معايا أنا بس).. تصدق يا دكتور أنني يومها غضبت من روحي جداً.. شعرت بأنني أخطأت في حق نفسي، وارتكبت خيانة لزميلتي رغم أنه لم يسبق لنا الكلام بصراحة عن مشاعرنا.. كنت حزيناً على قلبها الذي خُيّل لي أنه تحطم بدم بارد تحت قدميّ اللتين كانتا تصعدان السلالم مع البنات.. لكنني عموماً ظللت أحب المشي معهن، والكلام، والضحك بدون لمس، أو شد شعر، أو دغدغة في الصدر، والبطن مثلما كان يفعل زميليّ فيهن.. جائز بل مؤكد أنني كنت أحس بالخجل من القيام بهذا.. مع ذلك كنت أشعر بنفسي حقاً كرجل يصاحب نساء رغم أنني لم أكن أفكر مطلقاً في أجسامهن.. كان كل تفكيري، وهياجي مقتصراً على ملامحهن التي فيها الجميلة، والعادية، والدميمة.. هل كان لديهن أجسام أصلاً يا دكتور؟!.. طفل الابتدائي ربما ليس في حاجة لثدي بارز، أو مؤخرة كبيرة حتى يبدأ التفكير في جسد البنت، حيث يمكن لأي محرّض آخر - كأن تكون أمك راقصة، وأختك مومس - تولّي القيام بهذا الدور.. من عجائب القدر فعلاً يا دكتور أنه على الرغم من الإثارة غير المسبوقة التي انتابتني كالإعصار حينما رأيت زميليّ للمرة الأولى يصاحبان البنات إلا أنني عندما صاحبتهن لم تنشغل شهوتي سوى بوجوههن، وعيونهن، وتسريحات شعرهن.. ربما كنت وقتها في حاجة لجلسات أكثر مع زميلي عند الحلاق تحت أفيشات السينما.

ذات يوم نادتني أمي بعد الفسحة.. ذهبت إلى فصلها فوجدت إحدى تلميذاتها الأصغر مني تبكي، وتشتكي لها بمنتهى الألم، والغضب من أنني ضربتها، وشددتها من شعرها، وشتمتها بأبيها، وأمها ساعة الفسحة في الفناء.. ظللت أحدق في بنت الخوّل هذه يا دكتور، غير قادر على تصديق براعة تمثيلها، وقدرتها على ترتيب أحداث كاذبة بتلك المهارة.. قلت لأمي أنني لم أخرج اليوم من الفصل أثناء الفسحة أصلاً، وأن زملائي يشهدون على ذلك.. لم تعاقبني أمي، ولم تعاقب الفتاة بل تجاهلت الأمر

كأنما لم يكن.. أنا الذي انشغلت مدة طويلة بالسبب الذي جعل هذه البنت تتهمني زوراً بذلك الشكل رغم عدم وجود أي سابق معرفة بيننا.. لم أجد مبرراً – وهو ما سبب لي زهواً كبيراً – سوى أن تلك الفتاة تقتلها الغيرة من مصاحبتي لزميلاتها في الفصل، وأنها ربما تراقبنا يومياً بحسرة، ونحن نسير، ونضحك، ونلعب وقت الفسحة، وتتمنى لو حققت لها أمنيتها بمرافقتي.. هذه البنت قررت الانتقام حينما لم تجد مني سوى التجاهل، رغم أنها لو كانت وقفت على بعد خطوات قليلة مني، وابتسمت مجرد ابتسامة صغيرة، خاطفة في وجهي كنت هرعت إليها على الفور.

تعرف يا دكتور لماذا لم أذهب إليها صالة الفندق؟.. طبعاً ليس فقط من أجل الشيشة التي كان احتياجي لها ضرورياً، ومُلحاً جداً وقتها.. لأنني أيضاً – كالعادة – كنت أخشى من أن يحدث لي شيء في مكان بعيد عن المناطق التي يوجد فيها من يعرفونني.. الذين من الممكن أن يحضروا في أسرع وقت لو استدعيتهم نتيجة شعوري بأي تعب مفاجيء.. هذا هو مرضي الأساسي يا دكتور، أو أحد أمراضي الرئيسية.. عندي اقتناع مؤكد، ويقين تام، ومحسوم بأنني معرّض للإصابة بتعب، وليس أي تعب، وإنما تعب خطير في أي مكان بعيد عن بيتي، وعن البيوت، والأماكن التي من الممكن أن يتواجد فيها أحد أعرفه، ويمكنه أن ينقذني بسرعة.. بالطبع أنا معرّض لهذا التعب أكثر، وخطورته ستزيد كلما زادت المسافة بيني، وبين أقرب شخص وارد أن يأتيني، كي يأخذني إلى المستشفى.. أنت تفكر الآن يا دكتور في أن التعب يمكن أن يصيبني داخل بيتي، وفي الأماكن التي يتواجد فيها من أعرفهم، ويعرفونني، لكنني أؤمن بأنه قد يكون أخف، أو أقل حدة بكثير.. هل كنت تريدني يا دكتور إذن أن أذهب لمقابلة واحدة كهذه في مكان يبعد كثيراً عن أقرب بني آدم أعرفه؟!.

هامش الرجل الذي ربما يكون طبيباً نفسياً،
أو ناقداً فنّياً لبنانياً في السبعينيات

يريد أن يُطهّر (صلاح جاهين) من كل ما له علاقة بـ (يوليو)، وفي نفس الوقت يريد الإبقاء عليه، وتثبيته كتعريف أساسي من هويته الجامحة، المتقلّبة، التي تستعمل التاريخ، والحياة وفقاً لمزاج طائش، طفولي، مفتون بالتوهان كما يليق بصنايعي (كيتش) محترف.. يريد أن يكون ذلك هو البرواز الذي يضع فيه الناس كل ما كتبه عن (25 يناير).

حكيت له عن أنني ذات يوم قرأت ستاتس على (الفيس بوك) لأحد المخرجين الذين يعملون في السينما المستقلة.. كان يشرح - بخفة دم تعشّم نفسها بأكبر كم من اللايكات، والكومنتات - أن العائق الرئيسي الذي يمكن أن يقف ضد انتاج فيلم سكس مصري -بالمعنى الفني للفيلم- هو التفاصيل المكانية سواء كانت شوارع، أو بيوت، أو أي مناطق أخرى.. كان يعتبر - ولا أعرف السبب- أن الأشياء الملموسة التقليدية، المتعوّدة في حياة المصريين ستبدو مضحكة في الفيلم رغماً عن أي أحد.. قلت لنفسي أنه لو كان الأمر كذلك -رغم عدم اقتناعي به- وبما أنني من المهووسين بدمج الجنس بالكوميديا فإنه من الرائع إذن أن تتعمد إخراج الفيلم في شكل مضحك.. طالما أن الحياة في الفيلم ستبدو مثيرة للسخرية، ينبغي إذن أن يكون هذا بإرادتك، وليس بالمشيئة البديهية للأشياء.. سأزيدك، وأقترح عليك: لماذا لا تختار فيلماً مأساوياً، مسيلاً للتهكم من سينما الأبيض والأسود، وتعيد تمثيله، وإخراجه، محافظاً على كل لحظة به كما هي دون أن تفسدها بأي تغيير، ولا تضيف شيئاً سوى السكس.. جرّب أن تتخيل ذلك مع فيلم كـ (نهر الحب) مثلاً.. القصة،

والسيناريو، والحوار، وأداء الشخصيات (فاتن حمامه، عمر الشريف، زكي رستم) مع وضع الجنس في الأوقات الصحيحة.

كان قد خسر فلوسه كلها في لعبة (البوكر) على الانترنت، وهو يصغي إليّ.. قرر أن يسألني – كالعادة – فجأة: في رأيك هل نبذ الاستدلال العقلي في الكتابة الصحفية، والاحتفاء بالحسية الوحشية في التحليل السياسي كافياً، أم لابد أيضاً أن يكون عندك أصدقاء كثيرين يعملون في الإعلام العربي؟!.. (من هم الآن أصدقائي الحقيقيين) سألت نفسي بصوتٍ عالٍ.. قلت له أنهم الحدادون، وبائعو زهور الزينة، المصنوعة من صوف الغنم، والموسيقيون، ومحركو العرائس في العصور الوسطى.

حكى لي أن مدرسته الثانوية أقامت حفلاً في مكتبتها.. أثناء جلوسه تذكر على نحو مباغت جارته التي كان – ولا يزال– هائجاً بشدة على جسمها.. استغرق، وغاب تماماً في تفكيره، وفي تخيله لها، ثم سمع مقدم الحفل ينادي اسمه في الميكروفون.. صعد إلى المنصة لاستلام شهادة المركز الأول في القصة القصيرة، وعضوه منتصباً، وبارزاً بقوة من بنطلونه القماشي.. ظلت تُتابعه الابتسامات، والضحكات المكتومة، ونظرات الدهشة، والاستهجان أثناء عودته إلى كرسيه بينما عضوه ينام تدريجياً.. كان فرحاً جداً بالشهادة التي أخرجها من المظروف ليقرأها بفخر، وبالشهادة الأخرى التي حصل عليها قضيبه من الآخرين.

رأيت نفسي الآن واقفاً فوق مساحة عشبية هائلة، تحت غيوم رمادية كثيفة، بجواري حطام بيت قديم من بيوت القرون الوسطى.. رأيت نفسي سعيداً لأنني لم أعد أتذكر أي ناس كانوا يعيشون في هذا البيت.

اليوم مر في ذهني خاطر بشع.. لا أعرف كيف أشرحه لك لكنني سأحاول.. ما نعرفه عن أي عمل أدبي، أو فني – مهما كان – ليس أكثر مما هو عالق في قشرته الخارجية فحسب.. لماذا.. لأننا لم نشتغل عليه

يومياً.. نظن أن الأفكار التي حصلنا عليها منه، والتي أعطت شرعية لركنه، وعدم العودة إليه ثانية إلا ربما في مرات قليلة قادمة هي كل ما بوسعه أن يمنحه لنا.. أنها تعريفه، وحقيقته، وآخر ما عنده.. لكن هذا غير صحيح، ومن المؤكد بالطبع أن كل نتائجنا، وظنوننا ستتغير، وتتبدل كلما اشتغلنا عليه دائماً.. استوقفتني كلمة (دائماً) هذه في تفكيري عن الأعمال الأدبية، والفنية التي تتراكم داخل حياة ظالمة، قامعة، ومعتمة على ما تحاول الإلهام به حقيقة.. (دائماً) يجب أن تُحيلك إلى مسارين: ليس هناك فرق بين ما يمكن أن تُطلق عليه عمل أدبي، أو فني، وبين أي قول، أو فعل من أي كائن، أو موجود في الكون لا يتم الاشتغال عليه (دائماً)، وإنما تتراكم جميع الأقوال، والأفعال تحت شرعية النتائج، والظنون المؤكدة على أنها تعريف، وحقيقة، وآخر ما عند صاحبها، أو مصدرها.. ليس هناك الحد الذي يمكن لأحدنا أن يقف عنده ليعلن حين يبلغه أنه استطاع حيازة كل ما بوسع شيء ما أن يمنحه لنا، ولهذا فكل ما عرفه أي أحد عن أي شيء مهما كان هو بالفعل تعريفه، وحقيقته، وآخر ما عنده.. ليس هناك وقت لكل اللعب المطلوب.. ثم إن جئت إلى الحق فهذا أمر يرجع أولاً، وأخيراً إلى ابتلاء اللغة.. إلى نقصها، ومرواغتها، وتفاهتها.. اللغة التي تجمع بين ما يُطرح تحت لافتة أدبية، وفنية، وبين أي خطاب آخر داخل لعنة الميوعة.. الانفصال، أو الفجوة بين القصد المبهم، والكلام المشلول.. التمنع الذي يطردنا دائماً من كلمة إلى كلمة أخرى، ومن جملة إلى جملة أخرى.. من حالة يتكفل استمرار الحياة فحسب بإقناعنا أنها غير مشبعة بشكل حاسم إلى حالة أخرى سنعتبرها – يعني – خطوة في طريق الإشباع، والحسم.

بعد سرد – تعمّد أن يجعله مقتضباً – عن الآلام العصابية التي يعاني منها، فكّرت في أنه ربما يشعر بالذنب تجاه كل كائن جاءت سيرته على لسانه في هذه الجلسات، وأن ذلك ربما يفسر الشعور بالراحة، أو

بالطمأنينة المتباهية، أو حتى بالشفاء المؤقت من الأعراض الجسدية المرتبطة بالتوتر، والقلق كلما تعرّض لمحنة حياتية، أو مرضية.. لكنه حتى الآن – ماضيه يثبت ذلك أيضاً– لم يمر على الإطلاق بانقلاب غريزة حفظ الذات إلى ضدها بحيث يتحوّل إلى حالة انتقامية من نفسه.. كل ما في الأمر –وهو ما لا يزال يتكرر– تفاديه العنيد للتطلع في الطفل ذو الوجه الملائكي، المهيب في لوحات العصور الوسطى.

(7)

ما سأقوله لك الآن يا دكتور يؤلمني للغاية، لكنني يجب أن أقوله: الجنس في طفولتي قد يكون مثل أي شيء آخر.. متعة الشغف بابنتي خالي، وجارتي، والممثلات، والراقصات، وفتيات المدرسة؛ ربما تتساوى بمتعة الشغف ببرامج الأطفال الصباحية، ومجلات ميكي، وسمير، وماجد، وبألبوم بم بم.. من الجائز أن ارتباطي بجسم جارتي كان أكثر قوة، ربما لأن انتباهي له كان في مرحلة أكثر تقدماً، لكنني لا أتذكر أنني كنت مثلا استرجع ثديَي (سعاد حسني) أو (نجوى فؤاد) أو (سهير رمزي) بعد انتهاء فيلم السهرة، رغم التلذذ أثناء الفرجة.. بنات ابتدائي لم يكن لديهن أثداء، وجملة (الواحد يصب تركيزه على المتاح دوماً) تصلح كحكمة.. كقيمة عدائية متحالفة مع القمع.. وجهاً دموياً له.. ماذا لو كنت قد نشأت في بيت آخر بحالٍ مناقض لما عشته في بيتي.. ماذا لو كنت محاطاً بالعري، وبالممارسة، وبالكلام في الجنس طوال الوقت، وليس كارتكابات مختلسة على فترات متباعدة.. تذكر خالي، وزوجته يا دكتور، وكيف حوّلا طفلتيهما إلى امرأتين هائجتين حتى لو لم تتجاوز المتعة التي كانتا تحصلان عليها نتيجة ما كنت أفعله معهما سراً نفس الشعور الطفولي بالمتعة الذي كان ينتابني.. ربما كانت علاقتي ستختلف بأجساد فتيات ابتدائي.. كانت ستختلف بأجساد النساء، والبنات عموماً.. كنت سأقوم بكل ما يليق، ويتناسب مع خبرتي حتى ولو بقي ذلك محكوماً بحدودي كطفل.. كان يمكنني حينئذ أن أشرح لطفل آخر الحكايات الكامنة في أفيشات السينما، ونحن جالسان عند الحلاق.

ماذا لو كنت نشأت في بيت كله رجال عرايا، ولا توجد بينهم امرأة واحدة.. تربية الرغبة يا دكتور، حيث لا شيء اسمه الرغبة مثلما لا شيء اسمه

الجسد، والحرمان، والإشباع، والحب، والكراهية، والصحيح، والخطأ.. هناك لافتات يختبئ وراءها توجيه الشهوة.. هناك طرق متغيرة، تُحدَد لنا، وتجبرنا على اتباعها، واعتناقها.. هناك أفكار، وظنون علينا أن نتقاتل تحت راياتها لا أكثر.

حاولت أن أُهدّئ من نفسي، وأُطمئنها بأي طريقة يا دكتور.. كانت من ضمن بواعث السكينة المحتملة التي حاولت الاستناد عليها ما قلته في داخلي بأنني قادر ومتمكن، لدرجة رفضي الذهاب إليها، وإجبارها على الحضور للمكان الذي أريده.. أنني إذن متماسك، ولست مرتبكاً، ولا مهزوزاً، ولا خائفاً، ولا أي شيء، بل مسيطر، ومتحكم، وواثق جداً من براعتي.. لم يكن في الأمر محاولة لتعويض البداية الكارثية بقدر ما كانت سعياً لترويض وحشية استمرارها.. استدعاء فوري لقناع من الهدوء المهتريء، يغطي إحساسي بالاقتراب من انهيار عصبي كامل.. بدا كأن عينيّ تستطيعان من مكانهما مراقبة مدى ذلك الانهيار جيداً.. قلت لنفسي يا دكتور أن موافقتها على المجيء إلى عندي بعدما كانت وسيلة لتقوية ذاتي، أصبحت سبباً ثقيلاً لزيادة توتري، وفزعي من مواجهتها.. فكرت في أن طاعتها لي زادت من عبء الموقف، لأنها بهذا الشكل أكدت على تعاملها معي ببساطة، وبقدر من الحميمية التي يتبادلها بشر في طريقهم لأن يكونوا أصدقاءاً بالفعل.. شعرت يا دكتور أن ذلك يفرض عليّ التعامل معها بالأسلوب اللائق، وأن أعطيها في المقابل مكافأة مساوية.. كان لدي إدراك بشع من أن خجلي سيحطم جميع المحاولات التي يمكن القيام بها لإعطاءها التقدير المماثل، الذي يجعلها – حين تصبح بعيدة عني – حريصة على استرجاع لقاءنا بفرح واعتزاز، ويُسكِن بداخلها دائماً أمنية تكراره.. هل يمكن لصفاتي، وسماتي الشخصية أن تنتج ذكرى مثالية، ستبقى تلح عليها كي تسترجعها؟!

فيما يتعلق بالمشي مع البنات يا دكتور اكتشفت في نفسي شيئين مهمين: الأول أنني حسّاس جداً، ولا أحب المزاح الأزيد من اللازم، أو بتعبير أدق المزاح الذي يحوي مقالب، أو تجريح.. كنت، ولازلت سريع الغضب من السخرية، أو السباب، ولو من باب الدعابة.. أي اعتداء جسدي، أو لفظي كان يقتلني، ويوّلد عندي الرغبة في التهام صاحبه.. خذ عندك هذه الصدفة البارعة يا دكتور: زميلا الابتدائي اللذان أدخلاني عالم (تعليق البنات) كانا عندي ذات يوم في البيت للمذاكرة.. كنا عصراً، وبينما كل أفراد أسرتي نائمين، أغلقت حجرة الصالون علينا.. لا أتذكر أي منهما اخترع لحظتها تلك اللعبة الوسخة أم أنهما جاءا متفقين عليها: وجدت أحدهما يقف خلفي، ثم يمسك بذراعيّ ليشل حركتي تماماً، بينما الآخر يُنزل بنطلون بيجامتي لأسفل، ثم يضحكان، وأنا واقف أمامهما بالكلوت.. أرفع البنطلون غاضباً، لكنهما يكرران اللعبة السخيفة فأغضب أكثر.. بعد المرة الثالثة، وبينما الولد ابن الراقصة، وشقيق المومس ممسك بذراعيّ؛ وجدت نفسي أضرب الولد الآخر بكل ما لدي من قوة برأسي في أنفه.. أمسك بأنفه متألماً، ثم قال لابن الراقصة، وشقيق المومس بغضب (شفت بيقلب الهزار جد إزاي؟).. أخذ كتابه، وكشكوله، وفتح باب الصالون، ثم باب الشقة، وخرج.. الثاني فعل نفس الشيء، وهو ينظر لي بسخرية.. هذا مزاح أولاد القحبة يا دكتور.. كأن أي منهما يرضى أن يكون مكاني، وأن أُنزل له بنطلونه وهو مُكَتّف، وأضحك على وقوفه محروقاً بالكلوت.. لم أكن أرى زميلي وحدهما يمارسان هذا المقلب.. كنت أرى في وجهيهما ملامح أبي، وأمي، وإخوتي.. ربما كنت أرى ملامح ناس آخرين لا أعرف أسماءهم، ولكنني أشاهدهم كثيراً في اليقظة، والنوم، وأتمنى لو استطعت التكلم معهم.. ليس هذا فحسب يا دكتور.. رأيت نفسي، كلما شد ابن الشرموطة بنطلون البيجاما، وفي اللحظة الخاطفة التي تسبق إسراعي برفعه، رأيت نفسي آخذ مكان ابنتي خالي، وأمهما.. مكان كل البنات،

والنساء اللاتي أراقبهن دون أن يشعر أحد، وأفكر فيهن كثيراً.. في صباح اليوم التالي، وقبل طابور المدرسة أرسلت الولد ابن الراقصة، وشقيق المومس إلى الولد الآخر ليعتذر له نيابة عني.. قبِل اعتذاري، وتصالحنا.

ذات يوم ذهب تلاميذ من كافة الصفوف في رحلة إلى حديقة الحيوانات، وكانت أمي هي المشرفة.. عندي صورة لهذه الرحلة، اضطررت للاحتفاظ بها لمجرد أنها تنتمي إلى الطفولة، لكنني في حقيقة الأمر أكرهها بشدة.. أنا أقف في المنتصف مبتسماً ابتسامتي المغتبطة، البلهاء، المعهودة، مرتدياً ملابس غير متناسقة، وتعادي ألوانها بعضها: بلوفران؛ واحد صوف برقبة عادية، بيج في أخضر، وفوقه بلوفر آخر، قطيفة أحمر، مكرمش، بفتحة رقبة كبيرة، تُظهر مساحة كبيرة من البلوفر الخلفي، مع بنطلون أزرق غير مغلق جيداً.. كانت يدي في ذراع الولد الذي كان يشد بنطلون بيجامتي.. في الصورة يقين لا يسمح للذين حتى لا يعرفون شيئاً عن أشخاصها ببذل أي جهد في استنتاج اندفاعي الملهوف، السعيد لوضع يدي في ذراع الولد الذي كان يشد بنطلون بيجامتي بمجرد علمي أننا على وشك أخذ لقطة جماعية.. كان ينظر للكاميرا بعينين متحديتين، واثقتين، يرتدي بلوفر، وبنطلون متناسقين، ومكويين جيداً، ولا يبتسم.. كانت سوستة بنطلونه مغلقة تماماً، وبحسم.. حولنا باقي التلاميذ، وكانت أمي تقف ورائي أنا، والولد الذي كان يشد بنطلون بيجامتي، وكانت تضع يدها على كتفه، وتضمه إليها.. تضم الولد الذي كان يشد بنطلون بيجامتي بيدٍ تُظهِر الصورة بوضوح مدى القوة التي كانت تُلصق بها ظهره في ثديها الأيمن.. بدا المشهد بهذا الشكل كأنه لقطة لزفاف أخذت أنا فيه بالطبع دور العروس، بينما العريس الذي ربما يصحح الآن غلطته حينما نزع بنطلون بيجامتي يستمتع باشتهاء حماته لذكورته وسط تهاني، ومباركات التلاميذ المدعوّين.. كأن أمي حينما تركتني أذهب إلى الرحلة بهذه الملابس كانت تُجهزني للزفاف.. لا أعرف لماذا لم تضع يدها على كتفي،

وتضمني أنا.. لم يكن الكادر مزدحماً، وكان يمكنها بمنتهى السهولة – لو أرادت– أن تضع يدها الأخرى على كتفي، وأن تضمني مثلما فعلت مع الولد الذي كان يشد بنطلون بيجامتي.. لم يكن مطلوباً منها أن تضع يدها على كتف أحد.. كانت أمي هي الوحيدة التي لا تنظر إلى الكاميرا.. كان وجهها يتطلع بعيداً كأنها أُجبرت على التصوير، وعلى عكس ما يبدو في الصورة فإن البصر الضعيف لعينيها المنكمشتين وراء زجاج نظارتها السميك لم يكن يدقق في شيء محدد، بل كان يهرب فحسب من مواجهة مباشرة مع العدسة.. لم تكن لديها القدرة على استدعاء البهجة التي يتطلبها التقاط صورة.. أنا أعرف هذا.. ربما أيضاً لم تشعر بيدها التي تضم الولد الذي كان يشد بنطلون بيجامتي.. ربما كانت تعرف فقط أن التقاط صورة يعني اقتراباً يضم كائناتها، ولم تكن تدري من الذي تلصقه بها مع شرود عينيها، وغياب ذهنها في سفرٍ لحظي مجهول.. لكن ربما ليس صدفةً أن يدها اختارت أثناء عدم الانتباه أن تضم ولداً غريباً.. ولد لديه كل الحق في الوقوف مطمئناً، صلباً، متخذاً هيئة الموديل الذي يعرض كيف يمكن لطفل الابتدائي أن يبدو رجلاً، معتزاً بنفسه، وبدماغه التي تساوي ثقلها ذهباً.. لديه كل الحق مع ذلك الثدي الكبير الملتحم بظهره كمكافأة مستحقة لشخصيته الخبيرة، والمثالية.. أصبحت أكره الابتسام في الصوّر منذ زمن طويل.

ارتديت ملابسي بأقصى سرعة، وأنا لا أفكر في شيء سوى أنني على وشك الدخول في صدام شرس.. مع نفسي.. مع امرأة يُمثل الجلوس، والتحدث معها في مكان عام – خاصة بعد مبادرتها بالاتصال – يُمثل اختباراً صعباً أدرك تماما أن احتمال نجاحي فيه ضئيل للغاية مقارنةً باحتمال فشلي.. هل تصدق يا دكتور أنني بعدما انتهيت من ارتداء ملابسي، وبينما كنت أنزل السلالم فكرت في الاتصال بها، والاعتذار عن اللقاء لأي سبب.. الفكرة التي لم تستغرق كثيراً حتى تحجز لنفسها مكاناً

مميزاً في خانة الهراء غير القابل للتنفيذ، أو حتى المناقشة.. ما مدى الشعور بالخيبة المهينة الذي سيظل يلازمني ربما حتى نهاية حياتي لو فعلت ذلك!!.. ما الذي يمكن أن يعاقبني به الندم، وأنا أتحسّر على الغنائم الرائعة التي خسرتها بسبب عدم ذهابي إليها!!.. أعتذر عن الميعاد ؟!!.. بالتأكيد ستكون النتيجة أشد قسوة ليس بسبب الاعتذار في حد ذاته، وإنما لأن الارتباك المعتاد في كلامي بمهاراته المذهلة سيجعلها تعرف دون عناء أنني أكذب عليها، وسيجعلها تسمع بدلاً من الاعتذار صوتاً باكياً، ومتوسلاً يقول لها: أنا لا أقدر على مقابلتك.. أنا لا أقدر على التحدث معكِ.. أنا لا أقدر على أن أكون الشخص المناسب لهذه اللحظة، الذي عليه التمتع بالكفاءة اللازمة لترك أثر جميل ومقنع لديكِ.

مع البنات كنت أغضب أيضاً بسرعة، وأتركهن هارباً من هزارهن الغبي.. لم يكن فيهن من تشد بنطلوني، وإنما كانت بعضهن أحياناً يستخدمن اليد في المزاح، وهذا لم يكن يعجبني.. أتذكر مرة في الفسحة غضبت جداً، ومشيت مبتعداً عنهن فجاءت إحدى البنات، وربتت على ظهري، وهي ميتة من الضحك، ثم قالت لي (ماتزعليش يا بيضة).. شعرت بإهانة فظيعة يا دكتور، وقررت ألا أتكلم معهن بعد ذلك أبداً.. لكنني - كالعادة - ظللت أذهب إليهن، وأحاول التحدث، والمشي معهن.. الشيء الثاني الذي اكتشفته في نفسي هو أن دمي ثقيل جداً حينما أحاول التغلب على خجلي، والظهور كشخص خبيث، وكوميدي.. كنت أقوم بحركات مسكينة، وحمقاء للفت الانتباه، والاستظراف.. بصراحة يا دكتور حينما أتذكر هذه الفترة التي مازال في داخلي الكثير منها بالتأكيد؛ أجد نفسي مغفلاً عظيماً يجب أن تتهكم، وتشفق عليه، براحة ضمير خالصة.

بشكل عام يا دكتور كنت أشعر طول الوقت في ابتدائي، وأيقنت كذلك عندما كبرت، ومع الاسترجاع المستمر لهذه المرحلة أن زملائي الأولاد،

والبنات كانوا أكبر من عمرهم، وأنني كنت الطفل الوحيد.. حتى الفتيات الأصغر سناً كنت أحس دائماً أنهن أكبر مني.. عارف من أي جانب يا دكتور؟.. المكر.. الهيبة.. تجد الولد من هؤلاء له شخصية، وكذلك البنت.. له نظرة رجل كبير، ولها نظرة امرأة كبيرة.. انطباع وجه خبير، مجرّب، لا يقدر أن يمسّه أحد.. ذكي.. ناصح.. يعرف يأخذ حقه، وأكثر من حقه.. يعرف كيف يستفيد، أو يخترع استفادة من أي موقف، أو من أي شيء.. أما أنا يا دكتور فحينما أستعيد نفسي أشعر أنني العبيط الوحيد.. الذي يقوم بأفعال مبالغ فيها كي يستعرض مزايا لا تتوفر فيه.. ضعيف، ليست لديه شخصية، مبهور بزملائه، ويخاف كل الخوف من غضبهم.. يريد أن يكونوا جميعا مسرورين منه، وأن يظلوا معه، ولا يتركونه.. أن يحبوا وجوده بينهم في أي تجمع، أو موضوع، أو فكرة، وهذا لم يكن يحدث طبعاً.. كانوا يستغلون طيبته، وسذاجته، ورغبته في الانتماء لهم على حساب كرامته حتى يتهكموا عليه، ويضايقوه بسبل شتى.. ليس هناك ما يعطيك معرفة صادقة عن الآخرين أكثر من ردود أفعالهم تجاهك في أكثر اللحظات التي تتعمد أن تبدو خلالها في قمة ضعفك، ومسالمتك.. ليس هناك ما يوفر لك أفكار جيدة عن الوجود المهمل أكثر من أن تتساوى درجة الشعور بالندم: إذا وافق بشر ما على أن تربطك صلة بهم مقابل أن يحقتوك في كل لحظة بحقيقة أنهم فعلوا ذلك جبراً للخاطر، ومراعاة لظروفك السيئة.. إذا رفضوا، واعتبروك أدنى من أن تكون واحداً منهم.. سنناديك إذا ما احتجنا إلى راقصة، لكن عليك أن تغادر سريعاً إذا أصابنا الملل، أو أصبحنا مشغولين بعملٍ ما يخصنا وحدنا.

هامش الرجل الذي ربما يكون طبيباً نفسياً،
أو مصوراً في مجلة بلاي بوي

يجد ارتباطاً مثيراً بينه، وبين (أنتوان) بطل رواية (كيف صرت غبياً) لـ(مارتان باج)، لدرجة أنه يعجز كلياً عن وصف النشوة التي تنتابه كلما تخيّل نفسه يقوم بمثل ما ارتكبه (أنتوان): سرقة احتياجاته من المحل التجاري، سرقة الكتب من أكبر المكتبات صفحةً، صفحة ثم تكوين الكتاب في بيته، الإصرار الشغوف على محاولة التصرف كأنه لا أحد يراه.. (ربما كان عليه أيضاً أن يفعل مثلي: يؤكد لأصدقائه على عدم التعامل مع نصوصه كحقيقة، وألا يظنون أنهم الشخصيات التي يكتب عنها.. هذا كفيل بإخراس أي صوت للشك، وإعطائهم التأكد الذي لن يقبل الاهتزاز بأنهم المقصودين فعلاً بالانتقام).. أتذكر المسلسل الإذاعي (أبو الحسن العبيط) لـ (اسماعيل ياسين)؛ كان ينقصه أيضاً أن يكون متيقناً من أن أصدقائه لا يفهمون ما وراء تعمّده التأكيد عليهم بعدم التعامل مع نصوصه كحقيقة، وبألا يظنون أنهم الشخصيات التي يكتب عنها.. هكذا تكون غبياً.

بمناسبة الروايات؛ أخبرني أنه يريد أن يضع في رواية قادمة له رعويين، ومزارعين، وصغار عاملين في نسج سجاجيد الحرير، الذين يتم تسريحهم بعد فقد البصر في المراهقة، وطهاة البتلو لكلاب والت ديزني، والجوالين الذين ينشدون في ساحات، وأسواق، وقصور القرون الوسطى، والشعراء الشعبيين، والممثلين، وممارسي الشعوذة، وأصحاب الحيّل، ومؤلفي أغاني الحرب، والعمل، والمائدة، والجوقات، والحب، ورسامي المغنيين في الولائم، وتحت نوافذ الجميلات، وكتّاب القصص، والحكايات على ألسنة الحيوانات، وفوازير التسلية، والفرسان الذين يعشقون زوجات أسيادهم.

كان لدينا وقت لأُسمعه رأيي في الجرأة السمجة لظرفاء، ولطفاء (الفيس بوك): اليقين بخفة دمك ليس قراراً مستقلاً، مكتفياً بذاته، ومترفعاً عن الاستناد إلى حماية خارجه، بل على العكس يزهو متبطّلاً، وتتأسس بداهته على رصيد مضمون من الأصدقاء، والأصحاب، والمعارف، والعابرين الأكيدين، المتزايدين، القادمين بلايكاتهم، وكومنتاتهم، المنفوخ فيهم من أرواح الأصدقاء، والأصحاب، والمعارف.. ذلك ما يؤسس اليقين.. لكن ما الذي يجعله عقيدة مقدسة مفروغ منها؟!.. إنها السلطة التي يحملها الأصدقاء، والأصحاب، والمعارف.. كلما كانوا (نجوماً) بطريقة ما - بمعنى أنه لأسباب متعلقة بفاشية المركز، وضعتهم الأجهزة، والمؤسسات الإعلامية، والدعائية التي تسيطر على المشهد الذي ينتمون إليه في الصف الأول.. كلما كانوا كذلك، كلما تراكمت تأكيداتك لنفسك بأنك ظريف، وكلما حُسم- قطعاً- عدم احتياجك لوضع إيموشن وجه مبتسم، أو ضاحك مع ستاتس- نادر- لك تذللاً، وتسولاً لابتسامات، وضحكات المارين أمامه.. العادة التي يضطر إليها كل من لا يمتلك رفاهية التغاضي عن التشكيك -على الأقل- في كونه آلة كوميديا لا تتعطل، ويجد حرجاً ثقيلاً في التطفل على الآخرين بما يظنه دعابة مزلزلة.. الحيلة المفضوحة لمن ليس له أصدقاء.. كم كنت أتمنى - حقاً- أن أكون جريئاً، وسمجاً.

كان يفترض أن يُطلعني على آخر ما كتبه عن بعض لوحات العصور الوسطى، فقرأ لي سطوراً عن لوحة تصوّر زفافاً أنيقاً، حيث العروس الجميلة تميل على عريسها الجالس بسمو، وتقبّله، بينما صديقاتها واقفات على سلمٍ، يحملن الزهور، وينظرن إليها برجاء.

اليوم 14 يناير 2014.. الساعة 7:31 مساءاً بالضبط.. أجلس وحيداً الآن في بيتي لأكتب في هذه الرواية.. لم يعد لدي في الخارج سوى أختي التي تجلس وحدها أيضاً في هذه اللحظة داخل بيت الأسرة التي مات

جميع أفرادها عدا أنا، وهي فقط.. نعم عندي زوجة، وطفلة صغيرة أكملت عامها الثالث منذ أيام، ستعودان بعد قليل، لكنني لا أريد التحدث عنهما الآن.. لم يعد لي حتى صديق واحد.. هل كان عندي أصلاً!.. أكتب، وأجمع معلومات عن القرون الوسطى، وتاريخ اليسار المصري، والتحليل النفسي، والطبقة الوسطى، وآليات السلطة، وسينما التسعينيات، ومقاهي، وبارات وسط البلد القاهرية..هل تتخيلون – أعزّكم العدم – أي معاناة أُلاقيها الآن بينما أقرأ عن مقاهي، وبارات القاهرة، وأنا جالس في البيت وحدي، لا يشعر بي أحد، وليس لي أصدقاء.. أتذكر في هذه اللحظة نصاً قديماً كتبته منذ سنوات طويلة وقت أن كان لي العديد من الأصدقاء – هكذا كُنت أُطلق عليهم – وكنت أخرج من البيت كثيرا، وأذهب إلى أماكن مختلفة دون تعب.. الآن صار هذا النص نبوءة تتحقق بيسر، وثقة:

مع مرور الوقت
يقل عدد الأماكن التي أذهب إليها
ربما في نهاية الأمر
لن أستطع مغادرة منزلي أبداً
ثم أقيم في غرفة لا يُفتح بابها
إلا للضرورة القصوى
حتى يدخل أحدهم ذات يوم
ويجدني متكوماً في أحد الأركان
بلا حركة.

فشلت في الاستيلاء على من كنت أعتبرهم طوال حياتي السابقة أصدقاء.. الذين كنت أعتبر المشاركة، والمشاعر الطيبة، والفضفضة التي قد تصل إلى حد التعري الكامل وسائل إخضاع لهم، ليس فيها شر يُذكر.. كأن حياتي السابقة ليست أكثر من فهم متدرّج، متعسّر بالضرورة لحقيقة أنه

لا يوجد أحد قابل للاستيلاء عليه، أو أنني –وهي الحقيقة التي تبدو أكثر قابلية للتصديق– أبعد مخلوق في الكون عن الاستيلاء على أحد.. كنت أُقدم الاستسلام، وربما التبعية كعربون ثقة ينتظر المقابل بالسماح لي بالسيطرة، ولم يكن ذلك جراء تخطيط، أو حسم ذهني للمقدمات، والنتائج، بل سلوك تلقائي، بديهي جداً، ليس فيه اختيار.. كأنه في طفولتي، وفي لحظة لا يمكنني تذكرها إطلاقاً استقر في داخلي يقين لا يمكن خدشه بأنه يمكن التحكم في العالم بواسطة الخضوع أولاً لديناصوراته، الذين سيقدّرون إخلاصك، ومسالمتك كقط أليف، قادر على حبس عنفه المتزايد؛ فيهبون أنفسهم في المقابل كتابعين لك.. أين كان يقع الخطأ؟!.. عندهم أم عندي؟!.. مضطر الآن للتعامل مع الخطأ ككائن واضح، غير ملتبس، يمكن تحديد سماته، ومعاييره نظراً لاستعادتي كافة التجارب التي رأيت أصحابها ناجحين في الاستيلاء على أصدقائهم.. مضطر أيضاً للتحدث بثقة عن ما يسمى النجاح كأن ما أراه عند الآخرين لا يحتمل التفاوض.. هل كان معارفي محدودين للدرجة التي جعلت خياراتي قليلة للغاية، الأمر الذي جعلني مغصوباً على ناسٍ بعينهم؟!.. تبدو الأسباب التي لم تكتمل على إثرها المشاريع الكثيرة، المتعاقبة، التي حاولت معهم تنفيذها؛ تبدو واهية بشكل عجيب.. بل أنني في الواقع لا يمكنني اعتبارها أسباباً أصلاً بقدر ما هي محاولة للإمساك بعكّاز حقيقي في الفراغ.. كأن كل هذا التفكير، وكل هذه التساؤلات ليست إلا محاولة فاشلة للهروب من الاعتراف بأن هناك شيء عندي يمنع من الخلق الجماعي، أو يجعل من ذلك الخلق – حين يتم – مجرد فكرة باهتة، يائسة عنه.. ليس خطأً، بل هو شيء فحسب.. شيء يمكن أخذ هاجس ما عنه كلما تمعنت في المشاريع الجماعية الناجحة لآخرين.. التي ربما كان مصيرها سيتغير لو توفرت الفرصة حتى يكون لي يد فيها.. شيء له رابط قوي بجلوسي وحدي وقت العصر في البلكونة أيام الطفولة بينما الكل نائم، وبفرك قدميّ وحدي تحت

الأغطية الثقيلة في الشتاء، أثناء المطر، وببيت الوسائد الذي كوّنته على السرير، ووضعت فيه مجلاتي، ولعبي، وأوراقي حتى يصبح لي مكان خاص، لا يشاركني فيه أحد.. شيء له رابط قوي بالاستمناء.. بأن الأُمنيات لا تتحقق إلا لحظة خسارتها، خصوصاً لو كانت ضد فرديتك، وأن تحويلها إلى لغة هي فخر التصديق، وخيبة الأمل، واستخدام الحياة بوصفها سكرتيرة حسناء للخيال، وتُجيد اللعب له.

(لاكان) يقرأ (فرويد)، وهو ما تسبب في هذه الجلسات التي نحاول فيها اكتشاف أسلافنا، والقضاء عليهم، لكننا - مع النجاح، أو الإخفاق في ذلك - لن نصبح أكثر من خوذتين فارغتين، معروضتين في متحف ما.

(8)

في المسافة القصيرة التي تفصل بين العمارة، وناصية الشارع حيث يمكنني إيقاف تاكسي، والتي قطعتها بخطوات سريعة، ومرتجفة؛ رأيت جارتي الجديدة.. الطفلة ذات العشر سنوات، صاحبة الثديين الكبيرين تلعب تحت منزلها.. لم يمنعني القلق من التحديق أثناء مروري أمامها في البالونتين المنتصبتين تحت الـ (تي شيرت) الخفيف، وسوتيان ربما كانت لاتزال تنطق اسمه بصعوبة منذ وقت قليل.. شعرت أن تحديقي في ثدييها –الذي كان سيحدث في جميع الأحوال– من الممكن جداً أن يساعد على التقليل من حدة الضغط العصبي.. يمكن أن ينجح ثديَا الطفلة في إلهائي قليلاً، أو في منحي إثارة عابرة تستفز شهوتي لكسب الجرأة المطلوبة في موعد كهذا.. الموعد الذي لن يكون غريباً أن تكون نتيجته مصافحة بين رجل، وامرأة سيحرصان على ألا يلتقيا أبداً بعد ذلك.. لأنه سيضيف فصلاً جديداً من فصول لعناته، وشتائمه، وكراهيته للعالم بسبب خجله، وقلة حيلته التي تقف دائماً ضد أن تكون له علاقة بامرأة ما، حتى لو اقتصرت على الصداقة فحسب، وحتى لو كانت حصيلته منها آلاماً عظيمة.. أما هي فستندم بالتأكيد على الوقت الذي أضاعته مع هذا المرتبك، الخجول، الذي يتحدث نتيجة خوفه من الخطأ ببلاهة، وبصعوبة، وبوجه يبدو باحمراره، وبجزع ملامحه، كأنه تلقى آلاف الصفعات من كفوف غير مرئية.

كنت دائماً مهزوزاً، معدوم الحيلة، مهووساً بأن أكون مرضياً عني من كل الناس، وخاصة أصدقائي.. أريدهم أن يحبوني، وأن يهتموا بي حتى وأنا أكرههم.. كنت أفتعل أداءات ماسخة، وأشترك في أمور ليس لي دخل فيها كي أحس أنني مع أحد.. أي أحد ليس مصدر تهديد لي.. كنت أبحث عن أي نوع من الاطمئنان، والحماية من الأذى.. تخليص روحي من الخوف

الذي نشأت عليه داخل أسرة دائمة الشجار، والخصام، والصراخ الذي يلم الجيران.. كان العادي يا دكتور أن يحطم أخي الكبير أثاث المنزل، وأن يفتح المطواة على أبي، وأمي وهو يسبهما بأقذر ما يمكن من شتائم، وأن يشخر لنا، ويمسك بجركن الجاز، والولاعة، ويهدد بإحراقنا، أو بالانتحار.. أبي يضربني على خديّ، ويهددني دائماً بالجَلد بالحزام، وأختي تضربني على وجهي، وأمي تصرخ فيّ، وتهددني باللسع بالملعقة.. أخي الأكبر يشتم أختي الكبرى ويخاصمها طوال الحياة التي عشتها معهما.. أخي الآخر يبصق في وجه أختي، ثم ينزل بمنتهى الغِل، ونفاذ الصبر على أخي الأكبر بالصفعات القوية المتتالية فوق السرير داخل زاوية الحائط.. يتركه بصداع قاسٍ يضطره للف رأسه بمنديل.. أمي تذهب إلى قسم الشرطة، وتُحضر عسكري ليأخذ أخي الأكبر.. أبي يشتم أمي.. أمي تترك البيت إلى منزل أقارب في محافظة أخرى.. أختي تبكي، وتصرخ لأن أبي يذلّها.. أخي الأكبر يشتمني، وأخته تعايره، وتتهكم عليه.. أمي تهددني بأنها ستقول لأبي حينما يرجع إلى المنزل أنني لم أصلي، أو أنني قلت لفظا سيئا، أو فعلت شيئاً قليل الأدب.. أخي الأكبر يُسمعنا صوت فتح المطواة، وغلقها بشكل متواصل قرب الفجر من داخل ظلام حجرته المغلقة، ولا نعرف هل سيخرج ليوزّع طعناته علينا، أم سيكتفي بطعن نفسه.. أختي تصرخ فيّ، وتلقي برواياتي البوليسية من البلكونة، وتقطّع بالمقص كارنيه قصر ثقافة الطفل الذي كنت فرحاً به.. نسمع صوت المنبه يُضبط فنعرف أن أخي يرتّب للنوم الذي سيستيقظ منه في الصباح الباكر حتى يذهب إلى العمل، وأنه أغلق المطواة مؤقتاً، وقرر تأجيل ما كان ينوي أن يفعله بها إلى وقت آخر.. أبي يصرخ في أخي الأكبر، ويحمّر وجهه، وتحتقن عيناه، ثم نناديه لنوقظه فلا يرد مدعياً الموت.. أخي الأكبر يضرب قدمه في الثلاجة فتميل على جانبها.. أخي الآخر يدّعي المرض حتى يوافق أبي، وأمي على تزويجه من التي يحبها.. أخي الأكبر يجلس تحت البلكونة،

ويلم باعة المخدرات، ولصوص، وبلطجية الشارع، ويشتمنا طوال الليل، وحتى الصباح.. أمي تسخر مني.. أبي يهدد أخي الآخر بالطرد، ثم يصفعه لأنه طلب فلوس.. أخي الأكبر يصاب بالشلل، ويموت.. جدتي تصرخ أثناء النوم بأنها تريد العودة إلى بيتها، ثم تموت.. أمي تصاب بانسداد في الأمعاء، ثم تموت.. أبي يصاب بالزهايمر، ويموت.. أخي الآخر يسقط ميتاً دون مرض.. أختي تعيش في بيت الأسرة وحدها.. أنا أمامك الآن يا دكتور.

لم يكن لدي أي ثقة في نفسي يا دكتور.. مهدد، وتائه، وأريد أي تجمع بشري يعطيني قيمة، ومكانة، وأهمية حين أنضم له.. الصرامة، والأوامر، والرعب، والضرب، والإهانة جعلت الناس جلّادين بالنسبة لي.. حكّام عليّ.. أصحاب سلطة في يدهم مصيري، ولهذا لابد أن أكون مطيعاً كي لا أتعرّض لعقابهم، وحتى لا يتركوني وحدي مهما كنت لا أطيقهم.. رأيت في أيدي البشر مفاتيح الجنة، والنار.. ربما كان أكثر ما كنت أؤديه في الحياة – ولازلت – هو تصحيح الأحداث المريعة في خيالي بعد حدوثها في الواقع.. استرجع الحوارات الفائتة، وكل ما نطقت به، وأعيد ترديده بهمس لأراجعه محاولاً رصد أي خطأ كي أستدركه في ذهني.. حتى لو لم تنجح الذكرى التي تمت معالجتها في الارتداد ثانية إلى الحياة، لكن ذلك كان وسيلة للحساب، وللنقد الذاتي، وللتحذير بعدم الخطأ مرة أخرى.

جاء في ذهني الآن أن عدم خوفي من مطاوعة ابنتي خالي يرجع إلى اعتبار أنه إذا كان ما طلبتاه مني عيباً فهو ليس عيباً كاملاً، أو ربما كان خطأً لا يتسم بالفظاعة.. لم أدرك أنه خطأ فعلاً إلا حينما رأيتهما تحرصان على أن نكون مختبئين، ونحن نمارسه.. كانتا أكبر مني، والكبار حتى لو كان فرق السن بسيطاً حينما يأمروك بشيء فهم بذلك يعطونك قدراً من أمان النتائج عندما تستجيب لهم.. ربما لهذا اعترفت على ابنة خالي

الصغرى ببساطة، من منطلق أن ما اعترفت به يقع في المنطقة الوسط بين الإثم الهائل، والتجاوز البسيط لمن هو أكبر مني، والذي – لهذا – يمكن تخطّيه، دون أن يؤثر على الشكل الطبيعي للحياة.. ليس غريباً يا دكتور أن تتداخل تلك القناعة، وتمتزج مع الشعور بالخطيئة، وبأن ما فعلته مع ابنتي خالي كان جريمة عظيمة يجب أن أُسرع بالكشف عنها قبل أن يطالني العقاب الذي يتم تحضيره في الخفاء.. ربما الطفل هو أكثر من يمكنه بالفعل التوحد بالمتناقضات، ويتنقل بينها داخل اللحظة الواحدة.

دخلت (الكافيه) يا دكتور.. لسوء حظي كان مزدحماً عن آخره بالشباب، والرجال الصاخبين، الجالسين داخل الأدخنة الكثيفة لسجائرهم، وشيّشهم مع صوت التليفزيون العالي، المثبّت على قناة أغاني.. تخللتهم حتى وصلت إلى قسم العائلات في آخر (الكافيه)، ثم طلبت شايا، وشيشة، وقلبي يدق بعنف، وجسمي ينتفض، وأمعائي تضغط على صدري، وتكتم أنفاسي.. ظللت أحدّق في الموبايل الذي سيرن بعد قليل حتى تخبرني أنها واقفة بالخارج، فأذهب لإحضارها.. أحدّق في الموبايل كأنني استعطف فوهة مسدس مصوّبة لرأسي، ستخرج منها الرصاصة في أي لحظة.. حاولت أن أُشغل نفسي بوجوه الزبائن، وانفعالاتهم، أو بأي موضوع من أي حوار يصل إلى سمعي من ضوضاءهم، لكنني فشلت.. كانت كل أعراض التعب العصبي قد نشطت جميعها بحقارة في وقت واحد يا دكتور.. فجأة رن الموبايل.. رديت فوراً، وأصابعي ترتعش.. قالت أنها واقفة عند باب (الكافيه)، وتريد التأكد أنه هو المقصود.. طلبت منها أن تدخل، وستجدني جالساً في نهايته.. قفلت الموبايل، ثم ركعت عينيّ عند الباب.. أول ما دخلت يا دكتور تأكدت –رغم أنني لم أكن في حاجة لذلك– أن هذا اليوم لن يمر على خير.. بصرف النظر عن أنني وجدتها كما هي، ولم تتغير عن المرتين، أو الثلاثة التي رأيتها فيهم منذ سنوات طويلة بالصدفة دون كلام، أو سلام.. كانت متأنقة، وتضع مكياجاً كاملاً، وترتدي ميني

جيب.. عارف يا دكتور حينما كان يُفتح الباب لدخول الأسد إلى حلبة المصارعة الرومانية أمام عيني رجل سيقاتله؟.. هذا ما شعرت به بالضبط.. كم جبهة نزال قُدّر لي مواجهتها في تلك الليلة؟.. هي نفسها، أم ملابسها التي يمكن أن تسرق نظري بلا تعمد، وأنا أتحدّث معها؛ فتفهمني صح، أم الجمع الغفير من الشباب، والرجال الذين سكتوا فجأة بعدما كانوا لا يسمعون أصوات بعضهم من الصخب؟.. شعرت أن التليفزيون سكت لوحده أيضاً يا دكتور دون أن يلمسه أحد.. ظلوا جميعاً يتفحصون ساقيها بتركيز، وشكر بالغين.. على فكرة هي نحيفة، وجسمها بشكل عام ليس من النوع الذي يعجبني مثلما قلت لحضرتك، لكننا أولاً، وأخيراً أمام ميني جيب يعبر وسط حشد من الجوعى لديهم استعداد للهياج على إظفر قدم حريمي متسخ، مُلقى على الأرض.. لاحظت أنها مرّت بخطوات سريعة داخل المسافة المحاطة بتكدس الجالسين حتى وصلت إليّ.. هل كانت مكسوفةً منهم، أم أن تلك هي طبيعة مشيّها؟.. لا أعتقد أنها كانت مكسوفة.. لا أدري.. لكن عموماً، وأنا أُصافحها كان عندي إحساس بأن هذه اللحظة لا تحدث.. حلم، أو تخيل أياً يكن.. جائز لو كان هذا اللقاء مع أحد غيرها كان ممكن شعوري يختلف.. لكن لأنه معها هي بالذات، ولأنها جاءت لغاية عندي، وبهذا الميني جيب؛ فإن ذلك يتعدّى تصوراتي.. يفوق قدرتي على التصديق يا دكتور.

كان من الغريب يا دكتور أن زميليّ اللذين أدخلاني عالم (تعليق البنات) لم يصاحبا بنات من فصلنا.. أقصد من نفس السن.. بصراحة لم تلفت هذه الملاحظة انتباهي وقتها، لكنني الآن لا أجد لها تفسيراً.. لماذا البنات الأصغر من الفصول الأخرى فقط؟.. طبعاً ليست الإجابة هي أن الفتاة الأصغر أكثر سهولة في (التعليق) حيث لم يكن الفرق يزيد عن سنة، أو سنتين.. هل هو الخوف من اكتشاف الزملاء، والمعلّمات داخل الفصل؟.. كان عندنا بنات جميلات، ولكنهن لم يتجاوزن أصابع اليد الواحدة.. كانت

تعجبني -غير الفتاة الشبيهة بالقطة- بنت أخرى، ولم يكن بيننا تقريباً أي كلام.. هذه البنت أستطيع أن أقول لحضرتك أنها كانت أجمل واحدة في الفصل.. بيضاء، شعرها بني، ناعم، طويل، وملامح رقيقة، وشهوانية.. لها عينّي (سيمون) الوقحتين على رأي (عزت أبو عوف) في (آيس كريم في جليم)، وكان يمكن لقسماتها أن تطابق (سيمون) أكثر لولا أن وجهها أنحف، ويميل إلى الاستطالة.. كانت تسكن بجانبي أيضاً، وظلت معي في فصل واحد ست سنوات، ولم أحبها إلا في إعدادي.. أحببتها بقوة جداً يا دكتور، وأيضاً دون تفكير مباشر، أو واضح في الجنس.. حب أفلام السينما النظيفة.. كانت تأخذ درسا معي في الصف الأول الإعدادي، وكنت أمشي وراءها، وأنظر إليها، وطبعاً عمري ما تجرأت وكلمتها، أو حتى لمّحتُ لها من بعيد.. في يوم من الأيام حدث أمر غريب للغاية يا دكتور: كانت مجموعة من زملاء ابتدائي يأخذون الدرس معنا، وكانوا أيضاً يسكنون في نفس المنطقة.. وأنا ذاهب إلى الحصّة مع زميلين وجدنا أمامنا هذه البنت التي أنا غارق في حبها تسير برفقة زميل آخر كان معنا في المدرسة، وكذلك في الحي.. يسيران كعاشقين ذائبين في بعضهما.. هذا الولد كان ابن وسخة فعلاً يا دكتور.. لم يكن فقط من أكثر الأولاد الذين ينطبق عليهم كلامي عن الهيبة، والخبث، وقوة الشخصية، وخفة الدم فحسب، لكنه كان أيضا زعيم عصابة صغير.. بلطجي ابن ناس.. تراه لا تقول أنه في ابتدائي: جسم ضخم، ولسان غاية في البذاءة، وتحديق عينين لا يليق سوى بتاجر مخدرات.. أصبح فعلاً بلطجياً شهيراً، ومدمن مخدرات في شبابه.. كانا يسيران، ويضحكان، ويتمازحان، وحينما مررنا بجوارهما داعبهما زميليّ بالتعليقات القديمة، البضينة (أيوة يا عم)، (ماشية معاك يا سيدي) إلى آخره.. صدمتي كانت شديدة جداً يا دكتور، وفيها من الفظاعة ما يتعدى قدرتي على الاستيعاب.. وجدت نفسي أفعل مثل زميليّ: أضحك، وأغمز لهما، وأقول (أيوة يا عم)، (ماشية معاك يا

سيدي) إلى آخره.. بصرف النظر عن حبي الهائل لهذه البنت، وبصرف النظر عن تفكيري فيها طوال الوقت، وعن وجودها الدائم في أحلامي، لكنه في نفس الوقت لم يكن يصح ألا أشترك مع زميليّ.. طالما يفعلان شيئاً لابد أن أفعل مثلهما دون اعتبار للموضوع ذاته.. كيف يجتمع اثنان من زملائي في أمر معين، ويتركاني وحدي.. هذا شيء صعب للغاية يا دكتور، ولم يكن بوسعي تحمّله؛ وعلى هذا الأساس قمت بما قاما به.. في الدرس كنت مشغولاً بأمرين بعيدين عما يشرحه الأستاذ: قلبي المكسور، ومشاركة زملائي النظر، والابتسام كتعليق صامت على قصة حب العصفورين السعيدين التي اكتشفناها اليوم.. كان الكل ينظر، ويبتسم بخبث، وكنت الوحيد الذي ينظر، ويبتسم ببلاهة.. حينما رجعت البيت وجدت نفسي أجلس أمام أبي، وأمي، وأختي، وجدتي وأحكي لهم كل شيء: أنني كنت أحب هذه البنت -يعرفونها طبعا- وأنني وجدتها اليوم تمشي مع زميلي -يعرفونه طبعا- ثم اختتمت الحكاية بجملة كل ما أتذكرها أرغب في غرس سكين في صدري: (تسيبني أنا وتمشي مع الواد ده؟!.. أنا إللي كنت هسعدها!).. تخيّل يا دكتور ولد في أولى إعدادي، ويؤدي هذا العرض الميلودرامي الفاقع للخصية، والمرارة أمام أسرته.. بجدية تامة؛ كلما أتذكر رد فعلهم أشعر تجاههم بالحزن.. كان على وجوههم مزيج مفزع من الاختناق، والارتباك، والسخرية الجارفة.. كانوا عاجزين عن إيجاد كلام مناسب للرد على تلك الحماقة الخارقة التي خرجت من فمي.. تركوني، وابتعدوا، وهم لا يعرفون هل يضحكون، أم يضربونني، أم يلقون بي من البلكونة، أم ماذا بالضبط.. لكن.. ربما تمنيت في تلك اللحظة لو كانت هذه الفتاة إحدى ابنتي خالي، وربما تمنت أختي، وهي تستمع مني للحكاية أن تكون مكانها بجوار الولد ابن الوسخة الذي كان يمشي معها اليوم.. ربما لعن أبي، وأمي، وجدتي الزمن الذي مر سريعاً كخطوة وداع قصيرة باعدت بين حبيبين عائدين من درس خصوصي.

في هذا الوقت يا دكتور لم أكن أشتم بالأب والأم، ولم أكن أقول أي لفظ وسخ أبداً.. تقريباً كنت الوحيد هكذا من زملائي الذين انتقلوا معي من المدرسة الابتدائية إلى المدرسة الإعدادية، والوحيد تقريباً على مستوى المدرسة نفسها.. بالطبع حاولت كثيراً أن أكون مثلهم، وفي النهاية نجحت بتدرّج شديد، وبطيء جداً، وبصعوبة بالغة.

في قصر ثقافة الطفل الذي كنت أذهب إليه في الأجازة كان عندي، وزملائي هواية جمع الطوابع.. كنا نبحث عنها في كل مكان، ونجلس في القصر نتصفح ألبومات بعضنا، ونتبادل الطوابع المكررة.. عرفنا أن هناك مكتبة قديمة تبيع الطوابع فذهبنا إليها.. ونحن واقفون أمام صاحب المكتبة العجوز الذي يعرض الطوابع تحت أبصارنا؛ نظرت إلى الفاترينة الزجاجية التي يجلس خلفها فوجدت طوابع ملونة، كبيرة مرسوم عليها نساء عاريات بأثداء ضخمة.. شعرت أنني هائج جداً، كأنني دخلت مرحلة جديدة من الشعور بشهوتي الجنسية بعد السرور الطفولي بجسمي ابنتي خالي، ولذة التطلع إلى مفاتن (سعاد حسني)، و(نجوى فؤاد) و(سهير رمزي)، والانشغال بالتقسيمات المكتومة لجسم جارتي، والشغف بجمال وجوه البنات في المدرسة.. جائز في هذا اليوم شعرت بأول انتصاب حقيقي.. كنت فرحاً للغاية، ومثاراً بشدة.

لو كانت المشكلة على قدر أنني خجول، وخائف دوماً، أو فاقد التهيئة للتعامل مع الغرباء خاصة النساء لكان الأمر هيّناً.. لو كنت قادراً على التصالح مع تلك المأساة، ويقودني ذلك التصالح للاعتراف بها صراحة، وبوضوح، وبشكل معلن لأي أنثى لكانت المصيبة أخف.. لكن الكارثة يا دكتور هي أنني أقاوم، وأدّعي العكس، فتظهر خيبتي أكثر بشاعة.. حركات وجه، ونظرة عينين، وطريقة جلوس، ولهجة كلام، وشكل ابتسامات، وضحكات مفتعلة.. إجراءات غبية أحاول أن أُداري بها على

الحرائق التي تتزاوج في داخلي بروقان؛ فأبدو عبيطاً بجدارة.. أظهر كمجرد مسكين، تافه يا دكتور لأي واحدة، وهذا بالطبع وضح عليّ جداً، وأنا جالس معها.. كان الكلام الذي بيننا هو نفسه ما كنا نتبادله على الانترنت.. عن نفس الأشياء، ونفس الأشخاص.. لا أتذكر ماذا طلبَت من الجرسون، لكنني لن أنسى المعاناة المروّعة التي أذلتني، وأنا استفسر منها عما تود أن تشربه.. هذا أحد أمراضي يا دكتور.. اعتباري أن الرجل حينما يسأل المرأة في مطعم، أو (كافيه) عما ترغب في أكله، أو شربه فإنه يوجّه لها إهانة عنيفة للغاية.. قتل لكرامتها.. كأنه يقول لها (اختاري الأكل، أو الشرب إللي أنا هدفع تمنه).. لا أقدر على التخلّص من سيطرة هذه الفكرة يا دكتور، فما بالك بالموقف الذي كنت أعيشه وقتها.. أجلس مع واحدة مثلها، وترتدي ميني جيب، وفي (كافيه) ممتلىء بالذئاب البشرية الذين يأكلوننا بعيونهم، بينما أتمنى تحوّل اللحظة إلى كابوس، أستيقظ منه فوراً.

هامش الرجل الذي ربما يكون طبيباً نفسياً، أو مؤلف Jazz

دعك من الأبد الذي يسبقك، وضع بقائك إلى الأبد في مؤخرتك.. نحن دخلنا، ولم نطرح الأمل.. صنعنا منه عازلاً طبياً يا صاحب الشرج المشتعل، حتى نلبسه كلما حاولنا رؤيتك.. أنت مريض، ونحن أصحاء، لا نريد أن تنتقل إلينا العدوى.. فلو أصبحنا مثلك لانتهت الكوميديا.

يحكي: بنت توقفت عن الكتابة، أقابلها مرتين، أو ثلاثة في السنة.. سخيفة مثل الأسباب التي تدفعني للقائها: الاحتياج إلى شيء، الطاعة التلقائية، الحرص على رضى الآخرين، الشفقة، الخوف من حزن الغريب، ومن تخييب أمله.. في كل مرة تمارس عادتها السرية أمامي على طاولة (الكافيه) لتنهمر كافة الشتائم المختزنة في قلبها ضد كتّاب القاهرة.. تأخذ لحظات من الراحة حتى تهدأ أنفاسها، وتنتهي قطرات الغل من التساقط.. لا تترك كتاباً جديداً أصدره أي منهم إلا وتسألني إذا كنت قد قرأته أم لا.. تنتهز إجابتي بالنفي لتخبرني بابتسامة لزجة، متشفية، وبعينين متخابثتين، بِعَتَه فريد أنه فاتني الكثير.. أعرف أنها قرأت أغلب كتبهم، إن لم يكن كلها، وأنها لم تترك واحداً منهم إلا وحاولت عن طريق (الفيس بوك)، و(جودريدز) أن تكون صديقة له.. تسترد نشاطها؛ فتثور، وتتدفق شتائمها فيهم من جديد، فيشخر لها الجرسون، ويرشدها إلى الحمام الحريمي.

إنها قرمشة (مصطفى الكواوي) لـ (بونبون سيما) هي التي خلقت العالم، وهي التي حينما صارت فيديو على يوتيوب أنهته.. أقاوم الآن رداءة الحكمة، وفجاجتها.. فكرة خلق العالم نفسها تساوي بين السطح، والعمق لمن لا يأخذ دخانها الحارق على صدره إلا ليخترع دعابة.

أحكي: الذين يلتقطون لغتي كأي كلب أجرب.. الذين يرصونها جنب بعضها، أو تحت بعضها بحسب آخر نص لي.. الذين يواظبون على النشر في موقع، ثم ينتقلون إلى غيره ورائي كظلٍ مات صاحبه.. الذين يزيدون جرعة البذاءة في كتاباتهم، ويخففونها بناءاً على المزاج الحاضر لوقاحتي.. فرحي بكم يعادل امتناني لامرأة كتبت اسمي موزعاً فوق حلمتيها، وعانتها هكذا:

MAM UH

DO

أخبرني يا هذا بحديثٍ شيقٍ عن الأباطرة، والبابوات في القرون الوسطى، وعن محاكاة الطبيعة في القرن الرابع عشر، وعن التجريد الغامض في فن العصور المظلمة، وعن مكتبات الأديرة التي عاشت فيها مؤلفات الرومانيين، واليونانيين، وعن الهيئة المتعالية للقديسين في المنحوتات الكلاسيكية.. قال: بل أنني لو تسمح أود في الحقيقة التأكيد على أن التناص غاية وليس وسيلة، وأن من لا يعجبه ذلك عليه أن يسأل لي أمه عن ميدالية المفاتيح التي تحمل شعار (الأهلي)، التي نسيتُها بالأمس تحت وسادتها.. إن الانسجام، والتوظيف، والدلالة بيدي، وإن لم تعقل فليس عليك حرج، فقط امض في سبيلك علك تجد ما يواسيك في مكان آخر.. إن أحسنكم عندي من ينتزع العائق الدخيل الذي يوجعه، ويلقي به بعيداً، ثم يُكمل المشوار دون لومٍ على صاحب الطريق، لأنه ليس للتمهيد، والتيسير وصفة، أو قانون يناسب الخلق أجمعين.. ثم من ضحك عليكم في كهفٍ رسوليٍ مظلم، وأفهمكم أنني أنشد التمهيد، أو التيسير!!.. لا بأس من أن نتذكر (بلزاك) بالخير؛ فالهوية المدنية الشخصية التي رأى أنه على الفن الروائي تأليهها، لابأس لو تحوّلت في (الفشل في النوم مع السيدة نون) إلى سجلٍ مخادعٍ، ووافٍ، يزيف الحقائق بهذيان مضاد عن

حياة الروائي، وكتبه، وأفلامه، وأغانيه، وموسيقاه، وكل ما يهنأ بالعيش في سلام داخل فولدرات اللاب الذي يستخدمه في كتابة الرواية.. هكذا نقبّل يد السيد (بلزاك) باحترام، ثم نعلّق له ذيلاً، ونجري ضاحكين كعيالِ حارةٍ أشقياء.

أنت رسم صغير في مخطوطة حرب.

طائرة هليكوبتر يبدو أنها تنتمي إلى بوليس ما.. لا يعرف سكان المنطقة أي تعس من أبنائها جاءت لتأخذه.. أعادت الهليكوبتر التحليق بعد القبض على عجوز ملفوفاً بملاءة بيضاء.. الشامتون قالوا أنه جزاء كل ابن شرموطة يخالف القواعد التي وضعها بنفسه.. المتعاطفون تساءلوا باستنكار عظيم (أنسيتم أنه بشر مثلنا، وأن لديه سلاسل تذكُّرية، ومكونات لاوعي تظهر في الأحلام، ربما لن يجدي معها سوى التحليل الذاتي؟!).. المسرتنون تثاءبوا، ثم لوّح كل منهم بيده الأخرى لـ (فرويد) الذي عطس من البرد، والعري من وراء زجاج الطائرة، كما أنه كان راغباً بشدة في التبول.

كلنا أولاد تلك الصور التي على الحائط.. نحن نبتلع الصور، والمسامير المعلقة عليها، والثقوب التي حفرتها المسامير.. الثقوب تأكل المسامير، والصور في داخلنا.. مجاز الزمن.

ملاحظات دوّنتها في خطة عمل هذه الرواية، لكنني لن أنفّذها:

- استخدام الصفحات الجنسية، وصفحات الشراميط الخاصة على (الفيس بوك).
- البحث عن أشهر الفضائح، والجرائم الجنسية في التاريخ المصري.
- استدعاء ألف ليلة وليلة.

– عرض، ومناقشة (التقنيات السردية لرواية ما بعد الحداثة) لـ (د. مي محمود) حول سلب معنى التاريخ، والتخييل الذاتي، والكولاج، والشذرات، وتهجين النص، والميتانصية، وإعادة السرد.

شباك حمامي يطل على خرابة.. قريب من الأرض.. يقف تحته في الظلام أشباح يتحدثون عن الفن الإغريقي، والروماني، والهمجية، والأسلوب (الرومانسكي)، والقوطية.. يمسكون بأعضاء بعضهم، ويضحكون.. أسمعهم، وأنا جالس أتبرز، مرتجلاً أغنية عن كنايات الرسم التي تحيل العناصر الحسية إلى أصل سماوي.. يتشاجرون فجأة حول قبضة يد زاد ضغطها بدرجة أوجعت صاحب العضو الممسوك.. أكتشف طبق غسيل فارغ بجواري.. أجده مناسباً لمنح الأغنية المرتجلة إيقاعها المطلوب.. بدأت في التطبيل مضيفاً كلمات عن تحريم التشبيه، والتشخيص، وتحطيم الأيقونات.. الأشباح في الخرابة توقفوا عن الشجار، وبدأوا يرددون معي الأغنية.. دون أن أضطر للنهوض، وفتح الشباك كنت متأكداً من أنهم لم يعيدوا أعضاءهم إلى أماكنها، بل تركوها تلعب في الفراغ مع الغناء.

(9)

أصحابي انتبهوا مثلي إلى الطوابع، وحدّقوا فيها، وكتموا ضحكاتهم.. عندما تركنا المحل ظللنا نتحدث عنها، ونحن في منتهى الشبق.. وأنا لوحدي كنت أسترجع شكل الأثداء المرسومة، وأتتبع بهياج، وإصرار دقة استداراتها، وانحناءاتها المحكمة، وحلماتها البارزة.. لكنها في نفس الوقت يا دكتور لم تدفعني لاستعادة الثديين الجميلين لابنة خالي الكبرى.. كأن شخصاً آخراً هو الذي كان يلعب معها، ومع أختها (عريس وعروسة)، وهو الذي كان يقبّلها، ويعصر ثدييها، ويقرص حلمتيهما بقوة.. كان مجرد صغير يلعب، يمارس هواية ممتعة أكثر من كونه صاحب شهوة مستيقظة، واضحة، وليست مختبأة وراء انفعالات وأحاسيس طفولية.. حينما بدأ الانتباه، والشعور بالشبق الحقيقي ضاعت الأجساد الحقيقية يا دكتور، وأصبح الأمل كله في الرجل العجوز صاحب المكتبة بألا يأخذ باله لأطول وقت ممكن من الأولاد الذين يذهبون إليه، وينتهزون انشغاله ليختلسوا النظر إلى الأثداء المتوهجة، الملتصقة داخل الفاترينة.. ربما أكون قد أخطأت يا دكتور فيما يتعلق بالانتصاب؛ لأنني تذكرت الآن أن تفكيري في الأثداء كان مستقلاً عن عضوي.. ربما كنت أشعر بالإثارة الشديدة، وبحرارتها، وبمتعتها في كل جسمي، لكن ربما دون انتصاب، أو سخونة، أو تمدد في قضيبي.. حينما قالت لي ابنة خالي الصغرى، وهي تتوجع (نزله تحت عشان داخل في بطني) لا أعرف هل كان واقفاً حقاً، أم أن هذه كانت حالته العادية.

أصبحنا نذهب يومياً لمشاهدة الطوابع حتى وجدناها مختفية ذات مرة فعرفنا أن الرجل العجوز كشف أمرنا.. كنا بالطبع أجبن من أن نشتري هذه الطوابع، وكنا متأكدين من رفض صاحب المكتبة لبيعها إلينا.. هل حزنت

النساء المرسومات على فقد نظراتنا إليها.. على الأقل كان يمكن للدنيا أن تكون أكثر إنصافاً، وتسمح إما بتسلل بعضٍ من تلك الطوابع إلى جيوبنا في غفلة من الرجل العجوز، أو تتمكن النساء المرسومات من التقاط صورة جماعية لعيوننا، وهي تنظر إلى أثداءها، ثم تحوّل الصورة إلى طابع حتى تحتفظ بها كذكرى لشهوة الصبية الصغار التي كانت تجيء بهم كل يوم إليها.

كنت أدعي أنني أفهم كل شيء، وأعرف ما لا يعرفه غيري، وأقول كلاماً لا يقوله أحد.. لا أتذكر أين سمعت، أو قرأت عن الحيوان المنوي؛ فتصورت أنه الاسم العلمي لعضو الرجل.. كان عندنا ضيف شاب في البيت، لا أتذكر من، ولكنني أتذكر جيداً أنه لم يكن محل ترحيب من أسرتي.. لاحظت أن حِجر بنطلونه مفرود لأعلى وهو جالس، بالضبط كأن عضوه منتصب.. كنت منتبهاً لمشاعر الضيق من وجوده في وجوه أسرتي، والتي تحوّلت إلى حديث صاخب، غاضب بعد انصرافه.. أردت الاشتراك في حوارهم عن الشاب، ودعم وجهة نظرهم عنه؛ فوجدت نفسي أقول بصوتٍ عالٍ مثلهم (فعلاً، وكمان قاعد، وحيوانه المنوي واقف).. وجدتهم ينظرون لي في ذهول.. ليس بغضب، وإنما نظرة بشر يتفحصون مخلوقاً فاق غباءه الحدود.. لم يرد أحد منهم على ما قلته، بل كانت جملتي تلك سبباً حاسماً في إنهاء حديثهم عن الشاب.

كنت من توتري ألتهم الشيشة يا دكتور.. أحاول بقدر ما أستطيع التكلم بشكل عادي، وأن أسأل، وأفتح موضوعات، لكن كان من الواضح أنني فاشل، وممل، وأتحدث في أمور سخيفة، وبثقل دم جعل الزهق يظهر عليها.. جاءها تليفون من صديقة.. بعد الترحيب، والمجاملات التقليدية، قالت لها أنها في (كافيه) مع (فلان)، وحتى الآن لا تعرف إذا كنا سنصبح أصدقاء أم لا، ثم أنهت المكالمة.. بالطبع (فلان) لن يكون صديقها أبداً

يا دكتور، ولها مليون حق في أن تنظر لي بخيبة أمل، وأن يبدو على وجهها انفجار المرارة، والشعور بضياع الوقت معي، وهي تخبر صديقتها في التليفون عن الذي تجلس معه.. هل تعرف ماذا فعلت يا دكتور بعدما رأيت منها ذلك، ونتيجة لإحساسي بالسقوط من جبلٍ غاية في الارتفاع دون أن أجد ما أُمسك به؟.. أريتها صورة زوجتي على الموبايل.. بصدق، ودون تحفّظ، أو مراعاة لمشاعري؛ قل لي يا دكتور: هل رأيت شاباً معجزة مثلي من قبل؟.. كي أضيّع خيبة الأمل منها أُريها صورة زوجتي!!!.. أيضاً ليست أي زوجة.. زوجة محجبة، تبدو في الصورة على وشك فرد سجادة الصلاة، أو فتح مصحف.. صورة زوجة كهذه أُريها لمن.. لنجمة من نجمات الشعر الحديث، وقادمة من قارة أخرى، ومتأنقة على الآخر، وترتدي ميني جيب.. كل ما أتذكر أرغب في حرق نفسي يا دكتور.. لكن ماذا أفعل؟.. لا أعرف كيف أتصرّف.. دائماً أُفسد كل شيء، ودائماً أُفسده أكثر كلما حاولت معالجته.. نظرَت لصورة زوجتي، ثم هزّت رأسها، وابتسمت ابتسامة خفيفة، وقالت لي كلمة مجاملة لا أتذكر إذا كانت (لطيفة)، أم (رقيقة)، هذا ليس مهمّاً طبعاً يا دكتور.. المهم أنني بالتأكيد شعرت، وأدركت غباء، وبؤس ما فعلته من نظرتها لي، وأنا أُعيد الموبايل إلى مكانه.. كان من الطبيعي إذن أن تُخرِج موبايلها، وأن تطلب رقماً لما سألتها عن صاحبه قالت اسم واحد من أصدقائها في المدينة، وهو صاحبي في نفس الوقت، ولا تتصور يا دكتور إلى أي مدى لا أطيقه.. حتماً كان هذا إعلاناً رسمياً، وواضحاً، لا يقبل الشك بأن الأمر قد انتهى، وأن اللقاء تحوّل إلى ورطة سمجة، يرعاها إحراج مخبوء، ولم يعد هناك معنى لاستمرارها بفضل قدراتي التي تستحق الدراسة.. لم يرد الصديق على اتصالها؛ فسألتها إذا كانت ترغب في الانصراف.. بالطبع أجابتني بالموافقة؛ فناديت الجرسون، وأنا أشعر بيأس قاتل من نفسي، ومن الحياة.. فوجئت بها تُخرج محفظتها من حقيبة يدها.. على الفور،

ويعزيمة الرجال، وبأس الفحول أسرعت بسؤالها مستنكراً (انتي بتعملي إيه؟).. نظرت لي يا دكتور كمخلوقة فضائية تفصلني عنها ملايين السنين الضوئية، ثم أخبرتني، وهي مستغربة جداً، ومندهشة باستياء، وتهكم من تخلّفي، وعبطي بأنه لا توجد مشكلة في أن يدفع كل واحد لنفسه.. رفضت بقوة، وكنت أعتقد يا دكتور أنها ستستجيب فوراً أمام إصراري، ولكنني صُدمتُ بتصميمها الشديد على أن تدفع لنفسها.. رفضها التام للتراجع جعل من إلحاحي المتواصل أمام نفسي، وأمام الجرسون، وأمام كل الجالسين، وأمام أبي، وأمي الميتَين جعل منه عرضاً مُحزِناً، مضحكاً، غاية في البلاهة.. تركتني أدفع في النهاية يا دكتور، كأنها تترك طفلاً يلعب في خرائه طالما يتمناه إلى هذه الدرجة.

بعدما كنت أنتهز يا دكتور أن يرسلني أحد من البيت كي أُحضر له طلباً من شارع السينما حتى أذهب لمشاهدة أفيشات أفلام (روكي)، و(رامبو)، و(جاكي شان)؛ أصبحت أذهب بمفردي، أو مع أصحابي، وندخل لنقف في مدخل السينما، ونتفرج على صور الأفلام المعلقة في براويز زجاجية كبيرة.. كلما رأينا الأفيش الكبير من بعيد ندخل لندقق، ونتمعن، ونتفحص أثداء، وأفخاذ (ناهد شريف)، و(نجلاء فتحي)، و(ميرفت أمين)، و(زيزي مصطفى)، و(نبيلة عبيد)، و(ليلى علوي)، و(مديحة كامل) وغيرهن.. ونحن نسير في الشارع يقول أحدنا أنه رأى ثدي (ميرفت أمين) كله مثلاً؛ فنجري لنشاهده.. نحدّق طويلاً فيما ظهر منه، ونعاتب، ونتوسل، ونرجو ما لم يظهر، ودون اتهام بالكذب لمن قال أن الثدي كله كان عارياً.. كنت أحياناً أخجل من موظف السينما الجالس بجوار براويز الإعلانات ليأخذ التذاكر.. كان ينظر لنا، ويبتسم بسخرية.. كأن اللعاب المنهمر من أفواه الأولاد الصغار أمام الوليمة الصامتة، الساكنة، والحصينة، التي تستعرض روعتها أمام جوعهم أكثر تسلية، وتشويقاً من حياة أمه.. كانت الرغبة في الفرجة أقوى من منح اعتبار لأي أحد يا دكتور، خاصة لو كان كائناً

يحاول الانتقام من حرمانه بواسطة التشفي في حرمان الآخرين.. أشهر الأفلام التي حفظنا صورها كانت (المذنبون)، و(لغة الحب)، و(رحلة العمر)، و(المغتصبون)، و(أرجوك أعطني هذا الدواء)، و(هي والشياطين)، و(قاع المدينة) وغيرها.. كانت عيوننا تحمل الصور إلى سرائرنا، وتعلقها في السقف بعد أن تنطفيء الأنوار، استعداداً للنوم.. كل صور جديدة كانت تطمس على الصور التي سبقتها.. ليست صور الأفلام فحسب، وإنما أقصد صور الحياة نفسها.. لا تمحوها، وإنما تنحيها جانباً.. الأشياء في تلك المرحلة - خصوصاً الجنس - يُسيّرها تجديد متواصل.. لا تُبرِز بضوءٍ متسلطٍ إشارات الماضي التي تقود حركتها، وإنما على الأرجح تتخذ شكل الملامح التي تحاول الوصول إلى وجه.. إلى هوية ستتحول فيما بعد إلى طبقات خلفية لقناع.. لعروق غير مرئية داخل رأس قضيب يحاول العثور على ممر ملائم في الظلام.

أتذكر أنه من ضمن ما كنا نذهب للفرجة عليه علبة معدنية، دائرية، من علب الحلوى القديمة، كانت مرتمية وراء فاترينة محل حلويات عتيق بجوار المدرسة الابتدائية، وملصق على غطائها صورة لـ (نجوى فؤاد)، و(سهير ذكي) ببدلتي الرقص.. كانت كل فرسة ترفع ذراعاً عارياً، تنتشبك أصابعه بأصابع ذراع الفرسة الأخرى.. كنا نذهب لنقف أمام الزجاج المحروم من إضاءة مناسبة، ومن يدٍ متفهمة تزيح التراب الكثيف، الذي على وشك تحويله إلى جدار.. كأن عيوننا كانت تعيد رسم الصورة في أذهاننا عبر تتبع منحنيات الأثداء الأربعة الكبيرة، المتجاورة.. الفخذان الممتلئان، المكشوفان، والمتلاصقان، حيث كانت كل راقصة ترفع واحداً ليلاصق فخذ الأخرى المرفوع، بالضبط مثلما ترقص الفرس الحقيقية على المزمار.. كأن الغرض من اللقطة إيصال الرسالة المهمة: (وصفك صحيح بالفعل.. نحن كما أطلقت علينا؛ فرستان حقاً، وجاهزتان دوماً لإعادة تعريف الركوب).

أنا أعرف يا دكتور أنك من الممكن أن تضربني، أو تلقيني خارج العيادة لو قلت لك أنني بالرغم من كل تفاصيل المهزلة التي حدثت في اللقاء؛ فإنني شعرت بزهو رائع، وأنا أمُر معها وسط شباب، ورجال (الكافيه) نحو باب الخروج، وهي مرتدية الميني جيب.. لكن أرجوك لا تغضب يا دكتور، لأنني لابد أن أخبرك بكل شيء.. شعرت بالزهو، وأنني (دكر صايع)، بينما أعبر بجوارها تحت أعينهم التي تمضغ لحمها.. هي كأنثى فقيرة يا دكتور، لكن أولاً، وأخيراً اسمها أنثى، وأولاً، وأخيراً هذان اسمهما فخذان.. عندما خرجنا إلى الشارع وجدنا شباباً، ورجالاً آخرين يجلسون على مقهى شعبي أمام (الكافيه).. ظلوا يحدّقون بقوة؛ فاختفى الزهو، وصعد الخوف.. خشيت أن نسمع كلمة، أو جملة، أو يحدث ما هو أكثر من أي ابن زانية أُطالب على إثره بالرد، أو التجاهل، وفي الحالتين سأكون في موقف لا أُحسد عليه، وستضاف آلامه للذكرى المُهينة التي تركها لقاءنا بنجاح مبهر.. فوجئت بها تسألني يا دكتور (هي الناس بتبصلي كده ليه، هو أنا ماشية عريانة؟).. كان سؤالها مفاجئاً، وصادماً، وعجيباً في نفس الوقت يا دكتور.. عجزت عن الرد، وابتسمت كالعبيط محاولاً – كالعادة – أن يكون صمتي تعبيراً عن الخبث، وعدم الاهتمام، لكنني طبعاً فشلت، وظهر جلياً أنني لا أعرف ماذا أقول.. لم أكن أعرف أصلاً هل سؤالها حقيقي بمعنى أنها تنتظر الإجابة فعلاً، أم أنه كان مجرد سؤال استنكاري لا تنتظر إجابةً عليه.. أياً يكن لم أستطع الرد يا دكتور، لأنني أفتقد سرعة البديهة، التي تجعلني أتوصل لإجابة لمّاحة في التو، واللحظة، ودون تردد، وبثقة تامة.. دائماً عندي بطء فظيع في تفكيري، وأنا أتعامل مع الناس، وبالتأكيد يتحول إلى شلل كامل مع امرأة مثلها، ومع سؤالٍ كهذا.. السؤال الذي من ناحية أخرى استغربت منه.. المفترض أنها تعرف جيداً بأن تمعّن الشباب، والرجال في فخذيها، وهي ترتدي الميني جيب شيء عادي، ومنطقي للغاية.. لماذا إذن تدّعي العكس، وتمثّل عليّ أنها لا تفهم ذلك..

التفسير الوحيد يا دكتور الذي قلته لنفسي ساعتها أنها تحاول أن تُشعِر نفسها بأنها جميلة، ومثيرة، بشكل غير مباشر.. أصبح كل همي أن أجد تاكسياً بأقصى سرعة حتى أتخلّص منها، وأتخلّص بالتالي من عيون البشر الجالسين على المقهى، والذين يسيرون حولنا في الشارع.. سألتها عن المكان الذي ستذهب إليه فأخبرتني، لحظتها مر تاكسي فأشرت له كأنني ألوّح لسفينة إنقاذ.. تجاهلني السائق، لكنه حينما لمح فخذيها توقف، وعاد للوراء مثل الكلب.. أخبرته بالعنوان، ثم جلسَت في الخلف، وقلت لها مع السلامة.. الخاطر الذي مر في رأسي بسرعة، أطلقت عليه قذيفة مدفع، ودفنته في لمح البصر.. خاطر أن أدفع لها أجرة التاكسي.

الفصل الإعدادي كان كله ذكوراً، لكن مستوى المعلمات اختلف، وتلخص ذلك الاختلاف في معلمة واحدة كانت تدرّس لنا العلوم.. تخيل معي يا دكتور لو أن (ليلى علوي) مثّلت فيلم (بحب السيما) في التسعينيات.. هذه هي المرأة التي أتحدث عنها.. قصيرة، ممتلئة دون إفراط، ثديان منفوخان تحت بلوزة ضيقة، فخذان غنيّان، ملفوفان برسوخ مع ركبتين سمينتين، ومؤخرة عريضة واثقة من وحشية نعومتها.. وجه سريري لأبعد مدى يا دكتور.. طلاب الفصل، بل طلاب المدرسة كلها كانوا يموتون عليها، وهي كانت عارفة نفسها، وعارفة بالهياج العظيم، والهائل الذي يعوم في فضاء الفصول، والممرات، وفناء المدرسة على جسمها.. حتى نفس اللبس الذي كانت تظهر به (ليلى علوي) في الفيلم كانت هي أيضاً ترتديه، ولكن معلمتي كانت أجمل.. لم يبدر منها أي تجاوب، أو تحريض، وفي نفس الوقت كانت مهذبة، مخلصة في شغلها، وابتسامتها الودودة لا تفارقها.. لحظة في منتهى القسوة علينا يا دكتور حينما كانت تقف على أصابع قدميها لترفع جسمها كي تكتب على السبورة، أو تعلّق رسم تضويحي توضويحي توضيحي -اغفر لي ارتباكي يا دكتور- أنت لم تشاهد جِيبتها، وهي تكشف مع هذا الوضع عن بطنَي ركبتيها كاملين، وعن السمار

الطري لفخذيها الكبيرين.. جسمها كان كُتلاً محكمة من الزبدة الحارة، معدّة للطامعين في كرمها المنتشي.. كنا نحسد، ونحقد على زوجها الذي لا نعرفه، وكنا نتخيل جسمها وهو عاري تماماً، ونفكر في شعر عانتها الغزير حتما، الذي يحتجز الماء بين تموجاته المتشابكة، وهي تستحم تحت الدُش فتتساقط القطرات منه بتمهل حنون مثلما يتساقط المطر من فروع الأشجار.

هامش الرجل الذي ربما يكون طبيباً نفسياً، أو كاتباً مسرحياً في الستينيات

يقرأ من (إثنا عشر جرام من السعادة) لـ (فريدون زايموغلو):

(اليوم مزاجها رائق، وتمنحني عذريتها التي تحتفي بها. لكن عليّ ألا أفشي السر، وإلا فسيطلق عليها بعد قليل " فيرا طيز").

كان يجب أن أتحدث معه عن الجُزر الصغيرة المنعزلة، أشياء الواحد، وكائناته، وممارساته التي لا علاقة لها بالحشود المتنوعة، والوفرة المتباعدة، المنقسمة.. أنت تقوم بفعلك الخاص الذي لا يساوي شيئاً في المنظر العام، الذي أصعب أحلامه أن يكون ضئيلاً في التكدس الأرضي.. جسدك لا يدرك إلا نقاط قليلة، متناهية البؤس، ولا يتحرك إلا عبر خيوط ضعيفة، متقطّعة، لا تشكل حيزاً أكثر مما تحققه خطوة نملة.. هذا أقوى دافع للسكينة، لأنك تعرف الآن أنه لا أحد امتلك أكثر من دعابته الشخصية، وأنه لو عاش ملايين السنين سيعثر في كل لحظة منها على دعابة جديدة، مبتكرة، لأخٍ له في الكوميديا، سيقول أمامها: (يا ابن الوسخة!).. ثم أنه ليس هناك حافز للمتعة أعظم من الشعور، والتأكيد المتزايد بأنك لا شيء.. معلوماتك، وارتكاباتك، والبشر الذين تعرفهم كلها مجرد فسية رضيع، ثابتة في مكانها – على فكرة رائحة فسيتي لم تتغير منذ ثلاثين سنة.. لهذا الفهم مزاج، والإيمان به ما يوفر الدافع لخدمته بكل طقس يلائم حقيقته كنكِرة.. أنت لا تعرف أي ألم يحصده كل أولئك الذين رقصت قلوبهم فرحاً بمواكب التقديس التي طالما مرت في السماء من أجلهم، ثم عاشوا مع أنفسهم اللحظة المضمونة التي يقولون فيها دون صوت (نعم، فعلنا أشياء جميلة، وهناك بشر كثيرين قالوا أن أشياءنا جميلة، ولكنهم – فضلاً عن أنهم ليسوا كل سكان العالم – لا يتركون في

أرواحنا سعادة خالدة، تظل كما هي دون خفوت، أو شحوب كلما استعدناها).

كنا نسمع (لويس أرمسترونج) يغني (Kiss of Fire) عندما أخبرني بأن أمنيته كتابة جلساتنا كـ (جرافيتي) فوق الجدران، وعربات القطارات، والشاحنات، ومحطات المترو، وعند مداخل الجسور، ومخارجها.. يتذكر حينما طُلب منه مقال لكتاب جماعي عن ما يود أن يتضمنه دستور (مصر)؛ كتب موضوعاً ساخراً عن حرية تكوين عصابات أدبية تعتمد – من ضمن أساليبها– على الجرافيتي.. يجب أن يكون هناك حرص أيضاً أثناء الكتابة على استرجاع التاريخ السياسي، والاجتماعي لهذا الفن، وبداياته في نيويورك، وتحديداً في شوارع (هارلم) السوداء.

ما أسهل أن يكون لأمراضي سبب ديني كما كان يُعتقد في العصور الوسطى.

قلت له أنه يوجد في مدينتي سيدتان نبيلتان، تنتميان إلى ما يُقال عنه (المشروع الإسلامي)، واحدة منهما قررت أن تكون نبيلة فقط، حتى تجعل الأخرى أكثر نبلاً.. نتيجة لفساد فترة حكم (مبارك) كانت علاقتهما متوترة، قائمة على الشد، والجذب، وتبادل المنفعة.. فالأنبل كانت تستخدم الأقل نبلاً في التعريض عليها، سواء باستقبال الزائرين أثناء انشغالها بالنوم مع أحدهم في الداخل، أو في ترويج امتيازها الشعري، والنقدي، والثقافي بين تعساء المقهى، ونادي الأدب مقابل المال، والطعام.. لكن الإثارة – كما عودتنا التقارير الأمنية التي استخدمتها السينما – لا تنبع إلا من الانتقام الخفي المتبادل في علاقة كهذه؛ فالأنبل كانت دائماً ما توّزع على التعساء آرائها عن الأقل نبلاً بأنها شرموطة، ومتطفلة، وحقودة، وكارهة لنفسها أكثر مما تكره الآخرين.. أما الأقل نُبلاً فكانت تُعيد على نفس التعساء تأكيداتها بأن الأنبل امرأة أنانية، مغرورة، تغار من شعراء جيلها، فضلاً

عن كونها استفادت من تاريخها مع الجماعات الإسلامية حينما أصبحت عميلة لأمن الدولة.. واحدة منهما الآن كتبت ستاتس مؤيد للإخوان المسلمين على صفحتها، وهي لا تعلم أنني أكتب عنها في هذه اللحظة.. بعد تنحي (مبارك)، وعُزل (مرسي) لا تزال الأنبل، والأقل نبلاً محتفظتين بلقبيهما، وتتغزلان في بعضهما كقحبتين تائبتين، ولا يزال (الفيس بوك) فاتحاً المسرح لفصول جديدة من العلاقة المسلية.

نهض، وفتح النافذة.. كانت البحيرة ترتعش بين البيوت المتقاربة، والمراكب تتبادل نغمة متفق عليها، يفهم الجالسون فوقها أنها لغة التخاطب مع الأفق الأزرق، الخفيف، الهادىء كجناح طائر صغير، يهزّه هواء بارد في نومه.

هذه الرواية محاولة تعويض عن جميع الستاتسات الساخرة، الذكية، الصادمة، المثيرة للإعجاب، التي لم أكتبها خاصة كتعقيب على الأحداث السياسية، والتي التزمت خلال حدوثها بالصمت لأنها حقاً لم تكن تعنيني مهما كانت أهميتها، وخطورتها عند أغلب الناس.. اللحظات التي لم أكن أريد التحدث عنها، وخشيت لو فعلت أن يبدو كلامي ثقيل الدم، سخيفاً، ميئوس من قدرته على مجاراة ما يقوله الآخرون.. كنت ألتزم الصمت – ويشهد سقف حجرتي على هذا– مراقباً بحسرة كيف يكتسب اللزجون شعبية محمومة، ومتزايدة نتيجة التحليل، والتعليق، والألش على الأحداث.. تخيلوا –عليكم اللعنة– أن يكون هذا من ضمن أهداف الرواية!!!

ليس لهذا الأمر بداية، ولن تكون له نهاية.. أتحدث عن تحليل البنية الرمزية للغة التي يحكي بها.. كل إشارة تسمح بتكوين قانون، وكل علامة يمكنها نسج عالم مختبيء.. الحقيقة، أو إدعاءها بمعنى أدق.. صورتها على العموم تُحيل في كل عنصر يمكن اختلاسه من سيولتها إلى واقع،

وخيال، وإلى الألعاب الملتبسة التي تنشط بينهما.. يمكنك أن ترى من خلالها وهماً عن كل (آخر)، وكل رغبة في (الأم)، وكل كابوس يعادي الطبيعة، وكل زلزل يتوسط العلاقات مع (الأنا) حيث يكمن الموت، والفقد، والتمنع.. دعنا نعبث في أشلاء بعضنا، ونستمتع بالمفارقة، وبلذة ترك المسافة، والبُعد عن موضع الاختبار.. نفتك بالتسميات، وبالمعاني، وبالتحديدات، ثم نعاكس الفناء الكامن في الخطوات المتواصلة، المتطابقة، التي تُرشدنا إلى الإشباع، وغيابه المتلازمين كقناع لحل غائب.

ما أجمل ظلام، وروحانية القرون الوسطى أيها الفاشل.

(10)

عندما رجعت إلى بيتي يا دكتور لم يكن عندي استعداد لفعل شيء سوى الضحك.. أن أضحك فحسب، وأظل أضحك، دون توقف.. أُشعِر نفسي بالاستسلام، والسرور لأنني هكذا.. لأنني مسكين، وخائب.. قلت في داخلي أين المشكلة.. الأبطال الحقيقيون هم الفاشلون في الحياة.. الخجولون، الذين علاقتهم بالنساء بالضبط كعلاقة أُم حضرتك بـ Herschel Savage، وهو من أشهر ممثلي البورنو القدامى.. ابحث عنه على الانترنت يا دكتور، واجعل أمك تشاهد أفلامه في عيد الأم، ربما ستعتبرك حينئذ ابناً باراً.. لكن طوال الضحك، كان الألم يتزايد.. كنت أرجو لذلك اللقاء أن يكون جميلاً، وممتعاً، وفيه من الشغف ما يجعلنا نتذكره بسعادة.. لكن أي علامة كانت تدل على ذلك.. لو كان أي شخص مكاني – أي شخص – كان من الممكن أن يخرج اللقاء بهذه الصورة.. لكن معي أنا غير ممكن يا دكتور.. ظللت أضحك، وأخبط دماغي في كافة الحوائط المستترة التي تحاوطني، رافضاً التحدث مع أحد.

بعد فترة طويلة زاد عدد المشتركين في قصر ثقافة الطفل من الأولاد والفتيات، وكنت قد أصبحت عضواً قديماً، ومن أكثر الذين يمارسون الأنشطة.. كانت هناك شلة من البنات، لم يكنّ جميلات بدرجة كبيرة، نجح بعض الأولاد في تكوين صلة معهن.. لم أكن من بين هؤلاء الأولاد لأنه في تلك الفترة – أواخر ابتدائي، وأوائل إعدادي – بدأت في التأكد من خجلي الشديد تجاه الفتيات.. كنت أخاف من الوجود، ومن التحدث معهن ليقيني بأن الارتباك سيكون مصيري، وأنني سأبدو مغفلاً جداً.. لم تكن لدي جرأة زملائي في قصر الثقافة الذين كانوا يتكلمون مع البنات، ويدورون معهن حول الحديقة المجاورة للقصر.. هذه هي الفكرة المسيطرة

عليّ يا دكتور صراحة بخصوص اقترابي من الفتيات.. أي فتاة.. أنني سأعطيها انطباعاً متيناً بكوني مسكين للغاية.. هل لأنه لم يكن مسموحاً لي بالتعامل مع الناس في طفولتي، فأصبح كل من هو خارج نطاق أسرتي غريباً.. حتى الأقارب، والجيران.. أم لأن أمي تحديداً لم تتكلم معي أبداً.. عمرها ما قعدت معي حتى نتحدث في موضوع بعيداً عما يجب أن أفعله، وما لا يجب أن أفعله.. أنا أتكلم يا دكتور عن أم تتحدث مع طفلها، وليس مجرد أن تلعب معه رغم أنني لا أتذكر حتى أنها لعبت معي.. أقصد أن كابوس الخجل الذي يدفعني لتفادي الاقتراب من بنت، أو امرأة من الممكن تعليله بأن أمي لم تتكلم معي أبداً خارج ثنائية الأوامر، والنواهي مهما حاولت تلك الثنائية التنكر أحياناً في الطيبة، ومعاداة التجريح.. أليس من الجائز يا دكتور أن عدم الحديث مع أمي – وهو ما كنت أشعر به فعلاً، ويزيد في داخلي كلما كبرت – حرمني من الأمان النفسي، أو العاطفي – حتى لو كان متوهماً، ومخادعاً – الذي ينبغي أن يحسّه الواحد تجاه المرأة كي لا يعذّبه الاضطراب.. حرمان أعتقد أنه لا يعوّض بالنوم في أحضانها، وأنت طفل.. أتكلم عن المناقشة، وتبادل الآراء، والخلاف في وجهات النظر، وكل ما يمكن أن يسمح به الحوار التقليدي الذي يجعل من النساء كائنات عادية، لا تدعو للارتباك.. لكن هذا لم يحدث معي يا دكتور.. فقدان التواصل مع أمي جعل المرأة الغريبة عني مخلوقاً خرافياً.. ليس كريهاً، وإنما غامض، وذو رهبة، ومقدرة لا آخر لها.. وجودي مع أي بنت، أو امرأة – بالصدفة، ورغماً عني بالطبع – كان، ولا يزال معناه أنني في امتحان شرس.. أن هناك إله قادم من عالم خارق حتى يختبرني، وفي يده وحده تحديد إذا ما كنت أستحق الحياة، أم لا.. ربما حينما حرمتني أمي من الكلام معها، حرمتني أيضاً من الكلام مع كل النساء، وتركتني أتعامل معهن كوحوش جميلة، أحكامهن تجاهي هي الصحيحة دائماً، ودائما ما تُهديني أحكامهن مهانة جديدة.. الهروب من العينين.. اللجلجة،

واحمرار الوجه.. تبتسم الواحدة منهن في وجهي، وأحياناً يظهر عليها الشعور بالشفقة.. أي واحدة يا دكتور؛ كبيرة، صغيرة، حلوة، دميمة، طالما أنها ليست من أسرتي.. أسرتي تحديداً وليس عائلتي.. أتصوّر أن أصحابي كانوا يتحدثون مع أمهاتهم، ويمزحون معهن.. لم تجمعني مع أمي أي دعابة، ولو مرة واحدة.. تصدّق يا دكتور أنه ذات يوم قالت لي – بدون سبب، وفجأة – جملة واحدة (أنا رجليا تعبت من مشوار النهاردة).. كانت على وجهها ابتسامة خفيفة، وأنا ظللت أنظر إليها مذهولاً، مرتبكاً، ولا أعرف بماذا أرد عليها.. تخيل؛ جملة واحدة بهذه الصيغة جعلتني في هذا الحال.. عارف السبب يا دكتور؟.. لأن عمرها ما كلمتني هكذا من قبل، ولذلك عجزت عن التعليق على ما قالته بأي كلمة.. أعتقد أنها فهمت مثلي هذه المأساة في تلك اللحظة يا دكتور؛ فأبعدت عينيها عن ملامحي الغارقة في الإحراج، وتركتني بصمت مماثل.. كنت شاباً وقتها، وكانت هي قد اقتربت من الموت، وانتبهت مع نفسي أن حياتنا كانت كلها سكوت حذِر، وأوامر، ونواهي، وشِجار، وصراخ، وكلمات مقتضبة لازمة لتسيير شؤون الحياة.. فقط.. أنا لا أتخيل يا دكتور، ولكنني فعلاً حينما كنت أزور أصحابي، وأجلس معهم في بيوتهم كنت أراهم يتحدثون مع أمهاتهم.. كأنهم أصدقاء.. يتشاجرون بالطبع، ويتخاصمون، بل ويشتمون بعضهم، ويلمّون الناس عليهم.. لكنهم حينما يتصالحون يتكلمون كأصدقاء.. يتبادلون المزاح للدرجة التي كانت تجعلني أنظر إليهم بغيرة، واستغراب يائس.. كأنني كنت أرى صاحبي نائماً مع أمه.

فجأة يا دكتور، قبل أن أنام في تلك الليلة، وبينما كنت في ذروة اختناقي من التفكير، واسترجاع ما حدث؛ جاء في ذهني هاجس طيّر عقلي، ودمّر آخر ما تبقى لدي من أعصاب، وسوّد الدنيا في عينيّ أكثر مما كانت سوداء.. فكرت في أن مجيئها لي اليوم بهذا المكياج، وبهذا الميني جيب كان يعني أنها كانت مستعدة لاحتمال أن يحدث شيء بيننا.. بالضبط كما

أقول لك يا دكتور.. كانت جاهزة لخوض تجربة أن ننام معاً.. طبعاً حضرتك ممكن تقول بأن هذا ليس شرطاً، وأنه احتمال صعب، إلى آخر كل ذلك الكلام.. سأقول لك أنني أوافقك، ولكنه يظل قائماً.. هل تستطيع يا دكتور أن تعطيني دليلاً دامغاً لا يقبل الشك، أو مبرراً قوياً جداً لا يمكن مجادلته أنها جاءت، ولم يكن في رأسها نهائياً أن مقابلتنا من الممكن أن تنتهي بممارسة الجنس؟.. أظن أنك لا تملك هذا الدليل، أو المبرر يا دكتور.. حضرتك ممكن تسألني أيضاً ببساطة ما الذي بيننا يجعلها تُفكر في أمر كهذا، بل وتأتي مستعدة لإمكانية حدوثه.. أستطيع الرد عليك، وأسألك: ما الذي بيننا يمنع ذلك أصلاً؟.. كل كلامنا على الماسنجر، والحوارات التي تبادلناها كانت عادية جداً، ومثلما قلت لحضرتك أن التحدث عبر الانترنت أعطاني فرصة إخفاء طبيعتي المهزوزة، الخجولة، والمرتبكة بقدر كبير للغاية.. منحني الشات حماية – لأنها لا تراني، ولا تسمعني – من اكتشاف ضعفي الهائل، وتوتري العظيم.. هذا يعني أن صورتي عندها لم تكن من السوء للدرجة التي تستبعد أن يصبح نومنا معاً شيئاً وارداً.. ثانياً يا دكتور ما الذي يجعلها تهتم، وتحرص على الاتصال بي، وطلب مقابلتي حينما نزلت الأجازة لو كان انطباعها عني ليس جيداً؟.. أظن أنك لست في حاجة لتعرف أنه لو كان في داخلها انطباع ضدي، أو على الأقل ليست لديها الرغبة في ذلك اللقاء لقضت أجازتها، ورجعت، وكان من الممكن – ولن يكون صعباً عليها – أن تخبرني فيما بعد أنها كانت مشغولة جداً، أو أنها واجهت أموراً طارئة منعتها من الاتصال بي.. لن تعوزها الحجج، والأعذار يا دكتور، أو حتى لم تكن ستهتم من الأساس بتقديمها، أو التفكير في ضرورتها.. ما حدث هو العكس.. اتصلت بي، وطلبت لقائي، وجاءت بمفردها – لاحظ هذا جيداً – وكانت متأنقة، وتضع كامل مكياجها، وترتدي الميني جيب.. المظهر الذي لم يسبق لي أبداً أن رأيتها به سواء في المرات القليلة السابقة، أو حتى في صورها المنشورة

على الانترنت.. ليس هذا فحسب يا دكتور.. تريد الدليل الأقوى الذي لا يحتمل الشك، أو التأويل، ويؤكد صحة الدلائل السابقة؟.. جملة (هي الناس بتبصلي كده ليه، هو أنا ماشية عريانة).. لم يكن معناها الاستغراب، ولا كان القصد منها أن تُشعر نفسها بأنها جميلة، ومثيرة مثلما قلت لنفسي وقتها.. لا يا دكتور.. كانت تريد أن تُشعرني أنا أنها جميلة، ومثيرة بلغة صريحة، وواضحة.. لغة تبرز فيها كلمة (عريانة) دون أي ساتر.. كانت تلفت نظري لها، ولما هو مكشوف من جسمها بعدما لم تجد مني استجابة، بل تجاهل غشيم لا نظير له.. رغم كل شيء، لم يكن عندها مانع حتى اللحظة الأخيرة، ونحن نخرج من (الكافيه)، وقبل أن أُوقف لها التاكسي من أن نذهب إلى السرير.. تخيّل.. ولا كأني هنا.. كأنني مسافر داخل بلاهتي، ولا أشعر بشيء سواها.. ضع كل ما قلته بجوار بعضه، ثم أخبرني ماذا يعني يا دكتور.. أنا لا أقول أنها قادمة خصيصاً كي أركبها، أو أنها كانت ترتعش من الهياج، وتتمنى أن آخذها فوقه، ولو أنه يظل احتمالاً.. أنا فقط أقول أنها على الأقل كانت مهيأة للتجاوب مع أي شيء يمكن أن يحدث، ويؤدي لأن ننام معاً.. ثم لابد أن تأخذ في بالك أيضاً أن هذا عادي بالنسبة لها، وليس فيه مشكلة لو حدث.. شاعرة، مثقفة، متفتحة، تعيش في الخارج، والجنس بالنسبة لها ليس أمراً غريباً، أو مخيفاً، أو غير أخلاقي.. بالعكس.. ضرورة، واختبار، وكشف، وهذيان، ومراقبة، واحتياج، وعلاج.. كل الدوافع الجميلة، الممتعة، التي بلا شروط.. ثم بصراحة وجهها كان يقول هذا يا دكتور.. ملامحها كانت مرتخية -في البداية، قبل أن يجعّدها الزهق بمرور الوقت- وابتسامتها كانت سائبة، وعيناها كانتا ناعستين، كأنها تحلم، أو كأنها تمرر لك بدهاء الطمأنينة التي تلزمك من رد فعلها لو قررت اتخاذ خطوة جريئة.. خطوة جريئة مني أنا يا دكتور؟!!! عرفت الآن ماذا ضيّعت من يدي؟ عرفت الآن الروعة الاستثنائية، التي لا تتكرر، والتي تفضّلت بهمّة،

وثبات بتحطيمها، ونسفها؟.. ياريت كان الأمر مقتصراً على خسارة لقاء مثالي بين اثنين كان يجب أن يكونا أصدقاء.. خسرت فرصة إعجازية للنوم مع امرأة.. ليست أي امرأة.. النوم معها –رغم أن جسمها أي كلام– يعادل النوم مع جميع نساء الأرض الحيّات، والميتات.

كنت أجد نفسي أحاول الاندماج في علاقات زملائي ببنات قصر ثقافة الطفل.. التحرّك في المساحات الضيقة، المقصية تماماً عن الحفل الحقيقي.. التخبّط بين جدران هامش هزلي، منبوذ بلا رحمة، فرضت عاهاتي المتناسلة طبيعته.. ربما يعطيني ذلك السلوك البائس، أو تلك الفضيحة في الواقع أقرب نقطة يمكن الوصول إليها من الجنة.. التعويض الداعم بإخلاص للفقر، والخسارة عن علاقة لن تحدث بيني، وبين أي فتاة.. فقط سأتخيلها وحدي، وأنا أقف في شباك حجرتي الذي أنظر منه إلى الامتداد السماوي فيما بين العصر، والمغرب.. بالمناسبة يا دكتور ذلك الامتداد لا يشبه إلا سفر لم أحصل عليه، أو جريمة ليس في عماءها ثقب حتى أسقط منه.. كنت أحاول حشر روحي وسطهم كي يكون لي أي منظر، أو أي دور في أي اتجاه.. أتكلم كثيراً، وأضحك على الفارغ، والملآن مثل الأحمق، وأقوم بحركات عبيطة حتى أُبيّن أنني ناصح، وخبيث، وعصري.. كنت أفعل هذا، والخجل واضح جداً عليّ لدرجة أن زملائي الأولاد، وكذلك البنات لاحظوا تلك المسخرة.. لم يكن هناك عندي شيء أدّعي بواسطته أنني كوميدي أكثر من جملة ناقصة، ماسخة، ثقيلة الدم، لا أعرف معناها، ولا أتذكر من أين جئت بها (لو إسرائيل احتلت ليبيا...).. كنت أقولها بصوتٍ عالٍ، وأنا واقف مع زملائي الذين يقفون مع البنات، مخبئاً وجهي من الخجل، ومع ذلك أظل أكررها طوال وقوفنا، كل يوم.. مرة سخر مني زملائي، وأخبروني أن البنات يقلن بأنني الوحيد فيهم الخجول، وأنني لا أجد شيئاً أقوله سوى نصف الجملة البلهاء الشهيرة، التي ليس لها معنى (لو اسرائيل احتلت ليبيا...)، وأنني أقولها

بخوف، وبخدين يكاد الدم ينفجر منهما، بينما أتوارى خلف أي منهم حتى لا تراني الفتيات.. تضايقت جداً يا دكتور، بالطبع لأنني أدرك تماماً أن معهن حق.. كأن فيلم رعب أنت مُجبر على مشاهدة نفسك داخله، وتزداد أحداثه إثارة، ووحشية كلما أدرت وجهك، مدعياً أنه ليس لك علاقة بما يحدث، أو أن ما يجري من حولك ليس مُهماً كما تصوّر لك نفسك.. كل ما كنت فيه – ولازلت يا دكتور – هو تقمّص حالات ليست ملكي.. أدوار لا تناسبني، وشخصيات أريد أن أكونها، ولكنها غير ملائمة للرغبات المُرسلة طوال الوقت من ذاكرتي.. لو أتيحت لي حرية التصرف لتعاملت مع أبي، وأمي – مثلاً – كرجل، وامرأة.. كشخصين فرض القدر أن أعرفهما.. كانت ستتحول كل علاقاتي الفاشلة إلى امتداد لذلك التعامل، الأمر الذي لن يعنيني بعده النجاح والفشل، حيث سيتوقف الأولاد عن أن يكونوا آبائي، وتتوقف البنات عن أن يكن أمهاتي.. ربما.

طبعاً الأمر لم يقتصر في قصر الثقافة بين الأولاد والبنات عند حد الصداقة، وإنما كانت هناك أكثر من علاقة حب بين زملاء لي، وبعض الفتيات.. مرة تشاجر أحدهم مع بنت؛ فأرسلني أنا كي أتوّسط بينهما.. بالتأكيد فرحت كالمعتوه، ويومها ذهبت إلى الحديقة المجاورة للقصر للتحدث مع الفتاة بقلب تختلط فيه دقات السعادة الناجمة عن ثقة زميل فيّ، واعتماده عليّ في موضوع كهذا بدقات الخوف من الفشل الكارثي الذي أعرف أنه يستعد لاستقبال عبطي باعتزاز.. خرجت من بين شفتيّ كلمات، وصدرت انفعالات، وضحكات أتعذّب للغاية كلما تذكرتها يا دكتور.. ربما بعد تلك المقابلة لم تمتنع البنت عن التحدّث مع الزميل الذي أرسلني فحسب، وإنما امتنعت للأبد عن العودة إلى قصر الثقافة.. باختصار كنت أقوم بعكس كل ما يقوم به زملائي مع البنات.. شخصيتي كانت بامتياز ضد القوة، والمرح، والذكاء.. ضد الخروج من حجرتي يا دكتور.

رغماً عني يا دكتور أنني أحمق بهذا الشكل الغبي، المضحك.. لم أختر أن تكون هذه طبيعتي، وليس في يدي أنني غير قادر على تغييرها.. لا أستطيع التخلص من كافة المؤثرات العنيفة التي تسكنني منذ الطفولة، وحتى هذه اللحظة، وتمنعني من أن أكون شخصاً آخراً.. ليس بمقدوري الشفاء من الجروح التي ظلت تُحفر بداخلي على مدار عمري كله، وتقف دائماً بصلابة، وإصرار، وسادية قاتلة بينني، وبين أن أتكلم -أتكلم فقط- مع واحدة مثلما يتكلم الناس مع بعضهم.

لم أخسر النوم معها هي يا دكتور.. خسرت النوم مع جانب محدد منها لا يهم معه إذا كانت امرأة جميلة أم لا، ولا يهم إذا كان ذلك الجانب برّاقاً من الخارج، وخائباً، وعبثياً، ولا معنى له من الداخل.. خسرت دخول الحلم المستحيل الذي يقع في الجبهة المضادة لفشلي في أن يكون لي أصدقاء كأصدقاءها.. في التخلّص ولو مؤقتاً من خسائري المتراكمة في العمل، والعلاقات.. أخذ راحة عابرة، قصيرة من الخوف، والوساوس، والرهاب، وكل ما منعني من الاستمتاع بحياتي، ومن النجاح في مهنتي، وأجبرني على الاكتفاء بالحد الأدنى من المقابل الذي يمكن أن أحصل عليه، وأنا جالس مرعوب من كل شيء في بيتي داخل مدينة إقليمية، لا أفكر سوى في الموت، وفي ما بعد الموت طوال الوقت.. خسرت النوم مع أهم جزء فيها، حيث الصورة النقيضة لمن وضع في مراهقته خططاً غزيرة، فائقة الطموح، والسعادة، وسجّل برامج لا حصر لها عن عالم لم يكتف فحسب بعدم السماح له بالعيش فيه، بل فرض عليه أن يشاهد الآخرين يعيشونه أمام عينيه في كل لحظة.. الآخرون الذين أجمع صورهم من (الفيس بوك).. النوم معها يا دكتور كان يمكنه أن يحد قليلاً من الطاقة المخزية لكتابة الملاحظات التي أدوّنها طوال الوقت لتبرير تحوّل حياتي منذ زمن بعيد إلى مجرد ضرب عشرات.

هامش الرجل الذي ربما يكون طبيباً نفسياً، أو محرراً أدبياً في التسعينيات

نساء (دوريس ليسنج) جميلات، يغفرن لها (الثرثرة)!.

عام 1976، وفي اللحظة التي كان يغني فيها (شفيق جلال) داخل عوّامة (حافية على جسر الذهب) كان هناك شاعر ريفي ينام مع بنت شيوعية في حجرة قاهرية ضيقة، صحفي في جريدة قومية مع مغنية مبتدئة في حمام بار، موظف مع مدرّسة في شقة زوجها الميت، مخرج سينمائي مع ممثل شاب، طالب جامعة مع مومس تحت إشراف قوّادة يونانية، صاحب مقهى مع طفل يُشجع الزمالك، تاجر مخدرات مع راقصة اسكندرانية سيكتشفها المخرج الذي ينام مع الممثل الشاب، مطرب شعبي مع صاحبة شركة سفريات، مجموعة من القطط، والكلاب بجوار فيلا تنام فيها ممثلة مع ضابط ما.

طلب مني مشاهدة أوبريت (اللعبة).. يتابعه على شاشة الكومبيوتر كأنما يسير في جنازة لا يمكن رؤيتها.. يحكي لي عن الصحفي المصري العجوز الذي كان معيداً شاباً بإحدى كليات الفنون.. كان على علاقة قوية بطلابه، واحد منهم طلب منه أن يُحضر امرأة إلى شقته –بما أنه يعيش وحده– مؤكداً على أنه يُشرفه مشاركته فيها.. ترك له الصحفي الشقة، واعتذر عن تلبية الدعوة.. حينما عاد بعد ساعات اكتشف أن الطالب، وصديقته لا يزالا في حجرة النوم.. دخل الحجرة الأخرى حتى لا يزعجهما، وأغلق بابها عليه.. لكنه لسبب ما اضطر للخروج إلى الصالة، فوجد أمامه الطالب عارياً تماماً، وعضوه منتصباً، ملوثاً بالخراء، ويبدو عليه – على الطالب – القرف الهائل.. أخبره بأن بنت الوسخة تبرّزت حينما كان

يعطيه لها من الخلف.. توجه الطالب إلى الحمام، ودخل الصحفي إلى الحجرة ليراها.. تعرف كانت من.. كانت بطلة أوبريت (اللعبة).

بصرف النظر عن صحة الحدوتة.. هكذا خرج من الجنازة لينتقم من الميت.

لا تحتاج حكاياته إلى صراعات سلطة تقليدية كالتي تدور في عالم البورصات، والبنوك، والرهانات، والأسواق التجارية، ومضاربات الأسهم، ومفتشي الشرطة، والمحققين.. هي سوداء بطريقتها.. لا يحتاج أيضاً لتخيل نفسه معاصراً لمحاكم التفتيش، واتهامات الهرطقة، واستبداد رجال الدين، أو بوليس العفة في عهد (ماريا تيريزا) الذي قيل أنها أنشأته بعد معاناتها من خيانات عشيقها (فرازنز الأول)، وكان يراقب ذلك البوليس الإخلاص الزوجي، والنزاهة الجنسية.. كانوا بحسب المرويات ميلشيا تقتحم البيوت، وتتلصص من ثقوب الأبواب، وتكسر أبواب غرف النوم، وتمنع النساء من إظهار كواحلهن، وتفتش الطرود البريدية، والحقائب بحثاً عن كتب، أو صور الرذيلة، وتعتقل كل امرأة تمشي في الشارع وحدها، وتقدمها إلى المحاكمة.. كان سيستمتع، لكن ما لديه الآن يكفيه، ويزيد.

الذين يقتربون مني، ثم يظنون أنهم اقتربوا كأي كفيف يمشي فوق البحر.. الذين يعرفونني، ثم يظنون أنهم عرفوا بقدر التنكر الذي أصفع به كل واحد منهم على مؤخرته الكبيرة.. الذين يشكرون النوم لأنه حوّل اليأس – المتاجرة بانتحار لم ينفذوه بعد – إلى حلم يرون فيه أنفسهم في سباق معي.. في منافسة أجلس داخل المدرج وحدي أتفرج عليها، وأضحك.. أنا مُستخدم العميان، ومُستعمل أصحاب المؤخرات الكبيرة، المتوهجة مع تواصل الصفع.. أنا كابوس النائمين، اليائسين، المتاجرين بالانتحار.. الذين لا تعني الحياة لهم أكثر من إنكار أنني أُملِي عليهم ما

يكتبونه، وما يُفكرون فيه.. أنت تحرز أهدافاً في نفسك يا عدو الآلهة، ولابد أن نفسك تضع لولباً جيداً لأنها لم تحبل حتى الآن.

- لماذا تضعهم في دماغك إذن، وتحرص على أن تأتي بسيرتهم في سياق التحليل النفسي، والعصور الوسطى، وفشخ الفن الروائي؟!

- لأنهم تركوني وحدي، أنظر إلى لوحة المرأة الجميلة، التي تودع الفارس الذاهب إلى الحرب.. كأن الزهور الكثيرة في لوحات القرون الوسطى ستخفف من غربة المقاهي في 2014.

في 24 / 8 / 2013 نشر موقع الحوار المتمدن هذا الخبر:

العثور على نص مسرحي داخل اعتصام رابعة يتخيل حكم المسيحيين لمصر.

> **(كشف المقدم "فريد عبد العزيز" من وحدة مكافحة الشغب، وأحد المشاركين في فض اعتصام رابعة العدوية أن قوات الشرطة عثرت أثناء تمشيط منطقة الاعتصام على كيس بلاستيكي أسود، بداخله مجموعة من الأوراق تبين أنها عبارة عن نص مسرحي يتناول حكم المسيحيين لمصر.. قال المقدم أن المسرحية تتحدث عن مجموعة من القساوسة تأتيهم معونة من أمريكا، وإسرائيل يبنون بها حماماً عمومياً مخصصاً للرجال، والنساء من الأقباط فقط، ثم يعيّنون شيخا أزهريا للإشراف على الحمام، وحفظ الأمن به.. كما جاء في النص فإن القساوسة أصدروا أوامرهم للشيخ بأن عمله لا يقتصر على منع دخول المسيحيين من باب المسيحيات، أو العكس، وإنما الحرص أيضاً على عدم اختلاط أصوات قضاء الحاجة الصادرة من الرجال والنساء، وذلك بإصدار أصوات تشويش كالكح، والتصفيق، والزغرطة، ودب الأرض بالقدمين،**

وهو ما حرص الشيخ الأزهري على تنفيذه.. هذا، ولم يُعرف حتى الآن إذا ما كان هذا النص قد تم تنفيذه فعلا أثناء فترة الاعتصام، أم أنه ظل على الورق فقط).

أنا الذي اخترعت هذا الخبر، وأنا الذي نشرته، وأنا الذي استمتعت بتعليقات، وردود أفعال كل الذين صدّقوه.

لا وجود للتعاقب.. نحن نعيش مراحل الفمية، والشرجية، والقضيبية، والكمون، والتناسلية بتجاور، وتلازم، وتداخل.. نحن نزاوج التثبيت، والنكوص، ونحوّل التطور الجنسي إلى لعبة بنج بونج.

هناك دروع – ليست من القرون الوسطى – تمنع الموت حقاً.

(11)

كنت أذهب أنا، وزملائي في قصر الثقافة دائماً للعب الكرة في شارعٍ خالٍ، يمتد اتساعه بسكينة القصور، والفيلات، والبيوت القديمة.. كأن الماضي المحبوس في تلك الأبنية العتيقة كان يراقب لعبنا الصاخب من الشبابيك المظلمة، ويستعيد طفولته من بين أغصان الشجر العجوز الذي يستند عليها.. ذات يوم ابتعدت الكرة لآخر الشارع؛ فجريت لأحضرها.. وجدت أمام عينيّ شابة في غاية الجمال تقف وراء نافذة شقة بالدور الأرضي لأحد البيوت.. كنت وحدي هناك، وأصحابي يقفون بعيداً ينتظرون عودتي بالكرة، لكنني لم أرجع إليهم.. تركت نفسي متسمراً أمامها، وعادت نسخة زائفة مني بالكرة لتُكمل اللعب.. كانت بيضاء، نحيفة قليلاً، ترتدي جلباباً بيتياً أبيض بحمّالتَين، تبرز من وراءه استدارتان ممتلئتان لثديين بالتأكيد أبيضين جداً، وبالتأكيد تتناثر فيهما الخطوط، والبقع الحمراء وقت هياجها.. ذراعاها مصباحا نيون طريان، مشدودان بنعومة، مع شعر أسود فاحم، ملموم وراء رأسها برقة.. زاد وجودها على هذا النحو من إحساسي بأن ذلك الشارع هو شاطيء بحر في حقيقته، حتى لو لم يكن النيل يمر أمامه فعلاً.. بحر مسالم، أو يختزن وحشيته ليعيش ذكرياتها في عزلة خاصة.. شعرت يا دكتور لحظتها بما جرّبه (الشيخ حسني)، وحكاه لرفاق قعدة الحشيش في (الكيت كات) عن المرأة الجميلة التي (بحلق) فيها، وهي تنزل البحر، وتركته أعمى.. كأن تلك الشابة لم تكن تطل من نافذة بيت قديم، وإنما من التاريخ الذي خلق الشارع نفسه.. الشارع الذي أجبره الزمن على الانكماش، والانزواء بعيداً عن مدينة لم يعد هناك سبيل للانتماء إلى صورتها الجديدة، أو للانسجام مع تحولاتها.. هذا الجمال الفرنسي الباهر في ذلك المكان تحديداً، وقبل الغروب بالذات، والذي يذّكرك

بـ Amelie Jolie فهي تشبهها كثيراً – ابحث على الانترنت عنها أيضاً يا دكتور – يجعل من الماضي أسطورة منغّمة تواصل الحياة.. نظرت لي يا دكتور، ولم تتغير ملامح وجهها.. ظلت محايدة، دون تجهم، أو ابتسام.. أنا الذي رأيت فراشات براقة تطير حولها.. ليست هناك مشكلة أن تقف بذراعين عاريين في نافذة تطل على شارع نادراً ما يمر منه أحد، وأمام صبي صغير مهموم فقط بلعب الكرة حتى لو طال تحديقه فيها قليلاً، أو بدأ يتعمد ضرب الكرة حتى تندفع بعيداً؛ فيجري ليحضرها مرة وراء المرة، وتأخذ عيناه جرعات غير مشبعة من جمالها.. كانت في بداية العشرينيات تقريباً يا دكتور، ولو كنت أستطيع أن ألتقط صورة لها في ذلك الوقت كان من الوارد جداً أن تظهر فيها كراقصة فلامنكو داخل سحابة بدلاً من وقوفها في النافذة.. الشارع تحوّل إلى ممر هوائي يا دكتور، يمكنك أن تستدعي فيه كل الحكايات الخيالية التي تعرفها، والتي لا تعرفها، وتتنقل بواسطتها عبر الزمن كطائر مسحور.. الهياج الذي شعرت به يا دكتور كان يشمل كل ذرة في جسمها، ولكن –أيضاً– كان الافتتان الأعظم بوجهها، وشعرها أكثر من ثدييها، وذراعيها.. لم يكن هناك أي انفعال في عينيها.. نظرتها كانت ثاقبة للغاية، وهي تنظر لي.. كأنها تدرك – دون اهتمام – مدى جمالها، ومدى تأثيره خاصة على ولد مثلي.. ظللت شهوراً على هذا الحال يا دكتور.. أضرب الكرة حتى نافذتها، أحياناً لا أجدها، وأحياناً لا تلبس الجلباب ذا الحمّالتين.. أحيانا كنت أظن أنها غير حقيقية، وأنها من صنع خيالي عندما أرى نافذتها مغلقة، وأحياناً أيضاً أتصور ذلك كلما رأيتها واقفة فيها.. لا أعرف لماذا شعرت أنها أصبحت تتعمد الوجود في النافذة من أجلي، وأنها لو ارتدت الجلباب ذا الحمّالتين فإنها ترتديه من أجل عينيّ.. وصل الأمر لدرجة أنني تخيلت أنها ستسأل أصحابي عني لو تغيبت يوماً عن الذهاب معهم للعب الكرة في الشارع.. كانت هناك أحياناً خيبة أمل في نظراتها يا دكتور.. كأنها واحدة من بطلات الملاحم

الأسيرات، اللاتي ينتظرن بالدموع، والسهر بطلاً مخلّصاً سيحررهن من سجن شاهق، أو متوارٍ تحت الأرض.. فاكر حضرتك ما ذكرته لك عن (الجمال الثمانيني المنقرض).. هذه الشابة من الجائز أن تصلح كمثال قوي له.. الرقة التي تدفئك، وتترك لك قدراً من البرودة الخفيفة، المتراقصة بحسب احتياجك تحت غطاء ثقيل في الشتاء، بينما تفرك قدميك بالتناغم مع صوت المطر.. الأحلام البيضاء، وشبقها السري.. الارتواء المحبوس في النظام، والنمط، والانفلات الماكر، التلقائي.. كان جمال هذه الشابة أيضاً يا دكتور يقاوم كل ما يريد إثباته.. يجابه الماضي، والتاريخ، والأساطير، والفراشات، والطيران، والسحب، والحكايات الخيالية، والسحر، والشهوة، والملاحم، والرقة، والدفء، والشتاء، والمطر، والأحلام، والحياة، والموت.. كان جمالها يتحدى، ويفكك كل يقين عن الجمال نفسه.

هل تصدّق يا دكتور أنني منعزل، وفاقد الصلة حتى بالكرنفالات القريبة، المتواصلة حول زنزانتي داخل حدود المدينة الصغيرة التي أموت فيها.. منقطع تماماً عن عوالم الدعارة، ومعتنقي الديانات الغامضة، والأفراح الشعبية، والمخدرات، والجنس الجماعي، والتبادل، والمحارم، والمشتغلين بالراب، والمكتبات الخاصة، والنوادي الاجتماعية، وحكايات السياسيين، والمحامين، والعائلات المعروفة، والكائنات الفضائية، والحيوانات الغريبة، وعن أجواء، وأماكن الترفيه الشبابي، وعن دوائر المتعة السرية بين طلبة الثانوي، والجامعة، وربات البيوت، والممرضات، وموظفات الحكومة، وأصحاب المحلات الشهيرة، والشيوخ، ومراسلي الصحف، والمواقع.. عاجز عن الوصول حتى إلى الخزائن البشرية، المجهولة التي لا تعني الحياة بالنسبة لها سوى جمع معلومات، وذكريات الهامش، والقاع، وما تحت الأرض حفاظاً على تاريخ الظلام من الضياع.

كنا نعد في قصر الثقافة مجلة، وملخصات للكتب، وكان لكل واحد منا داخل المكتبة يا دكتور ملفاً يحوي العمل الذي أنجزه.. ذات يوم فتحت ملفّي فوجدت بداخله كارت عليه رجل، وامرأة يحتضنان بعضهما، وفي ظهره رسالة عاطفية من بنت تقول أنها تحبني جداً، وأنها تتمنى أن تقابلني، وأن تعيش معي حتى آخر العمر.. لم تقل من هي، ولم تحدد كيف أقابلها، ولكنها كتبت في السطر الأخير (عشيقتك) كتوقيع.. لا تتخيل فرحتي يا دكتور.. شعرت أنني وُلدت حقاً من جديد، وأن اليوم هو أسعد أيام حياتي.. شعرت بالزهو يغمرني، وبإحساس قوي يملأني بالثقة المطرزة بالاعتزاز.. شعرت أنني أجمل، وأهم ولد في العالم.. أسرعت بالكارت لزملائي، وبدأوا يفكرون معي في من تكون تلك البنت التي أرسلته.. كان الشك يحوم حول فتاة ليست شديدة الجمال، وكانت تنظر لي كثيراً، وتتواجد دائماً في كل الأماكن التي أذهب إليها داخل القصر، وخارجه كأنها تسير ورائي.. في نفس الوقت لم تكن هذه البنت ضمن شلة الفتيات اللاتي يصاحبن زملائي.. كانت أغلب الوقت وحدها، أو معها صديقة، أو اثنتين.. أريت الكارت لأمي، وأختي حتى تشاركاني الفرح العارم، ولكن طبعاً كانت استجابتهما في منتهى الغباء، وتكلمتا كثيراً، وبصوتٍ عالٍ، وغاضب عن قلة الأدب، والمسخرة، والأطفال عديمة التربية.. رغم ضيقي منهما ظللت سعيداً، وأفكر في الفتاة المجهولة التي تحبني.. قلت في نفسي أنها بالطبع خافت أن تكتب اسمها لأنها لا تضمن رد فعلي، حيث ربما تصورت أنني من الممكن أن أفضحها، أو أسخر منها.. كان هذا هو المبرر الذي لم أتوقف عن ترديده يا دكتور بل تطوّر إلى يقين بأنها تعتمد على فطنتي في التعرّف عليها.. بعد فترة وجدت في ملفي كارت آخر، وفيه نفس الكلام، ولكن بأسلوب مختلف مع نفس التوقيع.. طبعاً خلال الزمن الفاصل بين الكارتين أصبح ذلك الملف أهم شيء في حياتي، وصرت أجري عليه يومياً بمجرد دخولي المكتبة، وأودّعه في المساء عند خروجي

منها كأنني أصلي له، وأدعوه، وأشكره.. الشك الذي كان يحوم حول البنت التي قلت لك أنها تتبعني بدأ يزول تدريجياً يا دكتور لأنني اكتشفت مع زملائي أنها تنظر لجميع الأولاد، وأنها تتواجد بالقرب منا كشلّة، وليس بالقرب مني تحديداً.. كنت كالمجنون؛ أريد أن أعرف من هي، ولم أترك فتاة في القصر إلا وحاولت أن أعرف بمراقبتها سراً إذا كانت هي أم لا.. حينما تغلّب اليأس عليّ يا دكتور؛ أنقذني منه أحد زملائي الذي أخبرني بأن الذي أرسل الكارتين ولد آخر من مجموعتنا.. طبعاً، وبالتأكيد يا دكتور لو ذهب الكارتان لأحد آخر غيري من أولاد القصر لعرف على الفور، وبدون تفكير، أنه مقلب، ولقام برد الفعل المناسب الذي يحفظ له شخصيته القوية، المرحة، والذكية.. تعرف لماذا يا دكتور.. لأن أي واحد من زملائي لا يحتاج أن ترسل بنت له كارت، أو خطاب لأنه ببساطة يصاحبهن جميعاً، ويمشي معهن، ويقدر أن يأخذ أي فتاة، أو أن تأخذه هي في أي جانب كي يتحدثا مع بعضهما بمنتهى البساطة.. حتى البنات اللاتي لا يصاحبن يمكنهن بواسطة موقف صغير، وعابر، أو ابتسامة، أو ضحكة داخل المكتبة، أو المرسم، أو حجرة الألعاب أن يتبادلن كلمات قليلة مع الأولاد ستتحول بعد فترة قصيرة إلى موضوعات، وحوارات، وصداقة.. يمكن لهن أيضاً أن يصاحبن الفتيات اللاتي يصاحبن الأولاد، ومن خلالهن، وبالتدريج يصبحن صديقات لهم.. يمكن لأي أحد أن يصبح صديقاً لأي أحد عدا أنا يا دكتور.. أنا الذي حلّقت في السماء من السعادة بسبب الكارت الأول، وحلّقت وراء السماء بسبب الكارت الثاني، ثم وقعت من هناك على الأرض عندما عرفت أن ولداً من الشلة هو الذي أرسلهما.. كأن من أرسلت الكارتين ليست بنتاً واحدة، وإنما كل فتيات، ونساء العالم، وأولهن أمي بالطبع.. كأنني كنت قادراً بواسطة هذين الكارتين على الانتقام من كل أولاد، ورجال العالم، وأولهم أبي بالطبع.. كان زميلي يعرف من الذي دبّر هذه الخدعة، لكنه بالطبع لم يكن ممكناً أن يقول.. ظلوا

يشاهدونني، وأنا في قمة النشوة أبحث عن البنت التي أحبتني.. أشفقت على نفسي جداً يا دكتور، وبصعوبة بالغة أجبرت روحي على نسيان الموضوع، وأقسمت ألا أقف مع زملائي أثناء وجود البنات معهم، ولم أحاول معرفة من هو ذلك الولد لأن تلك الاشتغالة كانت في استطاعة أي واحد منهم، دون أن يظهر عليه أثر، كما أنني كنت متأكداً من أنه لم يكن ولداً واحداً، وإنما كان هناك اتفاق بين أكثر من ولد، وربما بينهم جميعاً.. هل من الممكن أن زميلي كان مخطئاً يا دكتور؟.. هل من الممكن أنه كانت هناك بالفعل فتاة تحبني وقتها، وأنني لم أكن منتبهاً؟.. من كانت يا دكتور؟.. أنت ابن عرص، وغير نافع يا دكتور.. على فكرة أنا لازلت محتفظاً بالكارتين حتى الآن.

في صباح اليوم التالي استيقظت من النوم مهموماً، ومنكسراً، وكارهاً، وناقماً على الحياة، والبشر.. أحاول أن أمارس الروتين البائس لحياتي التقليدية، المملة، والمنطفأة، متوسلاً لذاكرتي أن ترحمني، وتمحو أفكاري، ومشاعري تجاه ما حدث بالأمس.. أن تخفف قليلاً من تعذيبي المتواصل لنفسي، ولومي، وتعنيفي على ما كان يجب أن أفعله أمس، ولم أقدر.. كيف غاب عن بالي أنها تريدني أن أنام معها؟!.. كيف لم أنتبه لكل الإشارات التي كانت تُبلغني بواسطتها أنها مستعدة لخوض التجربة الليلة؟!.. ولو كنت انتبهت يا دكتور؛ هل كان الأمر سيختلف؟!.. طبعاً لا.. بالعكس.. كانت المصيبة ستزداد فداحة؛ لأن التوتر، والارتباك، وعدم استطاعتي التصرف وقتها كان سيصل إلي أبعد مدى له.. لا أعرف، ولا أريد أن أعرف ماذا كنت سأفعل لحظتها يا دكتور لو كنت انتبهت، ونحن جالسان في (الكافيه) لكل هذا.. كل ما أنا متأكد منه أن النتيجة كانت ستكون أشد خراءاً على دماغي.. هل كان من الوارد أن أُسرع بالجري هرباً من أمامها، وأنا في قمة الفزع.. تخيّل يا دكتور أنني شكرت القدر الذي منعني من الانتباه للإغراء في المقابلة لأنه وفّر عليّ ذكرى أشد إيلاماً؟!.

مرة ذهبنا في رحلة إلى القاهرة.. كل الأولاد، والبنات، وأيضاً بعض من إخوة، وأقارب، وأصدقاء الأعضاء.. قبل تحرّك الأتوبيس كان جميع زملائي قد صاروا أصحاباً لكل البنات شقيقات، وقريبات، وصديقات فتيات القصر.. في طريق العودة حدث موقف لا يمكن أن أنساه أبداً يا دكتور.. وقف الأتوبيس لأخذ استراحة.. كنت أتحدث مع زميلي الجالس بجانبي، وفجأة وجدته ينادي على واحدة من البنات اللاتي صاحبها خلال الرحلة.. كان الكرسي الذي بجوارها خالياً؛ فسألها بتهكم، وهو يشير عليّ (تاخدي ده يقعد جنبك).. ضحكت البنت، بينما ابتسمت أنا ببلاهة كالمعتاد، راغباً بشدة في خنق زميلي، والرعب من إجابتها المنتظرة يقتلني.. ضحكت الفتاة – كانت جميلة، وشعرها أصفر، وعيناها خضراوين – ثم قالت له (لأ.. شكله وحش).

كان يجب على الأقل، على الأقل ألا تترك الجملة تنتهي هكذا.. كان ينبغي أن تضع (بالنسبة لي) كختام مثلما فعلت (ماريا خوسيه) في (العالم) حينما قالت لـ (خوان مياس): (أنت غير جذاب بالنسبة لي)؛ فأمكن له أن يضع فاصلة أنقذته من الانتحار بين (أنت غير جذاب)، و(بالنسبة لي).

أدرات وجهها إلى الناحية الأخرى، وهي تُكمل ضحكتها، تاركة زميلي يقهقه بهيستيريا محدّقاً في وجهي.. تحوّلت ابتسامتي البلهاء إلى ضحكة معتوهة، خافتة، مفتعلة تحت تأثير الصدمة لمنع بكائي من الخروج.. كانت في ضحكة زميلي شيء ضعيف، مختبئ، لكنني التقطته.. إحساس بالشفقة تجاهي.. ربما في هذا اليوم تأكدت من أنني لست جميلاً، ولا حتى عادياً.. لكنه ليس التأكد الذي سأظل مهموماً به، وخاضعاً لعذابه طوال الوقت.. ربما لأنني كنت أُبعد نفسي دائماً عن المواقف التي تُشعرني، أو تذكّرني بذلك.. أقصد طبعاً التقرّب من البنات، أو محاولة نسج أي حوار مهما كان محدوداً معهن.. بالتأكيد حينما كبرت يا دكتور صار هذا

الموضوع أكثر التصاقاً بتفكيري، وأصبحت أكثر يقيناً بأنني لست من فئة الرجال التي من الممكن أن تنجذب امرأة لشكلهم، بل بالعكس فإن شكلي يُعد سبباً وجيهاً للابتعاد عني، أو على الأقل عدم إطالة الحديث معي لو تصادف، وأُجبِرَت واحدة على محادثتي لأي سبب.. حتماً أصبحت المأساة أشد فظاعة يا دكتور.. كأنه لا يكفيني خجلي، بل كان ينقصني أيضاً ملامحي حتى تكتمل الإعاقة.

هامش الرجل الذي ربما يكون طبيباً نفسياً، أو ممثلاً كوميدياً

أنا فلاح العصور الوسطى الذي يعيش في كوخ فقير، وينام على كيس مملوء بالقش، ويأكل الخبز الأسمر، والبيض، والدواجن، والخضراوات، لا يشتري اللحم إلا نادراً، ويستمني كل ليلة على نساء السيد صاحب الأرض، والحيوانات، والطيور.. الذي سيكتب ذات يوم –دون الاستعانة بأي ذاكرة– تفاصيل أول ثلاث سنوات من حياته (طفولته الأولى) متلمساً بداياته (الأوديبية).. سيحصل على أقصى قدر من المتعة الشهوانية التي دائماً ما تتملكه كلما نظر إلى نفسه، وهو يطلب من أمه الواقفة أن تحمله إلى حضنها داخل حجرة الطعام، بينما إخوته الجالسين على الطاولة يراقبون المشهد.

هذه روايتي الثالثة، وللمرة الثالثة أحاول – بطريقتي – أن أشكّل الرواية على إيقاع (الجاز).. جربت هذا في (سوبر ماريو)، وفي (خلق الموتى) حتى أن أحد وجوه شخصية رئيسية فيها – لو أمكن التغاضي مؤقتاً عن الحماقة الكامنة في تعبير " شخصية رئيسية " – كان (عازف ترومبيت).. انعدام الحديث عن ملامح عمله كعضو بفريق (جاز) في الرواية – إضافة لدلائل أخرى – كان دافعاً عند القراء بشكل عام للتأكد من أنها مهنة وهمية، ومتخيلة.. حلم.. أمنية، لكنني ربما أجد الآن فرصة مثالية للتركيز العابر على أن إيقاع الرواية الذي يماثل إيقاع الجاز أفضل دليل على قوة الأمنية – لن تصبح أمنية فحسب مع هذا الاكتشاف الذي لم ينتبه إليه أحد لدى شخصية استبدلت الكلام عن الجاز بتنفيذه فعلياً.. الفكرة الشكلية لموسيقى الجاز –وهو عنوان مقال لـ (هيدن كاروث)– في (خلق الموتى) لم تعد مجرد هيكل كتابي أو موسيقي، بل أصبحت حياة، وموت.. لكن لماذا يكون تركيزي عابراً على تلك النقطة؟!.. لماذا لا أسترسل قليلاً في

الشرح مستعيناً بمقال (هيدن كاروث): (كلنا يعلم أن مؤدي الجاز عادة لا يضربون النوتة بقوة، ولكنهم ينسلّون إليها من الأعلى، أو من الأسفل، ونفس الطريق عند تلاشي النغمة، فالانزلاق، والانسلال، وعدم البراعة المقصود، والخشونة أيضاً جليّة في الأداء).. (فكرة الجاز هي الارتجال العفوي في قالب بسيط، ومحدد).. إيقاع الجاز في (الفشل في النوم مع السيدة نون) هو الفكرة الشكلية للجنس، وبصرف النظر عن الرواية نفسها فأداء الجاز -عندي- أقرب الأشكال الموسيقية للمضاجعة.. الكتابة بهذه الكيفية تتفحص الأثر المهيمن، والكُلي للشهوة عبر ألاعيب، وتقاطعات الوجود الخاص بواسطة توحد، وتقمص اللغة للهويات المتأرجحة، العنيفة للجسد.. كأنها تؤمن – بطريقتها أيضاً، ومثلما يتم التعبير عن روح الجاز- بأن (التحرر والانضباط يلتقيان في النشوة فقط).

ما أجمل الترهيب الديني الذي كانت تزرع به لوحات القرون الوسطى الخوف في قلوب البشر.

هل تحوّلت العادة السرية فعلاً في عهد (السادات) إلى (عادة قومية) مثلما جاء على قلم صحفي إسرائيلي؟!.. لا أضع علامتي الاستفهام، والتعجب انتظاراً لإجابة، وإنما كحافز لاكتشاف الأسئلة الأخرى التي يُلقي السؤال ظله عليها.. مثلاً: هل تحوّلت العادة السرية في عهد (مبارك) إلى لغة رسمية للخطاب اليومي المعلن؟! وهل كانت في عهد (عبد الناصر) سردية بادئة التكوين ستشهد كلوتات المعتقلين، وحمامات السجون الاشتراكية ظهورها الأول؟!.. هل تحوّلت في عهد (استبن الأهل، والعشيرة) إلى نَفَس يدخل، ونَفَس يَخرج؟!.

(الموناليزا) هي زوجة تاجر الحرير، وامرأة شهيرة من المجتمع الإيطالي، وفتاة ليل، وأم (ليوناردو دا فينشي)، وهي (دا فينشي) نفسه، وهي ذلك الذي يجلس أمامي الآن، ويخاف من النظر إلى (الموناليزا)، ويُبهجه أن

يحكي لي وقائع طفولته، وتجربته مع السيدة نون.. هي أنا كرجلٍ ربما يكون طبيباً نفسياً.

منذ عشرة أعوام تقريباً.. مرتان، أو ثلاثة كل سنة؛ أسمع، وأقرأ هذه الكلمات بصيغ مختلفة: (أنت مختلف.. لا أحد يكتب مثلك.. نصوصك تجعل من كتابات الآخرين متشابهة، بينما تقف وحدك في منطقة لا يصل إليها غيرك، الفرق بينك، وبينهم أنهم قريبون دوماً من أماكن التصوير، بل مقيمين فيها، بينما أنت بعيد).. أسمعها من قرّاء بالصدفة على مقهى، أو في ندوة، أو داخل مكتبة، وأقرأها عبر رسائل البريد الإلكتروني، وبريد (الفيس البوك)، وتعليقات المواقع، والمنتديات التي أنشر بها.. أحياناً تأتيني بنبرة إدانة تصل حد الذهول، والغيظ لكوني (بعيد).. كل ما أشعر أحياناً أنه ينقصني، وأنني في أشد الاحتياج إليه يختفي، ويضيع تماماً في هاتين المرتين، أو الثلاثة من كل سنة.. كل شيء عدا تلك الكلمات يصير خائباً، ورخيصاً، وتافهاً.. أشكركم كثيراً.. أنا أعرف جيداً أن معكم كل الحق.

لابد أن أترك فوضى ما.. خلل في نظام، وعيب في تنسيق.. ليس عن قصد، وإنما عن تكاسل هو في حقيقته تعمّد لإفساد رونق لا يكتمل إلا بثغرة هنا، أو هناك.. استجابة تلقائية لرغبة ثابتة في التشويه، وفي عدم الإكمال النموذجي.. كم كتاب، وكم غلاف كتاب، وكم مدونة، وموقع، وصفحة انترنت أهملت جرحاً في الجمال الظاهري لخروجهم إلى العالم، أو ربما تغاضيت عن قبح أكيد، وواضح، وشامل في بعض الأحيان.. كم مرآة حرصت – بديهياً – على أن تظل مجروحة، وملوثة.. أمينة في تمرير نسخة من وجهي تعيش في مخزن الأنقاض، المعروف باللاوعي، أو على الأقل مخلصة في قذف لطشات من روحها على جدرانكم.

أنا راقصة استربتيز لم تمتلك يوماً مزيلاً لرائحة العيون.

(12)

قد تكون أنت غير موجود يا دكتور.. ربما تشعر أيضاً أنك تتوهم حضوري.. ليس هناك ترابط يمكن أن يصل بأي منا إلى التأكد من أن الآخر أمامه في هذه اللحظة.. الأفكار الخاطئة صحيحة جداً، وكافة المعتقدات الغريبة لا سبيل للتشكيك فيها.. لا بأس لو كان هناك ثالثاً ما يتحكم في وجودنا، أو في أوهام وجودنا بمعنى أدق.. يقرأ أفكارنا، ويزرع أفكاراً جديدة، ويقودنا نحو الشكل الأكثر ملائمة من العاطفة.. أن نضع الانفعال في الحدث الذي يناقضه.. متى نصل إلى اللامبالاة الكاملة يا دكتور؟!.. صدقني أنا أراهم جميعا.. ليس في كل الأوقات، ولكنهم بارعون في اختيار اللحظات المناسبة للظهور أمامي.. يتحدثون معي دون صوت، أو بصوت لا يمكنني سماعه، ولكن الرسائل التي يبعثون بها واضحة تماماً في إخفاءها لحقيقة الموت الذي يتوارون فيه الآن.. هل عرفت لماذا أقول أحياناً فجأة كلاماً مبهماً أغلبه شتائم، ولا تفسير له، كأنني أخاطب مخلوقات غير مرئية، ولماذا تتشكل ملامحي بانطباعات لن تُبرر أبداً، كأنني أستجيب لأوامر ملغزة، قامت بتعيين جبروتها كإرادة شخصية انتزعتني خارج لغة الناس من حولي؛ فصرت لا أعرف أي لفظ يقود إلى أي مدلول؟!.

تذكرت شيئاً مهماً جداً الآن يا دكتور.. لا أعرف كيف نسيت أن أخبرك به.. أثناء لقاءنا، أخرجت السيدة نون من حقيبتها دفتراً ورقياً كبيراً يبدو مخصصاً لتدوين الأفكار، والملاحظات، والتنبيهات.. كتبت كلمات قليلة لا أظن أنها تجاوزت السطر الواحد.. هل كانت تخصني.. هل كانت تسجّل فكرة نص ستكتبه عن (حالتي)، أم أن تلك الكلمات كانت تذكيراً مترافقاً مع

لعن، وسب لنفسها بأن تقطع صلتها بي، ولم تستطع الاحتفاظ به داخلها؛ فقررت أن تكتبه تفادياً لجلطة منطقية.. لن يمكنني تصور أن ما كتبته بسرعة داخل هذا الدفتر يا دكتور لا علاقة له بي.. بمصيبتي السوداء تحديداً.

حينما كنت صغيراً لم أضع موضوع أنفي في ذهني، لأنني لم أكن منتبهاً للفرق بين أنفي، وبين أنف أي أحد آخر.. حتى بعد موقف الفتاة في الأتوبيس يوم الرحلة اعتبرت كلامها عن شكلي القبيح كلاماً عاماً يا دكتور، ليس المقصود به أنفي تحديداً إلا أن بدأ زملاء الإعدادي يعايرونني به؛ فاكتشفت فعلاً أن أنفي لا يشبه أنف أي أحد سوى السود، رغم أنني لست أسمراً حتى.. كل أنوف العالم من حولي في كل مكان – حتى بعدما كبرت، وإلى هذه اللحظة يا دكتور– تشبه بعضها بشكل أو بآخر عدا أنفي.. لا يوجد أنف مثله.. كأن قدم رضيع تم قطعها، وخرم ثقبين واسعين فيها، ثم أُلصقت بوجهي.. طبعاً عرفت فيما بعد أن لوالدي أصول إفريقية لم أهتم صراحة بتتبعها لأن كل ما استحوذ على تفكيري هو أنني ورثت عنه أنفاً إفريقياً نادراً، كبيراً، غليظاً، ومفلطحاً.. يأكل النظر من الوهلة الأولى، ومثير للاستغراب، والتعاطف، والسخرية في وقت واحد.. أما الغريب يا دكتور أنني لم أرث أنف أبي الضخم فحسب، ولكنني – بعد تكذيب طويل لنفسي – أيقنت من أنني ورثت أنفاً أكبر من أنفه، وبتأكيد الجميع.

نسيت أقول لحضرتك أنني كنت أراسل فتاة من ألمانيا في إعدادي.. كانت المراسلة موضة بين الأولاد أيامها، وكانت هناك مؤسسة في (فنلندا) على ما أذكر تتولى تشييد تلك الجسور بين شباب العالم.. أنا، وكثير من أصحابي كنا نراسل فتيات من جنسيات مختلفة، وكانت البنت التي تخصني ألمانية تُدعى (سيبللي موللر).. ظللنا مدة طويلة نتبادل الخطابات

بالإنجليزية، وكانت جميلة، ورقيقة، عرفت هذا حينما أرسلت لي صورتها أمام بيتها، والثلج حولها في كل مكان.. كانت ترسم لي قلوباً تخترقها أسهم مثل العشّاق، وكنت أفرح جداً، لدرجة أنني أصبحت أفكّر فيها مع سماع الأغاني العاطفية التي بدأت في الهوس بها خلال تلك الفترة.. أتذكر أن أكثر أغنية كنت أُفكر في (سيبللي) وأنا أسمعها كانت (إكمني) لـ (إيهاب توفيق).. أخبرتني أنها مطربة بفرقة موسيقية تتجول في أوروبا، لكنني حينما سألتها عن المهنة التي تتمنى أن تعمل بها في المستقبل كتبت كلمة ظللت أبحث عن معناها في القاموس حتى عرفت أنها تعني (شمّاسة).. المهم تحججت مدة طويلة بأعذار مختلفة كي لا أرسل لها صورتي، لكنني في النهاية أرسلتها؛ فانقطعت خطاباتها تماماً.. كنت متأكداً من هذه النتيجة يا دكتور، ويمكنك القول أن كل موقف من حياتي، وأنا صغير كان يزيد بالتدريج من إيماني بحقيقة شكلي الطارد للبنات، والمدعوم طبعاً بارتباكي، وحماقتي في مواجهتهن.

في صباح اليوم التالي وجدتها تتصل بي.. رددت عليها، والجبل الذي يرتاح على صدري يزداد تحجّراً، وارتفاعاً.. قالت لي أنها موجودة في صالة الفندق التي كانت به أمس، وأن معها نسخة من ديوانها الصادر حديثاً لو أحببت المجيء لأخذها.. نسيت أنني طلبت منها نسخة من الديوان ونحن في (الكافيه).. لم يكن أمامي سوى أن أخبرها بأنني قادم لأخذ النسخة.. أيضاً لم يكن ينفع الاعتذار يا دكتور، أو التحجج بأي حجة.. بخلاف أنني لم أكن أريد مضايقتها، أو إحراجها، وغير أن الكذب سيظهر بوضوح في صوتي – عمري ما فلحت في التمثيل، وكل الناس تكشفني بسهولة – لكن في نفس الوقت أيضاً لم أكن أريد وضع نقطة ختام لما حدث أمس – أو لما لم يحدث تحديداً – بهذا الشكل.. لم أرغب في الاعتراف عملياً – ولو أنها مسألة لا تنتظر الاعتراف – بأن كل شيء أصبح خراباً كالمعتاد، وأنه من الأفضل أن أظل في مكاني متدثراً بخيبتي.. رغم أنني أدرك بأن ذهابي

إليها حتى أحصل على نسخة الديوان سيضيف فقرة جديدة من سِجل المأساة التي ستظل ملتصقة بذاكرتي، ولن تُمحى أبداً.. لكنني قررت أن أذهب يا دكتور كي لا أبدو أمام نفسي، وأمامها كأنني أعلن بأننا أخذنا كفايتنا من مهزلة الأمس، ولا داعي لاستمرارها ولو بلقاءٍ قصيرٍ آخر.

الآثار تتراكم.. هذا صحيح.. لكن بشكل أقوى فكل أثر يترك هامشاً خبيثاً كخرم إبرة يسمى الاستمرار في الحياة.. هامش وثيق الصلة بالموت، وبحقيقة أن كل أثر لا يقتل فوراً هو أداة ناجحة للجريمة الكاملة التي لا يجب أن تنتهي سريعاً.. خرم إبرة يزرع في داخلك معرفة مخادعة بأن الأثر غير مغلق على شر كلي بل لديه في الداخل قليل من التفهم.. من المساندة.. من العماء المحايد على أقل تقدير.. ذلك الهامش ربما يكون هو المسؤل عن إعادة تعديل الوجوه، والأحداث، والمشاعر بإصرار لا يتعطل.. الخيط الذي يمر بكل خرم إبرة داخل الأثر هو العالم الذي لم يحدث.. الذي لا يجب أن تسأل أحد، أو يسألك أحد عنه.. يكفي أنه لا يجعل الآثار تكتفي بالتراكم فحسب بل يزيفها أيضاً.. يخلق حروباً بين كل زيف، وآخر، حتى تستمتع بأنك لم تمت بعد.

كل بنت أحببتها يا دكتور - وليست النساء اللاتي تمنيت النوم معهن- كنت أتخيل - خاصة قبل النوم- أنني أتحسس وجهها في حديقة، أو نجري وراء بعضنا بين الأشجار، أو الزهور، أو نشبك أصابعنا، ونحن نسير على البحر.. كنت أضع نفسي مع الفتاة التي أحبها في كل مشهد رومانسي من فيلم، أو فيديو كليب، وكنت أنا، وهي نتحرك أيضاً بالتصوير البطيء مع موسيقى حالمة، أو أغنية مثل كل العشاق الذين يظهرون في التليفزيون والسينما، وبالطبع كان تفكيري حذراً جداً في تخيل القبلات التي كنت أراها في الأفلام.. كان هناك قهر يصنّف القبلات كشأن يخص الكبار، وبالتالي يصبح إثماً بالنسبة للصغار.. لم يكن هناك ما يعطّل السلطة

الأخلاقية للأسرة، والمدرسة، والجامع.. الحلال والحرام يرتاح ثقلهما المخيف في الرأس والقلب، وتحفر ضرياتهما جروحاً (عادلة) في الروح.. أثناء الوحدة، وداخل الليل قبل النوم خاصةً.

قلت لزوجتي أن ترتدي ملابس الخروج.. كان لابد أن آخذها معي يا دكتور لأنه كما سبق وأخبرتك أن الفندق في مكان يبعد عن المناطق التي يوجد فيها من يعرفونني، والذين يمكن لأحدهم أن يأتيني بسرعة لو شعرت بتعب.. كان الجو حاراً جداً كذلك مما يزيد من قوة احتمال التعرض لمكروه.. قلت لزوجتي أنني سأدخل لإحضار كتاب من صاحب لي جاء من القاهرة أجازة، وسننصرف على الفور.. بالفعل تركت زوجتي خارج الفندق، ودخلت.. وجدتها جالسة مع فنان تشكيلي أعرفه.. كانت ترتدي ملابسها العادية المعتادة، التي تناقض الإبهار الأنثوي الذي حاولت أن تسحرني به أمس.. دليل قوي آخر يا دكتور، يدعم صحة استنتاجي بأنها كانت مهيأة لاحتمال خوض مغامرة جنسية معي، حتى أنها تخلصت من أدواتها (اللبس، والمكياج) بعدما اصطدمت بالسد الغشيم الذي حال دون تدفق الليلة في مسارها الطبيعي.. صافحتهما كأنني الجرسون الذي يرحب بهما.. رفضت الجلوس، وبدلاً من أن أقول أن معي صديق يقف في الخارج، قلت لها (معلش أصل المدام معايا بره).. غباء لا مثيل له يا دكتور، وحماقة يمكن توزيعها على سكان الأرض، وسكان الكواكب الأخرى، وستفيض.. قرأت في عينيها (هو جايب معاه مراته ليه الأهبل ده؟!).. كان المنظر العام عبارة عن مسخرة حقيقية يا دكتور.. هي جالسة مع فنان تشكيلي يملأ مركزه، وتكتب لي إهداءاً تقليدياً على الديوان، وفي حالة استرخاء كأنها توقّع أوتوجراف لمعجب أزعج استلقاءها بجوار حمام السباحة.. أخذت نسخة الديوان منها، وقبل أن أسألها بتعجَل، وارتباك، ولجلجة (أي أوامر؟) وجدتها تهز رأسها، وتقول لي كأنها تُسرع بإسنادي قبل أن يُغمى عليّ من التوتر (أشوف وشك بخير).. قالتها يا دكتور،

وابتسامتها المبتورة تتساءل من هذا؟!.. ما الذي جعلني أعرفه، أو أكلّمه أو أقابله؟!.. لماذا يبدو هكذا ذلك المسكين، الأبله؟.. قلت (سلامو عليكو)، ومشيت، ثم أخذت زوجتي، وعدنا إلى البيت.. تخيل يا دكتور.. أنا أرتدي ملابس الخروج، وزوجتي ترتدي ملابس الخروج، وتضع المكياج، وخياراً، وخساً للسلحفتين، وتغلق شيش البلكونة، وشبابيك الصالة، والمطبخ، والحمّامين، وحجرتي النوم، وتغلق محبس الغاز، وتخلع فيّش السخّان، والتليفزيون، والريسيفر، وتتأكد من إحكام غلق باب الثلاجة، وتتصل بأمها، وتخبرها أنها ذاهبة لمشوار حتى لا تقلق لو اتصلت، ولم يرد عليها أحد، ثم نفتح باب الشقة، ونقفله بأكثر من مفتاح، وننزل السلالم من الدور السادس حتى الشارع، ونمشي حتى الناصية، وتحرق الشمس رأسينا أثناء وقوفنا الطويل انتظاراً لتاكسي، الذي سيتعطّل بنا أكثر من مرة في الزحمة، والحر الشديد، والضوضاء، ثم أدفع خمس جنيهات، وفي طريق العودة نقف طويلاً من جديد لتحرق الشمس رأسينا، ثم نركب التاكسي، الذي سيتعطّل ثانية أكثر من مرة في الزحمة، والحر الشديد، والضوضاء، ثم أدفع خمس جنيهات أخرى، ونمشي من الناصية حتى بوابة البيت، ونصعد السلالم حتى الدور السادس، ونفتح باب الشقة لندخل بأنفاس مقطوعة، وجسمين مهدودين.. فقط كي أحصل على ديوانها المزيّن بتوقيع سيادتها.. كي أسمع (أشوف وشك بخير).. أنا أستحق هذا فعلاً يا دكتور، ولا أستحق غير ذلك.. زوجتي أيضاً تستحقه لأنها تزوجتني.

هامش الرجل الذي ربما يكون طبيباً نفسياً، أو مخرج أفلام بوليسية، ورعب

يتخيّل حكايات بين الارستقراطيين، والكهنوت، والعمال في العصور الوسطى مستدعياً (حكايات كانتربري) لـ (جفري تشوسر).. يقول أنه لا تكفي رواية واحدة، ولا أكثر من رواية لتناول القرون المظلمة.

أعرف أن عملي يقتضي أن أخترق اللاشعور كي أفضح المكبوت الذي يرفض الاعتراف به.. أن أكشف الأسرار التي يخاف من مواجهتها.. أن أصطاد هفوات، وسقطات لسانه، وأن أتوصل إلى معانٍ لها وفقاً للعوامل، والملابسات التي أدت لحدوثها، ودون التقيد بنقاط استدلال ثابتة.. هفوات، وسقطات لسانه، أم هفوات، وسقطات أزرار اللاب التي أكتب بها الآن.. لاشعوره هو، أم الأحكام اللاواعية التي تسيّرني، وتحدد قدري.. اعترافاته، أم البوح الثقيل، السخيف، غير المبرر، الذي يجب أن أؤديه كعقاب لا أدري على أي ذنب.. دوافعه البدائية، أم غرائزي الجنسية، والعدوانية.. سعيه للتوازن مع النزوات، أم محاولاتي لترويض الذكريات، وحفظ الذات.. أبوه، وأمه، أم الطبيعة السامية للأوامر، والنواهي التي ورثتها عنهما.. من منا الذي يريد أن يضع (الأنا) مكان (الهو)، ويريد أن يعرف ما الشيء الذي يفكر في داخله، ويوجّه أفكاره، وأفعاله، وتخيلاته اللاهية.. في (خلق الموتى) كانت هناك سردية مضادة عن قتل الإبن استخدمتها لقتل الأب، ثم لإعادتهما إلى الحياة في صورة أخرى.. التخلّص بالدعابة من الأبوة، والبنوة معاً فلا أحد منهما يطيق الآخر، وكلاهما يتبادلان دوريهما، ويتصارعان طوال الوقت.. كأنه وجه آخر – هزلي – للذنب الأوديبي عند (ديستوفيسكي) في (الإخوة كرامازوف).. ربما أمي

هي التي كتبت (خلق الموتى)، وتكتب الآن (الفشل في النوم مع السيدة نون) بطريقة ما.

لا تحتاج الحروب، خاصة لو كانت ذات دوافع دينية إلى تبرير، أو تجميل، أو إلى استخدام نُبل الغاية، وروعة المقصد، وسمو الهدف في تحسين الصورة، أو تخفيف البشاعة.. يكفي - فقط - أن يتوقف المتحاربون للحظات قليلة - مجرد لحظات قليلة - وسط الدماء، والرايات، والرموز العقائدية المرفوعة فوق الجثث.. ينظرون فحسب إلى الغيوم الرمادية البديعة، التي تُغطي الزرقة الباهتة للسماء تدريجياً.. يطيرون بعيونهم نحو آماد الغروب الساحرة، الممتدة بلا آخر، والتي تُحاوط السكون، ونسائمه الملتذة من كل اتجاه.. يتأملون رقة هذا المشهد، ثم يعاودون القتال بعد أن حصلوا -عبر تلك اللحظات القليلة- على كل الحق في خوضه.

ما الفرق بين أن يكون لك صاحب واحد، أو عشرة، أو مائة، أو ألف.. في النهاية أنت لست صديقاً لأهل الأرض أجمعين - وهذه مشكلة كبيرة، ورئيسية - ولهذا تحاول دوماً إجبار نفسك على تصديق أن ما بحوزتك من الأصحاب يكفونك تماماً، وأنك لا تحتاج مع وجودهم للمزيد.. يشعرونك أن ما تود الفوز به من مقتنيات الكل قد اجتمع فيهم.. بصرف النظر عن الانتحار الذي تقوم به نتيجة ذلك الإجبار؛ فالعدد ليس مُهماً إذن.. يمكن لصديق واحد أن يؤدي المهمة، مثلما يمكن لعشرة، أو مائة، أو ألف.. أنت وحدك من يجب أن يحدد ما يلزمه من الناس ليشاركك في دراسة النماذج، والأنماط العليا في اللاشعور الجمعي.. الرواسب، والتجارب، والرموز في تاريخ البشرية.. أنت وحدك من يجب أن يحدد من يلزمه من سلالة (كارل يونج) كي تقاتله.

اقتطع جزءاً كبيراً من الجلسة لأشرح له ارتباط الفن بالمعتقد الديني، وبالفلسفة اليونانية في العصور الوسطى، والقصص المسيحية، والأساطير القديمة التي كانت تُرسم على جداريات ضخمة في الكنائس، وعلى أسقف الكاتدرائيات.

الطبقة الوسطى -خاصة في السبعينيات، والثمانينيات- صانعة المستشرقين، وموسى البلياتشو خائن الأمانة الوظيفية، والمرشدة السياحية لكل من فقأ عينيه بإصبعه.. ها أنا أُعمم كابن بار من أبناءها الذين اشتروا العدد 928 من مجلة (ميكي) بتاريخ 1 فبراير 1979 عن (الفضاء)، وحلموا بامتلاك الحذاء السحري الذي اخترعه (عبقرينو) كي يقطعوا 7 أميال بخطوة واحدة، والآن يحكمون العالم.

هل لديك الشجاعة لإيقاف الأمر الآن، والقبول بنزالٍ شريفٍ نخوضه كقوتين متساويتين، أم أنك لازلت مستمتعاً بجُبنك، وخِستك الحقيرة التي وسعت كل شيء؟.. نعم.. أحياناً أفترض أن هناك من تصله تلك الرسائل.

أعترف أنني تعمدت التخفيف بقدر الاستطاعة مما يُمكن أن يُعد بذاءة في لغة هذه الرواية، وذلك لترويض ما أقدر عليه من النفور الأخلاقي لدى نوعية معينة من القراء، والذي قد يُفسد علاقتهم بالرواية فينفصلون عنها كلياً.. يبدو ما أكتبه الآن مضحكاً لي جداً.. أعترف أنني حاولت ذلك أيضاً لإزالة العوائق المحتملة التي قد تمنع بعض دور النشر من نشرها، والتي قد تقف أيضاً عند فئة من محكّمي المسابقات ضد حصولها على جائزة.. ها قد وصل الضحك الآن إلى حالة مشابهة لتلك التي يُسببها لي فيلم (لا تراجع، ولا استسلام "القبضة الدامية").

وسيقتطعون فقرات من الرواية، وينتزعونها من سياق السرد كي يحاولوا استعادة كرامتهم، أو ليحصلوا على كرامة جاهزة مجاناً لكن هيهات!.

قلت له أن أختي التي فقدت أسرتها واحداً تلو الآخر بالتزامن مع تحوّلها من القنوات الإسلامية إلى الدراما التركية ثم الاستقرار حالياً على السينما الهندية كانت تحتاج بالفعل لأن أعطي لها ملحمة (مهابهاراتا) لتتمكن من فهم العقيدة الهندوسية التي تطاردها في الأفلام.. بالتأكيد ذهنها لن يقبل حتى مجرد التصور بأن الإله يتجسد في هيئة ما، وأن أرواح الموتى يُعاد بعثها في أشكال حياة مختلفة، وأنني أبكي كل ليلة –دون أن يعرف أحد– على كل ما جرى لنا.

(13)

في الصف الثاني الإعدادي على ما أذكر كانت معي مجموعة كبيرة من الطلاب الراسبين، الذين يعيدون السنة.. كان معظمهم إن لم يكن جميعهم بالنسبة لولد مثلي بلطجية، وسفلة.. منهم من يشرب السجائر، ومنهم من يحمل مطواة، ومنهم من يُتاجر في المجلات السكس.. كان أحدهم يُحضر المجلات معه إلى الفصل، ويبيع منها أحياناً صوراً منفردة، وأحياناً يعطيها هدايا.. في بعض الأوقات كان يسلّم المجلات، والصور لأولاد في المدرسة كي يبيعوها لحسابه خارجها، ويأخذ كل منهم عمولته.. لم أكن أعرف من أين يأتي بتلك المجلات، لكنني نجحت بمساعدة زميل لم يكن من ضمن الذين يعيدون السنة في الحصول على صورة.. كانت أول صورة سكس أراها في حياتي.. أول امرأة عارية تماماً.. لا يمكنني نسيان هذه الصورة أبداً يا دكتور.. كانت سمراء، ذات ملامح آسيوية، وتمسك بطرفي حزام روب الاستحمام الذي خلعته، وتركته مكوّماً على الأرض وراءها.. قطرات الماء تغطي جسدها، وخصوصاً فوق ثدييها الكبيرين، وشعر عانتها الكثيف.. كان مكتوباً بجوارها Miss April.. وضعت الصورة في حقيبة المدرسة كمن يخفي جثة، وظللت أفكر برعب – رغم السعادة الطاغية – في الكيفية التي سأقدر بها على تشريح هذا الجسم الأسمر، البديع براحتي في البيت.. كانت نفس المشكلة تواجه زميلي الذي ساعدني في الحصول عليها.. اقترح عليّ أن نتفرج على الصورة بعد المدرسة في أي مكان ملائم، حتى لا اضطر لإخراجها في المنزل، وأعرّض نفسي للفضيحة.. ما هو ذلك المكان يا دكتور.. أخذني زميلي إلى مكان لم يسبق لي أبداً الذهاب إليه.. مخزن القطارات.. أكثر من ساعة يا دكتور ظللنا نروح، ونجيء في صمت تام فوق رصيف المخزن، وتحت سقفه العالي.. أنا

ممسك بالصورة، أحدّق فيها، وأتفحص تفاصيلها، وأكتشف الأعاجيب التي كانت غائبة عن عالمي.. صاحبي يفعل نفس الشيء، وبنفس الفناء في المعجزة المفرودة أمام عيوننا، التي لا تصدق أننا نعيش حقاً هذه اللحظة.. أكثر من ساعة يا دكتور؛ تلميذان في إعدادي يمسكان صورة سكس داخل مخزن قطارات، ويسيران داخله، ونظرتهما لا تنزاح عنها.. يبدو لي في هذه اللحظة أن مخزن القطارات قد تحوّل - خاصة عند النظر إليه من فوق - إلى قضيب هائل، وأنني، وزميلي قطرتي سائل منوي متواريتين، تذهبان، وتعودان داخله بفرح، وخوف، وارتباك، ثم يقذفهما في النهاية كعجوز يتخلص من شبق طارئ.. لم يكن هناك سوانا، ولم يزعجنا أحد خلال تلك الفترة كأننا أغلقنا المخزن من الجهتين، أو كأن هيئة السكك الحديد تواطأت معنا.. قررت أن تظل الصورة معي رغم الرعب الشديد.. كانت التجربة الأولى في إخفاء الأشياء (القذرة) عن عيون الأسرة.. بدّلت ملابسي، وتركت الصورة في جيب البنطلون، وعلّقته على الشماعة.. تمددت على السرير، وظلت عينيّ مثبتتين على الجيب بينما أمي، وأختي، وجدتي يتحركن بجوار البنطلون المعلّق، ويتحدثن، ويمارسن حياتهن العادية.. كنت خائفاً جدا، ومتوتراً، وأحاول بقدر ما أستطيع منع أعصابي المتعبة من كشف نفسها.. ظللت أفكر في البدائل المتاحة داخل البيت، التي يُحتمل أن تكون آمنة أكثر، تحسباً لإمكانية نقل الصورة إليها في أي وقت لا يلحظني فيه أحد.. في النهاية إنهار الصمود الهش.. تصورت أن تمتد أي يد - وكان هذا وارداً جداً يا دكتور- داخل جيب البنطلون، وتصطدم بثديي (Miss April)، وتحدث المصيبة.. ارتديت ملابسي مرة أخرى، وخرجت.. ذهبت إلى صاحب ليس معي في المدرسة، ويسكن بجواري.. وقفنا على سلالم بيته، وأريته الصورة؛ ففرح بها للغاية، ووافق دون تردد على الاحتفاظ بها مؤقتاً.. عدت إلى البيت كمن يحتفل بمسرح جريمة أصبح خالياً من بصماته.

أعيش مع النهك العصبي منذ عشرين سنة.. أصبحت منذ ذلك الوقت صاحب جسد ضعيف، هامد طوال الوقت.. جسد رجل عجوز يعيش أيامه الأخيرة.. أنظر حولي.. أرى ناساً يكبرونني بسنوات كثيرة جداً، ويذهبون هنا، وهناك، ويسافرون، ويبتعدون وحدهم عن البشر الذين ينتمون إليهم، بينما أنا أعمل ألف حساب للذهاب إلى المقهى الموجود على ناصية الشارع الذي أسكنه.. لا يفارقني القلق، والفزع، والرعب من الموت، ولا تغادرني الحسرة على أسرتي الميتة.. يعذبني التفكير فيهم دائماً.. ما كانوا عليه، وحالهم الغامض الذي هم فيه الآن.. ما الذي ينتظرني حينما أصير ميتاً مثلهم.. تأتيني نوبات هلع أشعر خلالها بأنني على وشك الموت فعلاً.. توتر مستمر، وإرهاق، ويأس، ونفس مكتوم، وشعور بالاحتضار عند بذل أقل مجهود.. أنسى ما يجب أن أتذكره.. أستيقظ من النوم، وأغادر السرير كجثة تنهض من قبر.. صداع نصفي شبه يومي، وآلام في الظهر تشل حركتي، وقولون يحرمني من أدنى درجات الهدوء.. مزاج سفّاح يريد قتل كل من يصدر عنه صوت عال، وقلب سجين محكوم عليه بالإعدام، يتخبّط داخل صدره، احتفالاً بالانتظار.. ربما أنا مريض بالـ (Neurasthenia) فعلاً يا دكتور، وأنت تعرف أن (فرويد) ربط بينه، وبين الإفراط في العادة السرية.. النهك العصبي الذي يحكمه الشعور بالتهديد في الطفولة، والرعب المتزايد من التورط في أمور عادية، بل بديهية للغاية، وليست خطرة على الإطلاق مع تعاقب السنين، مقابل فشل السعي للاستحواذ على كل شيء.. ربما أنا ملعون بتمييز الخطر المخبوء داخل العادي، والبديهي، وكل ما يبدو آمناً.. لا أستطيع أن أفعل شيئاً بسبب الخوف من العقاب الأبوي بعد أن أصبح العالم أباً منذ زمن بعيد، وأصبحت كل كائناته آباءاً.. كل شيء – مهما نجح في تأكيد تفاهته – يظل شراً، مُهدِداً، مؤذياً بخبث، لا ينبغي خوضه، أو مواجهته بل الاستعاضه عنه بالاستمناء.. محروم من أدنى درجات الشعور بالأمان،

والسكينة.. الشعور الذي يمكن وضع الغفلة كمرادف صالح له.. يبدو لي أن كل من حولي يستمتعون بهذه الغفلة بحيث يمكن عدم ضمها على الأقل لقائمة مشكلاتهم.. يأتي الرعب من الداخل، وليس كعدو متربص في الخارج.. لا أُريد أن يُفهم من كلامي هذا يا دكتور أنني أستجدي مشاعر الحب، والحنان، والتعاطف.. نهائياً.. فاهمني يا دكتور.. نهائياً.. أو أنني أستمتع بدور المجني عليه، الضائع، والمنسحق.. لا أبداً.. أبداً بجد.. أو أنني أسعى لتمرير صورة ذات رونق، وبهاء ساحر عن كآبتي.. مطلقاً.. أعترف أنني أجد متعة كبيرة في الكتابة عن معاناتي، وعن قسوة العمر الذي يمرق ببطءٍ ماكر.. بل أنني أجد أحياناً لذة خاصة في أن أعيش كل هذا العذاب النفسي، والبدني.. لكن صدقني يا دكتور.. أنا فعلاً أريد التخلص من هذه الحياة.. أريد بحق أن أعيش حياة أخرى.

أرجعت الصورة بعد يومين تقريباً إلى تاجر المجلات في الفصل؛ فأعطاني – رغم أنه لم يكن صاحبي – صوراً جديدة.. كانت حوالي أربع صور لنساء عاريات داخل البحر، وعلى الشاطيء، لكنني هذه المرة قررت ألا أعطيها لأحد، وأن أُبقي عليها معي في البيت.. جاءتني جرأة أن أدعي النوم عصراً، وأضع الصور تحت المخدة، ثم أُخرجها لأتفرج عليها تحت اللحاف.. تشجّعت أيضاً يا دكتور، وبدأت آخذها معي إلى الحمام.. ظللت هكذا وقتاً طويلا، ولم يكشفني أحد.

صوت أبي، ونظرته، وصفعاته.. صرخات أختي، وصفعاتها.. مطواة أخي.. الجيران.. سخرية أولاد الشارع، والمدرسة، وقصر الثقافة.. ضرب المدرسين، وشيخ تحفيظ القرآن الذي طردني من الجامع لأنني ضحكت، ولم أستطع مسك نفسي بينما أسمّع له (والليل إذا سجي).. (سجى) لا تبدو في حد ذاتها مضحكة الآن.. انفصال عن أمي لم يعوّضه الاستمرار في السرتنة حتى الآن.. حتى قدرتي السابقة على الزهو، والامتنان لهذه

الحياة التي أرادتني، وأعطتني مزايا خبرتها، وحساسية تجاربها؛ هذه القدرة بدأت أنزفها منذ فترة طويلة، إلى أن فقدتها تقريباً بالكامل، ولم يبق منها سوى أثر، أو طيف من رائحتها يفتح عينيه بوهن عظيم في لحظة ما ثم يعود إلى غيبوبته.

كنت أحياناً أتفرج على الصور، وأنا أمشي في الشارع.. أفتح الصورة، وأنظر إليها، ثم أطويها، وبعد قليل أُعيد فتحها، وهكذا.. في أي مكان، وفي أي وقت، بينما الناس يسيرون من حولي دون أن يلتفت أحدهم تجاه الجواهر التي أحملها.. كأنني أحتفل بكرنفال خاص، لا يحتاج لجلبة بقدر ما يحتاج إلى تركيز، ومهارة في الإخفاء.

كان النوم مع السيدة (نون) سيجعلني آخذ حقي، ولو بطريقة لعب الأطفال من خطط، وبرامج المراهقة التي صدقتها، وآمنت بها، وألزمتني بالسعي المتواصل لتحقيقها، بينما كانت تعلم أنني سأكون في النهاية صاحب كلوت رائحته كريهة.

كان تاجر المجلات يأخذ معي درس انجليزي، وفي أحد الأيام بعد انتهاء الحصة؛ وقفنا في شارع المدرّس، وكان هادئاً، بأضواء قليلة، وخافتة.. وقف معنا طلّاب الدرس، ثم أخرج أمامنا مجلة (تركيب).. يومها عرفت الفرق بين صور، ومجلات (العرض) أي التي تستعرض فيها النساء أجسامهن العارية فحسب، و(التركيب) أي التي أُلتقطت للممارسة بين الرجال، والنساء.. لأول مرة في حياتي يا دكتور أشاهد أعضاء الرجال - كانت مختلفة تماماً، وبالتأكيد عن عضوي - ولأول مرة أرى عضواً في فم امرأة، وفي مهبلها، وفي فتحة شرجها، ولأول مرة أشاهد لسان رجل بين فخذي امرأة.. أول مرة أرى اللبن فوق شفتي امرأة، وفوق ثدييها، وفوق مؤخرتها.. أول مرة أرى امرأة تُدخل موزة بين فخذيها.. كان جسمي كله يرتجف، ودمي يتدفق بعنف، والعرق يشي بالحريق الذي اندلع وراء

جلدي.. أدركت يا دكتور أن الجوهر الأساسي لحياتي قد اكتمل، بعدما أخذت جزيئاته تكبر، وتتلاحم طوال السنين الماضية تدريجياً، ويبطء ملغز عبر خيالات، وتجارب، واكتشافات.. هذه المجلة نقلت لي المعرفة بالجنس.. الإثارة.. الأوضاع.. الوصول إلى ذروة المتعة.. لكن فيما يتعلق بالسائل المنوي كنت أعتقد وقتها أنه لا يخرج من الرجل إلا بالنوم الفعلي مع المرأة، حيث لم أكن أعرف أن هناك ما يسمى بالعادة السرية.. أتذكر يا دكتور أنه بعد دخول المدرسة الإعدادية تقريباً، وقبل أن تتاح لي مشاهدة الصور، والمجلات السكس حدث لي احتلام، وغالبا كانت هذه هي المرة الأولى، والأخيرة.. انتظر يا دكتور.. كانت هناك مرة ثانية، وربما ثالثة أيضاً، ولكن في جميع الأحوال لم تتجاوز مرات الاحتلام هذا العدد.. كان حلماً واحداً في جميع تلك المرات.. أرى نفسي نائماً مع امرأة تجمع بين (هند رستم)، والشابة ذات الجمال الفرنسي التي كانت تقف في نافذة الشارع القديم، ونحن نلعب الكرة.. لا أتذكر أنه كان هناك عرياً بالمعنى الأكيد، وإنما كانت هناك مساحات مكشوفة لتكوينات مثيرة من جسمها، ولكنها في نفس الوقت غير مفهومة.. لم يكن هناك ثديين أو مؤخرة مثلاً، وإنما ربما كانت هناك قبلات، والتصاق بشغف، وبرغبة جارفة بتلك الأجزاء العارية، غير المحددة من جسمها.. النوم معها كان عبارة عن قبلات ثم قبلات ثم قبلات دون دخول أي شيء في أي مكان.. استيقظت في كل مرة مع قذف متتابع، لكن من الغريب يا دكتور أنني لم أمد يدي لتحسس عضوي، أو لملامسة البلل الذي أحدثه.. كنت منشغلاً بالحيرة البالغة تجاه الحلم العجيب، الذي اعتمدت فيه الإثارة، والممارسة، وقمة الإشباع على أداءات، وتفاصيل شبيهة بالجنس، وليست الجنس نفسه.. كان جانباً من الغرابة يا دكتور التي تملّكتني أنه في تلك الفترة لم تكن (هند رستم)، ولا الشابة ذات الجمال الفرنسي في ذهني على الإطلاق، بل فوجئت باندماجهما في امرأة واحدة داخل الحلم.. في نفس الوقت كنت أتصور أن

ما حدث لي أمر طبيعي.. بالتأكيد سمعت عن الاحتلام - لا أتذكر المصدر تحديداً، وإن كنت أميل لإرجاعه إلى قصص دينية عن الطُهر رُويت على ألسنة أبي، وأئمة الجوامع التي كنا نصلي فيها الجمعة - وبالتأكيد كان في اكتشافه للمرة الأولى رهبة لا يمكن استيعاب متعتها.. كانت تلك فكرتي عن المني يا دكتور، إما أن يخرج بهذه الطريقة الحلمية، النادرة، وإما كنتيجة لممارسة واقعية.. هذا التصور ظل مرافقاً لي حتى الصف الثاني الثانوي، وأنا أعرف بالطبع يا دكتور أن ذلك التأخير في المعرفة أمر غير عادي، ومهين جداً.

جذب انتباهي حوار غريب بين اثنين من زملائي في الفصل، لا أتذكر تفاصيله، وإنما دفعني لسؤال أحدهما عما يتكلمان عنه.. بالتأكيد أصابت زميلي دهشة قاسية من جهلي بالعادة السرية، لدرجة أنه ظن في البداية أنني أخدعه، لكنه حينما اقتنع فعلاً بأنني لا أعرف شرحها لي.. (تمسك بتاعك - وممكن تستخدم الصابون - وتحرّك إيدك عليه بسرعة كده، وانت بتفكر، وبتتخيل إنك نايم مع واحدة.. هتلاقيه في الآخر بيترعش، وبينطر اللبن).. قررت أن أول ما سأفعله بعد رجوعي البيت هو تنفيذ إرشاداته.

هامش الرجل الذي ربما يكون طبيباً نفسياً، أو باحثاً في التراث الشعبي

لم يعد لي زرع، لذا لم أعد أنتظر المطر.. لم تعد لي ماشية، لذا تخليت عن كلبي الذي كان يحرسها حتى يموت في مكان بعيد عن عينيّ.. أنا مزارع العصور الوسطى الذي أصبح عاطلاً، ويسلي نفسه بمراقبة الأشكال العجيبة، المضحكة التي يصنعها الغبار.

كان يقول لنفسه، ولبعض أصدقائه، وربما لحبيبته التي أصبحت فيما بعد زوجته، وأم ابنته أنه من المؤكد سيقتل أبيه ذات يوم.. الدوافع السطحية لتلك الرغبة، أو الأمنية كانت ناتجة عن القسوة، والإذلال في سلوك أبيه تجاهه.. الصفع، والضرب بالشلوت - غالباً بسبب التقصير في الصلاة - واستخدام غلاظة الصوت، وحدته في التهديد بالعقاب الجسدي، والإهانة اللفظية، وكذلك التحذير بالنظرة - قد تبدو المسألة أكثر إثارة للاهتمام لو عرفنا أن أبيه كان مصاباً بضغط العين مما كان يتسبب في جعل نظرته دموية لحظة الغضب.. لكن ربما كانت الدوافع الأعمق مرتبطة بإدراكه المتزايد أن أمه - بطيبتها، ومسالمتها، وضعفها - لا تستحق أن تكون زوجة لأبيه، ولا أن تخدمه، أو تطيع أوامره، أو تسترضيه كجارية.. كان يُرجع دائماً أي قسوة مفاجئة، أو عنف لغوي طاريء منها تجاهه إلى الألم الهائل المكبوت في روحها، الذي ظل يتراكم، ويقتلها طوال السنوات الكثيرة جداً التي عاشتها معه.. أنها ربما كانت تنتقم من زوجها في ابنه رغماً عنها.. يؤمن أن أبيه نجح في زرع شر غير كامل في براءتها جعلها تكتسب قدراً من طبيعته الفظة، وبلادته الجارحة.. كان يجبرها على خيانة نفسها، والعمل أحياناً كواشٍ قذر لتخبره بتصرف سيء ارتكبه الابن، أو كلمة مشينة نطق بها في غيابه كي يلقّنه الجزاء، وتنال رضاه في

المقابل.. الرضى الذي قد يعني بعض الرحمة في معاملته لها، أو أخذ عطلة – ولو قصيرة – من افتعال مشاكل، أو أزمات تبدأ بانتقاد لأمر تافه سرعان ما يتحول إلى إعصار تلتهم ثورته جزعها، وتمتماتها المرتبكة التي تلهث في استغفاره، وطلب عفوه.. الرضى الذي قد يعني مكافأتها في السرير كحمامة بيضاء تتمزق أسفل غوريلا.. ماذا عن الذنب؟.. يُشكل شعوره بالشفقة تجاه أبيه، وأمه عنصراً هاماً في تكوين شخصيته مع مراعاة اختلاف هوية الشفقة بينهما.. بالنسبة لأبيه لا يزال حتى هذه اللحظة – وإن كان على فترات متباعدة للغاية، ودون ثقل، أو مبالغاة – يوجّه لنفسه اللوم بسبب عجزه عن تقديم أي مساعدة لأبيه تُخلّص أصله النقي، الطفولي من المعاناة التي كانت تلاحقه من الماضي – لم يتمكن من التوصل لأي تأكيد عنها، وإن بدت قطعاً ذات حضور مكشوف، ومضمر في كافه تصرفاته كأب، وزوج، ورجل.. العُقد التي تسيطر على قرارته، وانفعالاته الذهنية، والحسية، العدائية، المتزمتة، والباطشة بما حولها.. يوجّه لنفسه اللوم بسبب الثأر الذي حاول أن يأخذه من أبيه بواسطة اعتداء بدني خفيف، وشتائم قليلة خلال فترة مرضه بالزهايمر.. أما عن الأم فاللوم يرجع إلى عدم قدرته على تحريرها من جحيم أبيه، ومنحها العالم الملائكي اللائق بها، كما يعرف جيداً أنه كان مشاركاً – رغماً عنه – في تضييق ذلك الجحيم عليها، وتدعيمه كابن أخذ كثيراً من صفات، وسمات الأب، وكان عليه أن يستغل ضعف أمه أحياناً ليشفي غليله من الوحش الذي يعجز عن مواجهته.. ربما قام بسبّها مرة، أو مرتين في حياته، لكن اللافت للنظر أن مجرد مقارنته جسمها العاري الذي رآه أكثر من مرة في طفولته (كنموذج جنسي مقزز) بنجمات البورنو (الميلفات الفاجرات) يستدعي هواجس الحيل الدفاعية.. يمكن للتقزز أن يكون مقاومة، وإنكاراً لاشتهاء فضحته المقارنة مع Kay Parker، وAmalia، وCarrie Moon، ومن ثم يجب تضليله، خاصة مع إقران

الوصف الدقيق لجسمها مع شعوره ناحية عريها بالسرور، والطمأنينة.. يمكن للنفور أن يكون معادلاً لحلم كامن في اللاوعي يستقر فيه ما كان ينقص الأم حقاً من مواصفات جنسية حتى تُكمل المتعة الناجمة عن وجودها كامرأة في داخله، وتُعالج عيوبها الأنثوية لتصل بشهوته إلى ذروتها النموذجية.

قد تبدو العلاقة بيننا أشبه بعملية (التحويل) التي قام بها (فرويد) للمشاعر النابعة من علاقته بأبيه على صديقه (فليس): (إن استحالة الكتابة التي أعاني منها تبدو وكأنها تريد تعكير صداقتنا).. كان (فرويد) يعاني من عقدة (أوديب)؛ يحمل حقداً على أبيه ظهر في حلم رآه في الليلة التالية لموته، ويختزن حباً محارمياً لأمه بعد أن رآها عارية تماماً حين كان عمره بين العامين، والعامين ونصف.. يعتبرني، أو يعتبر أبيه – من ضمن قائمة الجرائم – مسؤلاً عن عدم حصوله على الإشباع الجنسي من أمه، المتمثل – من أحد وجوهه – في غياب الكلام معها، الأمر الذي حرمه تلقائياً من الحصول على ارتواء أمومي / جنسي من كافة النساء اللاحقات لها في حياته.. فلنتذكر الآن أن السيدة نون تكبره بتسع سنوات، ولنضف السلطة الرمزية التي تمثلها كشاعرة، ومثقفة معروفة، تعيش في رفاهية الغرب سنكتشف أن الأب، والأم معاً قد تحققا في شخصيتها.. رهبة، وقوة، وعنف الأبوة المسيطرة، التي تملك الحساب، والعقاب، والمصير، وكذلك الأم التي منعتها سلطة الأب من إشباع الحاجة الجنسية للابن، واستبدلتها بانفصال لغوي، وإيهام نفسي، وانعزال متبادل.. لماذا لا يفسر ذلك حالة الإذلال، والشعور بالضعف، والانهيار أمام السيدة نون.. يخضع للتهديد المُحكم بالمعاقبة بسبب خطأ حتى لو لم يقصده – وخاصة لو كان الخطأ متعلقاً برغبته في الأم – وفي نفس الوقت يخاف من صد الأم له، تحطيمه نتيجة افتقاده لآليات الاتصال الصحيحة معها، وتركه

منبوذا من عاطفتها.. يمكن للأم داخل السيدة نون أن تخونه، وتشي للأب داخلها بانحرافه؛ فيتحالف قطبي الجزاء.

رآهما في لوحة القرون الوسطى خارجين من الكنيسة، عروسين ينزلان السلالم وسط الوجوه الفرحة.. هو يحمل خنجراً، وهي تحمل زهوراً، وذاهبان إلى مصنع العرائس لأخذه.

أخبرني أنه استمنى اليوم على مشهد قتل (خضرة) / (فاطمة عمارة) في فيلم (الأرض).

يضحك، ويشخر، ويشتم بسفالة لا حدود لها في المطلق.. دون تحديد إلى من يخصه ذلك الثناء.. أضحك، وأشخر، وأشتم مثله.. نتلفت حولنا في نفس الوقت بترقب، ويأس كأن مطلوباً من حوائط العيادة التحوّل الآن فجأة إلى جداريات مستوحاة من الإنجيل، والعهد القديم وفقاً للأسلوب البيزنطي، أو على الأقل إلى حوائط قصر (غاتسبي العظيم).

روايتي القادمة بوليسية، ملحمية، حكايات متقاطعة، وأزمنة متداخلة.. رواية تاريخية، مشوّقة، متاهة يخلقها العثور على دفتر خواطر أخي الميت، وأرقام تليفونات أصدقائه، وقصاصات جرائد، ومجلات الثمانينيات التي كان يجمعها.. طبقات سرد عديدة، وأصوات مفاجئة، وغامضة، وألغاز متشابكة تنسج الغرائب.. ناس تختفي، وناس تظهر دون تمهيد، عهود أدبية تُستعمل، وكوميديا تحكم المصائر.. هذا الكشف عن خطة مشروع لم أبدأ فيه بعد، وسيأخذ وقتاً طويلاً قد يسمح للبعض بمحاولة استغلال فكرته ليس أكثر من فتوَنة.. مجرد استعراض قوة.

قلت له أن يسعدني للغاية إسداء نصيحة لـ (الروائي الشاب) الذي وجّه إليه المحرر الأدبي بجريدة قومية سؤالاً يشبه: (ما رأيك في رواية "أن تكون عباس العبد" خاصة أن الناقد "ممدوح رزق" قد سبق، وكتب أنها محدودة القيمة).. الروائي الشاب الذي رد على المحرر الأدبي بإجابة

تشبه: (أنا لا أعرف من هو "ممدوح رزق"، ربما سمعت اسمه مرتين أو ثلاثة لكنني أعتبر "أن تكون عباس العبد" رواية عظيمة).. بصرف النظر عن كذب المحرر، أو جهله - حيث أنني لم أكتب مطلقاً في مقالي عن الرواية - ولا في أي مقال عن عمل آخر - أنها محدودة القيمة، بل على العكس أشدت بها في السياق الذي تناولتها من خلاله.. بصرف النظر عن ذلك فإنني أريد أولاً إبلاغ (الروائي الشاب) بتضامني معه، وتقديري لظروفه تماماً، وبأنني أعلم جيداً أنه من الصعب عليه، بل يستحيل أن يكتفي بأي من الإجابتين (نعم أتفق معه) أو (لا أتفق معه) مثل أي كائن محترم، بل أن متاعب الحياة، وهمومها تفرض عليه أن يستغل الفرصة - اعترافاً بفضل مقهى وسط البلد الذي يجلس عليه، وليس مصادفةً بالتأكيد أن إحدى القنوات الفضائية العربية استعانت بخبرته للحديث عن مقاهي القاهرة - لاستعراض إحساسه بنفسه كمركز للكتابة المصرية، وبناءً على ذلك يجب أن يُذكّر القراء ضمنياً، ويُذكّر المحرر الأدبي بتلك المعلومة العظيمة (من أعرفه فقط هو الذي يملك رأياً جديراً بالاحترام).. المحرر الأدبي الذي لو كنت مكانه لم أكن سأحرجك، وأجعلك تعملها على نفسك لو سألتك (ما أهمية معرفتك بـ "ممدوح رزق" أو عدم معرفتك به في النقاش عن الرواية.. لماذا لا توافقه الرأي، أو ترفضه فحسب؟!).. أنا أعرف شعورك بذاتك يا عزيزي، وأعرف شعور أمثالك الذين تعرفهم، ويعرفونك، لكن - وهذه هي النصيحة - تلك الطريقة في (الرسم) قديمة، وطفولية، ومضحكة حاول أن تستخدم بديلاً لها.. أسلوب بائس، مفضوح، يعطي - للأسف - نتيجة عكسية، فبدلاً من أن يعتبرك الناس (صايع)، وذكي، وصاحب شخصية؛ سيعتبرونك عبيطاً، مفشوخاً من الهوس بإثبات الذات، يدعي لنفسه الأهمية بدون مناسبة، وفي مواقف غير مبررة مثل أي أهبل.. هذا لو كنت لا تعرفني فعلاً.

طلب مني ألا أضحك، فوعدته.. قال أنه أحياناً يفتح باب حجرة مغلقة في بيته فجأة، وينظر إلى أشياءها: الصور، والكراسي، واللوحات، والكتب، والطاولة.. كأنه يحاول إرباكها، وضبطها متلبسة بالحياة.. يتمعن في ملامحها الغائمة بأمل التقاط أي حركة خفية، أو لغة سرية تتبادلها في الكلام عنه.. يريد أن يكتشف أي معرفة عن نبوءة محتملة، أو مصير ممكن قد تختزنه تلك الأشياء الصامتة، الساكنة في الظلام وراء الباب المغلق.. يطلب ثانية ألا أضحك، فأعده.. قال أنه أحياناً يفتح باب الحجرة فجأة، ثم يغلقه، ثم يفتحه مرة أخرى على الفور كأنه سيفاجئ الأشياء قبل أن تُسرع بالعودة إلى حالتها الجامدة.. كأنه سيرى ما يعطيه فكرة عن قرارات القدر بشأنه، التي يتم ترتيبها عبر أشيائه حين تكون بعيدة عن عينيه.. ما لم يقله (أورهان باموق) في (عندما يتكلم الأثاث، كيف يمكنك أن تنام؟).

(14)

يدي هي أعز أصدقائي.. هي صديقتي الوحيدة، لأنها الوحيدة التي تفهمني أما الباقين فأولاد شرموطة.. وجودي لا يتمثل في شيء إلا فيها، وهي الشيء الوحيد الذي لا يمكنني تعويضه.. أتحدث عن يدي اليمنى التي تعرف الحقيقة، وتظل ساكتة.. هي علامة إذلالي للعالم، وإشارة كفايتي كإله.. حمايتي من رغبة نرجسيتي بالتحقق عبر الانخراط الجمعي.. التي تُنهك أحياناً كعاشقة أتعبها طول المدة التي استغرقها حبيبها في الوصول إلى الأورجازم.. ربما تتضايق قليلاً- ولا أعرف لماذا- إذا ما تبللت أصابعها.. هذا ليس دماً يا عزيزتي.

في مساء نفس اليوم جلست أقرأ في الديوان.. طبعاً كان الإهداء المقتضب أشبه بلغم، حينما تمر فوقه عينيّ كلما انفجرت فيهما أوجاع خيبتي الراقدة بداخله.. وصلت إلى نص وجدتها تتكلم فيه عن علاقتها بروائي شاب ميت.. كان هناك نص آخر عن تأبينه بتفاصيل واضحة جداً؛ فعرفت شخصيته على الفور.. كان النص يتحدث عن أنها كانت نائمة معه، وأن صوت أحد الطلاب الذين تُدرّس لهم في الجامعة يطابق صوته.. ممكن، أو غالباً تكون قد نامت مع هذا الطالب، لكن فلنبق مع الأصل - أتوقع منها أن تنام مع أي أحد في أي مكان بحسب مزاجها، ودوافعها، وبحسب الترتيبات التي تتوافق في حياتها لخلق لحظة النوم هذه مع هذا الشخص بالذات في ذلك الوقت.. يعني ليس مهمّاً أن يكون طالباً في الجامعة، أو زميل لها.. كنت قد قرأت له نصاً، أو اثنين منذ فترة طويلة قبل أن يموت بالسرطان، ثم اشتريت كتاب أعماله الكاملة الذي صدر بعد وفاته.. بصرف النظر عن رأيي في كتاباته لأن هذا ليس موضوعنا يا دكتور فإنني وجدت نفسي أتخيل من خلال النص علاقتهما: الحوارات، والدعابات،

والصمت، والنظرات، والإيحاءات المختلسة بينهما.. نومهما مع بعضهما.. ما بعد نومهما مع بعضهما.. ظللت أقارن نفسي به كثيراً.. أقارن بين اليوم الجحيمي، المريع الذي قابلتها فيه، وبين ذكرياتهما التي ظللت أشكّلها من خلال النص.

قد يكون كل هذا مجرد وهم: أنها تتحدث عن نفسها، وأنها نامت بالفعل مع هذا الروائي الشاب الميت بالذات، وأن هناك طالب بالفعل يمتلك نفس صوته.. قد يكون مجرد وهم فعلاً، لكنه وفقاً لتاريخي أنا؛ هذا ليس وهماً يا دكتور.. بناءاً على احتياجي شديد المرارة للانتقام من هذا التاريخ؛ هذا ليس وهماً.. أنا لا أتكلم عنها، ولا عن الروائي الشاب الميت، ولا عن الطالب.. أنا دائماً أقصد نفسي.

كان عندي تصور، بل تأكد يا دكتور بأنه من السهل استنتاج الطبيعة الشخصية لدي كلٍ منهما أثناء وجودهما معاً.. تعرف لماذا يا دكتور؟.. لأنه ببساطة يكفي القول بأنها عكس ما أتسم أنا به من طباع، وصفات.. من اليسير رؤية الثقة، والرصانة، والهدوء، والضحكات الخبيثة، والتعليقات الذكية، والأفكار المقتضبة، الواعية، اللمّاحة، والحدة القاسية، المتهكمة، ذات السلطان، والسيطرة.. ضد مكوّناتي العزيزة، والغالية يا دكتور.

وجدت نفسي أرجع لأعماله الكاملة، وأقرأها مرة أخرى.. توقفت أمام النص الذي لم يضع عنواناً له، والذي بدأه في عامه الأول بـ (باريس) حيث تحدث (عنها)، وعن (الملاءة).. هل هي نفس الملاءة الشفافة في نصها عنه، التي ادّعت النوم، عارية تحتها لحظة وداعهما.. استرجعت بامتنان يومياته في المستشفى الفرنسي التي كان يُعالج فيها.. تفكك مكونات جسمه.. القتال لاستعادة الحياة، والكتابة.. انتبهت لعبارة كتبها عن السرتنة، والتفاعل مع صورة الفن التشكيلي.. بكائه، وهو يتساءل لماذا يصاب بالسرطان في سن الشباب.. كان يفكر في الانتحار قبل المرض..

أصدقائه، وعلاقتهم بمرضه.. عدم مسؤليته عن الماضي، وعدم ارتباط المرض بعلاقة منطقية مع ذلك الماضي.. زجاجة التبول البلاستيكية الموضوعة بجوار السرير.. العلاج الكيماوي.. ضوء سيارة ضعيف قادر على الصعود إلى حجرته مقابل احتياجه للأسانسير.. الدولاب، والشباك.. يد الممرضة التي كانت تجلس على الأرض بجوار سريره كي تشاركه الدموع.

كنت أقرأ بألم، وغيرة.. بفرح، وخوف أنه مات.. أنا لا أعرفه، وعمري ما رأيته، ولا فرحتي بموته التي أصابتني تخصه هو، بل تخص الحياة، أو الخبرة التي عاشها، وسمحت له أن ينام، ويستمتع بامرأة كنت أجلس أمامها كرماد سيجارة أُلقي في بحر.. رغم أنني لو لم أكن أعرفها، وعبرت أمامي، وأنا جالس في مقهى مثلاً، أو مرّت بجواري، وأنا أسير في الشارع عمرها ما كانت لفتت نظري.. لكن المشكلة أنني أعرفها، وأعرف من هي بعيداً عن كونها أنثى.. هذه هي الجائزة الكبرى يا دكتور التي عرفت الآن – كأنني كنت ناقصاً– أن روائي شاب سبق، وحصل عليها بمنتهى البساطة، ليس هذا فقط، بل خُلّدت لحظة حصوله عليها في نص، حتى لو كان في سياق الكتابة عن موته أيضاً.. كأن الموت هو الثمن الذي كان يجب أن يدفعه –بالنسبة لي– طالما نام معها، وفي المقابل فإن استمراري في الحياة حتى الآن هي الهدية التي يجب أن تعوّضني عن عدم ركوبها.

بين وقت وآخر أنظر في صورته المطبوعة على غلاف أعماله الكاملة.. أحدّق في عينيه، وأتخيله، وهو نائم معها.. أشعر كذلك بالرعب من موته، كأن المرض سينتقل إليّ من كثرة النظر في الصورة، والتفكير فيه.. كنت أرى في حياته القصيرة كل ما لم أقدر أن أجرّبه.. كل ما كنت أتمنى أن أعيشه.. أقول في نفسي أنه لو ظل حياً حتى الآن، وأصبح لديه حساب على (الفيس بوك)، كان سيتعامل بالتأكيد بنفس سلوك المشغولين دائماً

بتصدير هيبة مضحكة عن الذات.. مسخرة نرجسية تلائم طبيعة وجودهم في الصدارة الزائفة لتلك الشرموطة المسماة بالحياة الثقافية المصرية.. كان سيحاسب جداً على (لايكاته) بحيث لا يُفرط في منحها، ولا يعطيها إلا للأصدقاء المقربين فقط، أما الغرباء -خاصة المُلقى بهم خارج البرواز القاهري- فإن تلك العطايا لن تذهب إليهم إلا نادراً.. لماذا؟.. لأنه لا شيء يلزمه منهم أمام ما يملكه من صحفيين، وأصحاب دور نشر، وكتّاب في لجان تحكيم الجوائز الشهيرة داخل الوسط.. كان سيتعمّد عدم الرد على رسائل هؤلاء الغرباء، أما لو فعل فسيقصد عدم الرد على التحية الاستهلالية التي بدأوا بها رسائلهم، وسيحرص على جعل كلامه مقتضباً للغاية.. جملة واحدة، أو جملتين على الأكثر فيهما من الغرور الحاد، والبضين ما يُغرق الكوكب بالصفار، ودون تحية ختامية بالطبع كـ (تحياتي) على أقل تقدير.. بالضبط كأنه يعاقبك على جرأتك في تخطي الحدود، وإرسال رسالة لأمه في لحظة شجاعة، وغباء ينبغي ألا تتكرر.. لماذا قَبِل صداقتك أصلاً؟.. لأنك بالنسبة له - طالما أنه لا يراك كثيراً في الشوارع التي يمشي فيها، والأماكن التي يذهب إليها - مجرد زبون مهتم، تلميذ يحاول التعلم، واحد من الجمهور الذي عليه أن يُصفّق، ويستفيد.. أنت بالنسبة له - أياً يكن - لست أكثر من مُريد محتمل، أو مُنتج كتابة يمكن الاستيلاء على أفكارها، وضمها إلى مشروعه وفقاً لبراعته كحرامي.. كان سيمتنع عن الرد على التهاني، والتعليقات إلا في حدود.. كان سيحرص على الاستظراف، والحدة، وعدم الاعتناء بأحد، أو شيء، بينما سيُشعر البشرية بأن العالم انتهى لو صادف انتقاداً، أو ازدراءاً.. كان سيواظب على تمجيد نفسه، والتقليل من شأنها في نفس الوقت بخبث بائس، ومفضوح للدعم، وللتأكيد على ذلك التمجيد.. كان سيكون أبضن من (محمود ياسين) في (رحلة النسيان).. فرخة من ضمن الفراخ التي تقتات على النفور الاستعلائي من العِشش التي تلم.

هل تصدق يا دكتور أنني كي أجمع كل ما يمكن عن حياته، ادّعيت على (الفيس بوك) أنني أعد ملفاً عنه؟.. طلبت الحصول على شهادات ممن يعرفونه، أو من كان لهم أي صلة به لنشرها في مجلة وهمية لم تصدر بعد، وربما لن تصدر، لكن مع الأسف لم يصلني أي شيء.

دخلت الحمام، وفعلت مثلما قال زميلي.. بدون تردد تخيلت جارتي الفرسة التي قلت لحضرتك عليها يا دكتور.. بدأت أشعر بالرجفة، ولذة عمري ما عشت مثلها تخترقني، وتتدافع، وتنتشر في جسدي كله.. فجأة تدفقت قطرات المني البيضاء الثقيلة بتلاحق مذهل من عضوي.. كأنه تقيوء غاية في المتعة، يجذب بحنان ما يستقر في أقصى أعماقك من شهوة، ثم يطردها لتصبح أكثر خفة، وسعادة.. أول استمناء لي يا دكتور.. لن أنسى أبداً تلك النشوة العارمة، التي فاقت كل ما سبق واختبرته من لذة.. لدرجة، وأنا لازلت جالساً على الكابنيه، وآخر المني يسيل شفافاً نحو فتحته؛ أطلقت فوراً على ما حدث (التغلغل في الثنايا).. ذلك لأنني شعرت بالانتقال إلى حياة مختلفة بفضل وصول رعشة الاستمتاع إلى كل سنتيمتر في أعصابي.. لن أنسى أبداً شكل، ولون، ورائحة السائل المنوي في المرة الأولى.. إدراك مهيب بأنني رجل، وبأنني استمتعت الآن كرجل.. هذا اللبن هو شهوتي الذكورية الهائلة، المختزنة في جسمي طيلة سنوات حياتي كلها، منذ اللحظة التي كان يُغلق فيها شيش البلكونة عليّ مع ابنتي خالي.. أعيش الآن وحدي النهاية المنطقية التي لم تحدث لكل القصص التي كنا نمثلها، ونحن أطفال.. أحصل على كافة الحكايات التي لم أنجح في سرقتها من جميع البنات، والنساء اللاتي قطعن عضوي بالموس.. شكل، ولون، ورائحة الهياج، والإشباع.. الارتواء الخام، والانفلات النقي، والتحرر الطازج.. الذي سيخفت بالتدريج مع الاستمرار.

لم أتخيل نومي مع السيدة نون.. كنت أتخيل كثيراً لحظات ما قبل النوم معها، والتي كانت أهم بكثير للدرجة التي دفعتني للاكتفاء بها.. اللحظات التي أبدأها بقبلات رقيقة في شفتيها، أُعقِبها فجأة بنزع كل ملابسها بعنف، ثم أقوم بتقييد يديها بحبال ستظهر متانتها القاسية على وجهها بوضوح، مختلطة بالشبق.. أربط وجهها بمغلِق الفم الجلدي، ثم أضع صورة الروائي الشاب الميت، المزينة بالشريط الأسود أمام فخذيها المفتوحين عن آخرهما.. أُدخل أربعة من أصابعي في مهبلها، وأضاجعها بيدي بسرعة، وقوة حتى يتفجر شلال شهوتها فوق زجاج الصورة بتعاقب مرتجف، منغّم بصرخاتها المكتومة، وأنفاسها المتلاحقة.

كنت أفكر في السيدة نون، وفي الروائي الشاب الميت مستعيداً أولاد ابتدائي الذين كانوا يجلسونني على حِجرهم بين الحصص، ويمسحون بصاقهم في ظهري، ويلسعون أذني بضربة الإصبع الأوسط.. الذين كانوا يعلّقون لي ذيولاً، ويلطخون وجهي بالسواد، وأنا أضحك غير منتبه.. الذين كانوا يضربون كيعانهم بقوة في صدري، ويغرسون أظافرهم الحادة في رقبتي، والأسوء من كل هذا حينما كان ينتهزون لجلجتي، واضطراب الكلمات الخارجة من فمي للتهكم، والضحك على ابن أبلة العربي، المُدلل شكلياً، النظيف ذو الملابس الباهظة، الغافل، الذي لا دراية له بحيل، وخدع، وبذاءة الأطفال الآخرين.. الذي يبدو أنه يعيش مرتاحاً.. بالفعل كنت غريباً عنهم يا دكتور.. لا أحد منهم يفصله عن أكبر إخوته 17 سنة، وعن الذي يسبقه في ترتيب الأبناء 15 سنة.. لا أحد منهم سيبدو في صورة عائلية – رغم الشبه بالأب – كأنه لقيط، لا ينتمي للأسرة، وإنما عُثر عليه أمام جامع مثل الأفلام.. لا أحد منهم تنتظره بعد العودة من المدرسة معركة يتطاير فيها الزجاج المختلط بالشتائم، والتهديدات، والصرخات، وعيون الغرباء، ثم تنتهي بادعاء الأب الموت، وذهاب

شخصين إلى المستشفى في ليلة واحدة نتيجة زيادة نبضات القلب، وضيق التنفس.

لا أعرف ما الذي جعلني أتذكر الحكمة الانجليزية التي أخبرني بها الروائي (رضا البهات) منذ سنوات طويلة: (لن تستطيع أن تضاجع كل نساء العالم، لكن ينبغي عليك أن تحاول).. كأنه وضع وساماً فوق صدري، أو منحني مكافأة سخية، غير متوقعة، ظللت ممتناً لها.. كنت أوزّعها على أصدقائي بفخر، وأحشرها مزهوّاً في مواقف، ومناسبات غير ملائمة كأنني صاحبها، أو كأن حياتي هي الإلهام الذي أرشد قائلها.. بعد لقائي بالسيدة نون وصل اليقين الذي كان ينمو طوال الزمن الفائت، منذ اللحظة الأولى التي عرفت فيها هذه الحكمة إلى ذروة الثقة.. المعرفة التي تفسر لماذا يُقدس الخائبون، والتائهون، ومعدومو الحيلة نوعاً معيناً من الحِكَم، والمقولات المأثورة.. لأنها تستبعد الحياة العاطلة، تمحو فشلك في تشغيلها كما ينبغي، وتستبدلها بكلمات مواسية.. تخفيف إضاءة الواقع، مقابل سطوع اللغة.. الحياة تصبح أسهل - ولو بشكل ظاهري - إذا كان بمقدورك رمي كل تجربة تحترق منك في أقرب صندوق قمامة، والحصول مجاناً على تجربة جاهزة، ملفوفة في جملة مصاغة جيداً.. وصفة صُناع الكلام لترويض اليأس، وأكل العيش.. لن تستطيع أن تضاجع نساء الأرض.. هذا يساوي بين من نام مع واحدة، ومن نام مع ألف.. الاثنان لديهما بطن فارغ، لن يمتليء أبداً، مهما اختلف تاريخهما الجنسي.. لكن ينبغي عليك أن تحاول.. المحاولة وفقاً للحقيقة الأولى تساوي أيضاً بين من نام مع واحدة، ومن نام مع ألف.. طالما أن النجاح مهما بلغ مداه لن يحقق العلامة الكاملة فكل المحاولات إذن تتساوى من هذا الجانب.. أنها لن تقودك إلى مضاجعة كل نساء العالم.. في حالتي يا دكتور تتحقق ببراعة القدرة التعريضية للحكمة، التي لا يجب أن يتنازل عنها القول المأثور لأنها أداة تصديقه، وسر اعتناقه، ومفتاح خلوده.. (لن تستطيع

أن تضاجع كل نساء العالم، لكن ينبغي عليك أن تحاول).. يُفترض بداهةً أنها تبرير للاستجابة الزائدة عن الحد إلى طموحك الشهواني.. منح غطاء سحري لرفع قضيبك فوق كتفك، ومصافحة النساء به دون تمميز.. لكنني – وهنا تكمن مهارتي في استغلال ميزة التعريض في الحكمة – حولتها إلى تبرير لإخفاقي، ومنح غطاء للاكتفاء بالفرجة على الذين يحاولون مضاجعة كل نساء العالم، والاستمناء كمهووس يشجع اللعبة الحلوة.

لم تكن هناك آثار للعادة السرية يمكنني القلق من انتباه أي فرد لها حين يدخل الحمام من بعدي سوى الرائحة.. كنت أتأكد من ضياع القطرات، والخيوط البيضاء تماماً من عين الكابنيه، كما كنت أُصدر أحياناً أصوات تدل على مواجهتي لصعوبة في التبرز – أُجيد إطلاق نبرات متعددة للجيص بواسطة كفيّ – إذا ما تأخرت في الداخل، حتى لا يخطر الشك في أذهان من في الخارج.. رائحة الاستمناء، النفاذة، القوية، الخبيثة بكرم بالغ.. كنت أفكر في أمي، وأختي تحديداً، وليس في أبي، أو أحد أخويّ رغم أنهم المفروض الأكثر قدرة على تمييز تلك الرائحة.. كنت أعتقد أن أمري لو كُشف فذلك سيكون على يد أمي، وأختي، وأن أياً منهما ستتمكنان من إدراك الرائحة على الفور، ونسبها لي.. هل لأن أمي، وأختي هما أكثر من يبقى في البيت، وبالتالي أكثر من يدخل الحمام.. هل لأنني كنت متأكداً أنهما أكثر من يراقبني، أم ربما لاحظت أنه لابد أن تدخل واحدة منهما إلى الحمام بعد خروجي منه.. هل يطيب لي مثلاً تصور أن رائحة سائلي المنوي كانت ملحوظة فعلاً، وأن دخول أي منهما بعدي كان متعمداً للحاق بها قبل أن تتبخر يا دكتور؟!

هامش الرجل الذي ربما يكون طبيباً نفسياً،
أو خالق شخصيات كارتون

ليست أصابع شخص واحد.. أعني تلك التي تدفقت من مسامها ألوان منطفأة، تمزج بين شحوب الأبيض، والأسود، والرمادي، والأصفر.. الرسوم التي ترقد في دفتر قديم، يقاوم التآكل، وإن كان متهالكاً بالطبع.. بحّارة، وسجناء في زنازين تحت الجبال، وأطفال يكرهون المدرسة، ويراقبون العواجيز غرباء الأطوار، وصيادون، وربات بيوت خائفات، وعمال موانيء، وهواة تأمل الغيوم، وقراصنة، ومسافرون، ومهاجرون في قطارات وسفن، وأطباء يائسون، ومربو القطط والكلاب، وسعاة بريد متلصصون، وباعة صحف صغار، وموسيقيون متجولون، وفتيات في نوافذ بيوت متهدمة، والذين يتكملون كثيراً عن الذكريات، وعلماء مخيفون، وبائعات في دكاكين ضعيفة الإضاءة، وحوّاة يخترعون الحيّل لإنتاج بائسين جدد، وحلاقون متطفلون، والمطاردون من الكوابيس المتحوّلة، وموظفون غامضون، وعمال في مصانع لا تُعرف بدايتها، ولا نهايتها، وآباء يكتشفون الشوارع، ويحادثون المشردين، والغرباء، وفاقدي الذاكرة، وزوجات جنود، ومصورو الجماجم، والعظام التي خلّفتها الحروب، والمحتفظون بأوراق الشجر، والذين لا يرون جيداً.. يد كل منهم تركت ما حلم به صاحبها عن تاريخنا معاً داخل سجل التوثيق الذي يمر عبر السنين كوخز خفيف، مزمن، ومضحك ربما في العمود الفقري للوقت.. تتبادله الأماكن كأمانة لم يطّلع عليها أحد.. أنا، وهو كنا (ماري)، و(كريستي) في جميع الأحلام.. أنا (ماري) في (النرويج) خلال القرن السابع عشر بإحدى قرى الصيادين الفقيرة في منطقة (فارد).. اعترفت من داخل الثلج، والظلام بأن الشيطان أتاني في نومي، وطلب مني الذهاب إلى منزل (كريستي)، وخلال الطريق

طلب مني أن أعطيه روحي، وأصبح في خدمته، أخبرني أنه سيكافئني بسخاء.. وافقت على طلبه فغرس أنيابه بين أصابع يدي كعلامة على امتلاكه لروحي.. وصلت أنا، والشيطان إلى منزل (كريستي) فأخبرتني أن عليّ الذهاب معها إلى الغابة من أجل إقامة طقوس (سبت السحرة)، ثم قامت بقراءة تعويذة سحرية حولتني إلى (غراب)، وانطلقنا في رحلة إلى إحدى الجزر المنعزلة، وكان معنا العديد من الساحرات اللاتي تقمّصن أشكال، وأجسام مختلفة.. عند وصولنا إلى الجزيرة قمنا بخلع ملابسنا، ثم قبّلنا مؤخرة الشيطان، وأمضينا الليلة في الرقص، وقراءة التعاويذ، وصب اللعنات السحرية على الناس الأبرياء.. شاركت في العديد من حفلات (سبت الساحرات) كان آخرها عام **1620**، واعترفت بمسئوليتي عن العاصفة الهوجاء في أعياد ميلاد **1617** التي أدت إلى غرق، وموت العشرات من صيادي السمك؛ إذ قمت بعمل ثلاث عُقد في خيط ثم تلونا التعاويذ، وبصقنا عليها، وما أن جمعنا العُقد إلى بعضها حتى هاج البحر، وماج، وهبت عاصفة ابتلعت زوارق الصيادين.. أنا، و(كريستي) جالستان الآن في عيادة الطب النفسي بعد أن تم إعدامنا عام **1621** بالحرق مع فتيات أخريات، ولدينا الآن فرصة التأكيد للعالم بأن اعترافاتنا لم تكن نتيجة التعذيب كما سيتصور الجميع، بل هي حقيقية تماماً.. كنا نطير ممتطيين المقشات، ونلتهم اللحوم الآدمية، ونشرب الخمور، ودماء الأطفال.. لم نُضرب، ولم نُمنع من النوم، ولم نُجلد، ولم يُوضع اللجام في أفواهنا، ولم تُكوى جلودنا بقضبان حديدية ساخنة، ولم نُجبر على الجلوس على (كرسي الساحرات) المُغطى بمئات الإبر، والمسامير الحديدية الحادة، والأوتاد، والخوازيق، ولم يُلفق لنا أحد التُهم للحصول على المكافآت المالية، بل فعلنا ما فعلناه، ثم تكلّمنا، وأُحرِقنا فحسب.

كتبت من قبل سطوراً عن (الذنب) فيما يخص علاقته بأبيه، وأمه، لكنني الآن أريد أن امتد به نحو المنابع الواردة في الصراع مع السطوة الرمزية

للنماذج المثالية للحياة.. الغايات المشوّشة، المتغيرة، غير القابلة للتعريف، ولا للتكذيب بوصفها (القيمة الأخلاقية)، النابعة من إرادة الكون نفسه، والمؤكدة، والمفروغ منها، والتي لا يمكن الشك في (نواياها)، ولا (جدواها).. الحكمة مُرجِأة الجدل، وموطن الأساطير، والمُلهِمة بالوعود المضمونة بأمر أوصياء العائلة، والمعلمين، والشيوخ، وأبطال القصص، وشخصيات التليفزيون، والسينما، وكل (الكبار).. الذنب كامن في (التصديق)، والانتقام – الوجه في مرآة الذنب – يجب أن يتجاوز ما يمكن أن نسميه (إطار الذاكرة) – الحكايات المباشرة – نحو أساسها المحتمل في المطلق.. مركز الخداع.. الصراع بين الإصرار على الاستمرار في تحقيق المشروع الطفولي القديم، وتعويض خسائره بأي طريقة، واللحاق بأي نجاح يتم حصده قبل نهاية العالم – ربما يساهم في تغيير تلك النهاية – وبين تدميره كلياً؛ أي الرجوع بالزمن إلى ما قبل نقطة الصفر لتدارك المأساة، لو كان بالإمكان البدء من جديد.. للمزيد من التوضيح يمكن مراجعة لوحات العصور الوسطى المفضلة له، التي تصوّر الأكواخ العالية في الليل، والأشجار الكثيفة التي تحاوطها، والبشر الذين يُخبئون في حجراتها أسراراً، وخيالات غير مؤذية.

يمكننا التفكير إذن في أن قوة الرمز داخل السرديات المؤلفة بالقدرة الإخضاعية للقوانين التي تحكم العلاقات داخل النظام الاجتماعي في الطفولة – أخذ، وعطاء اللغة – والتي تمت إزاحة التيقن من كونها (أصل الشر) إلى اللاوعي كإثم، أو كرغبة سلبية، أو كنزوع للتدمير يجب أن يُعاد إنتاجها – فك رمزيتها – ككتابة، أو كرسم صور.. إلهامات، ومؤشرات.. كشف استعمالها للواقع، وليس انبعاثها كنتيجة حتمية له.. مسوخ (الدال) التي لا يمكنها التورط في (مدلول) محدد.. الإرشادات المنظمة للرغبة في عقدة (أوديب).. مرجع المابين، والمثال، والجذري، والعام، والمجرد، وساحة الضياع الكلي، والحذر، واللذة، والموت.

يكتب هذه الأيام عن واحد من أجمل الأفلام الكوميدية – بحسب تعبيره – في تاريخ السينما المصرية: (أنف وثلاث عيون).. تدور فكرة المقال حول عقيدة (كهربة الحياة)، التي ربما تنجح في إنقاذها من الموت؛ فأبطال الفيلم يبدو وكأنه تم توصيل أجسادهم بصواعق قوية، لم تجعلهم مجرد ممثلين يؤدون أدواراً – سواء نجحوا في ذلك، أو فشلوا – بل أظهرتهم في صورة مرضى أخذ أصحابها شحنات زائدة من الكهرباء.. صاروا معذبين بعنف الهويات الثقيلة التي فرضها الفيلم عليهم، والتي ينبغي أن يصدروها للمتفرجين بعنف مماثل.. أُنتج (أنف وثلاث عيون) عام 1972، وهي الفترة التي كان على السينما المصرية أن تولي جانباً من اهتمامها بالخطاب السائد عن الانهيار الأخلاقي الناجم عن اليأس العام بعد هزيمة 67، وموت (عبد الناصر)، وعن الانتماءات الوطنية، والقومية التي تمت خيانتها في ظل فوضى اقتصادية، وصراعات سياسية، وبداية صعود طبقة جديدة من البرجوازيين المتحالفين مع بيروقراطية القطاع العام، الذين ساهموا، واستفادوا من التحوّل إلى المجتمع الاستهلاكي.. لكن (الواقع) في حالته الطبيعية يبدو مائعاً، لا يثير الفزع كما يجب، ربما لأن لديه دائماً القدرة على إخفاء حقيقة مصائبه، أو تضمينها في ظواهر أقل ضراوة.. هنا يأتي دور السينما التي تدرك خطورة المرحلة، وتؤمن في ذات الوقت بمسؤليتها في (الكشف) عن (الوجه الحقيقي) لبشاعة التهديد الذي يتربص بـ (تاريخنا)!!.. ينبغي إذن – وهو ربما ما تحقق في "أنف وثلاث عيون" بإعجاز نادر – أن تُضرب مشاعر، وانفعالات كل شخصية في ألف، فلا يكفي أن يكون تجسيد النموذج متروكاً لتلقائيته، أو عاديته –المائعة– بل حتى نشعر بفداحة الكارثة يجب تُمنح تلك الشخصيات الكم المناسب من الكهرباء –المسكوت عنها في الواقع– لصعق المشاهدين، وإيقاظهم من غفلة اللذات العشوائية، والأنانية، من أجل دفعهم لإنقاذ (مصر)، وتغييرها نحو الأفضل.. مخاطبة الضمير النخبوي، المستسلم للهزيمة

القيمية، وللسقوط في دوامات المتع المحرمة، المخططة بأفكار، ومقولات التحرر – المستوردة – المعادية لـ (عادات، وتقاليد) الوطن.. هكذا حقق (أنف وثلاث عيون) كوميديته الفاجرة، بنفس الأدوات التي استخدمها صُناعه لجعله جاداً، وربما مأساوياً.

كان يجب علينا أن نتكلم الآن عن الألوان المائية التي تجف بسرعة، والتي لذلك كانت ملائمة للرسوم الخارجية السريعة، كالمناظر الطبيعية في القرون الوسطى.. قرأت له:

(يشمل تصوير العصور الوسطى في أوروبا أغلب الفن الذي أُنتج في الفترة التي تمتدّ من سقوط الإمبراطورية الرومانية في القرنين الرابع والخامس الميلاديين، إلى عصر النهضة الذي بدأ في القرن الرابع عشر الميلادي.. اهتم المصورون في تلك الفترة باستخدام الرموز، ولجأوا إلى التسطيح في رسومهم، وأهملوا المنظور، ولوّنوا السماء بألوان ذهبية، واهتمت كل الفنون –ومنها التصوير– بتثبيت الديانة المسيحية، وقد ظهرت عدة أساليب أهمها: البيزنطية: نشأت بعد أن انقسمت الكنيسة إلى قسمين؛ فتأسّس قسم شرقي في القرن الرابع الميلادي، وجعل عاصمته بيزنطة (إسطنبول حالياً)، وفي القرن السادس عشر الميلادي أصبح لهذه الكنيسة الشرقية فنّ تشكيلي مميز بها.. اهتم هذا الفن بالألوان الجميلة لكنه خالف الكنيسة في روما بأنه لم يلجأ إلى تصوير الأشخاص، كما هم في الحياة بكل تفاصيلهم. الرومانسكية التقليدية: ازدهر خلال القرنين الحادي عشر، والثاني عشر الميلاديين في أوروبا الغربية أسلوب أُطلق عليه اسم الرومانسكية.. هذا الأسلوب مزيج من الأسلوب الروماني القديم، والبيزنطي، وغير ذلك من الأساليب السابقة له، وقد ازدهر لانتشار المسيحية في تلك الفترة، وتميّز التصوير التشكيلي الرومانسكي بالمهارة في التكوين رغم عدم الاهتمام بالمنظور. التصوير التشكيلي القوطي:

انتشر خلال القرن الثالث عشر الميلادي، وكان أغلبه في مجال تزيين المخطوطات القيّمة بلوحات جميلة، وقد تأثر التصوير التشكيلي القوطي بفن الزجاج الملوّن الذي انتشر في ذلك العصر، لدرجة أن اللوحات الفنية كانت تُقسّم إلى أجزاء كما كان الحال في الزجاج الملون).

يمرق موتوسيكل تحت العيادة، يبعبص راكبه البشرية بمهرجان (الدنيا شِمال) لـ (محمود العمده).. يخبرني أن هذا المهرجان يصلح كمقدمة رائعة لكارتون Rupert Bear الذي كان يعشق مشاهدته في الطفولة.

أنا صاحب أشهر قول مأثور، مأخوذ من نص أدبي على الانترنت، وأكثر العبارات تداولاً، وانتشاراً، واستخداماً في التوقيعات، والصور، والمسابقات الأدبية في المدونات، والمنتديات:

(لا تخف.. ليس معنى الوقوف في النافذة أنك ستسقط.. ليس معنى السُعال أنك مصاب بالسرطان.. ليس معنى ضيق التنفس أن قلبك به شريان مسدود.. الحياة فقط هي التي معناها أنك ستموت).

أُكتب فقط في خانة بحث (جوجل): (لا تخف.. ليس معنى...)، ثم اضغط Enter واستمتع.

خلال مناقشته لروايتي (خلق الموتى) بنادي أدب المنصورة، وتعليقاً على إحدى المداخلات، رفض د. يسري عبد الله وضع اسمي في قائمة واحدة مع الأسماء السردية القاهرية المعروفة – لنا – مؤكداً أنه بعد قراءته للرواية، ولمجموعتي القصصية (قبل القيامة بقليل) يعتبرني متجاوزاً لهم.. أكد أيضاً أن من كتب رواية كـ (خلق الموتى) يعرف جيداً ما الذي تعنيه رواية ما بعد الحداثة.. بصرف النظر عن أن الجملة أقل بكثير جداً مما أستحقه صراحة إلا أنني لمحت عدم رضى عنها في عيون بعض الجالسين.. ابتسمت، وتجاهلت.. بعدها بفترة أعلن زميل قاهري ألوهيته السردية من نفس المكان، الأمر الذي دفع نفس الجالسين للتصفيق

الحاد.. الدرس المستفاد: أبناء إقليم شرق الدلتا بشر عاديون، يرونني كاملاً، متفرداً، ليس لدي عُقد أمارسها ضدهم، ولا ينتظرون أحداً من خارج الحدود كي يذكّرهم بحقيقة أنني بلا ثغرات تنتظر ترميمها.. لكنهم في نفس الوقت لا يتأخرون عن تقديم المساعدة لمن يحتاج إلى التخفف من الأحمال الخبيثة التي تكسّر ظهره، خاصة لو كان غريباً قاهرياً.. كما قال (برجسون): (نحصل على كلمة مضحكة بإدخالنا فكرة لا معقولة في قالب عبارة مقررة).

(15)

لي صديق كاتب قصص قصيرة اسمه (ممدوح رزق)، حينما أخبرته بالأمر أعد لي هدية فرحت بها كثيراً يا دكتور.. كانت عبارة عن مزاوجة بين القصة الأولى في اليوم السابع من (الديكاميرون) لـ (جيوفاني بوكاشيو)، وقصة (المدرسة الداخلية) لـ (أناييس نن) من مجموعة (دلتا فينوس):

(كان هناك في فلورنسا، في حي سان برانكاسيو، روائي شاب ميت.. كان جميلاً في صباه؛ شعره أشقر، وله عينا، وبشرة بنت أنثى.. في المدينة التي تسودها تقاليد الكاثوليكية القاسية أُرسل إلى مدرسة داخلية يديرها الجزويت، الذين يتبعون نمط الحياة المتقشفة حسب نظام القرون الوسطى.. فالأولاد ينامون على أسرّة خشبية بلا فراش، ويستيقظون صباحاً، ويحضرون الصلاة من غير إفطار، ويدلون باعترافاتهم يومياً، وهم دائماً تحت مراقبة عيون حريصة تتجسس عليهم.. لقد كان الجو خشناً، ومكبوتاً، وهناك يأكل القسس وجباتهم كلٌ على حدة، وتحيط بهم دوائر من القداسة المباركة، ولهم أسلوب لا تخطئه العين في إلقاء الكلام، وصنع الإشارات، والحركات.

أصبح الروائي الشاب الميت مرتلاً أول في كورال كنيسة سانتا ماريا الجديدة، وكان هذا المنصب يفرض عليه تقديم بعض الصدقات والهبات للرهبان، فيهدي إلى أحدهم سروالاً داخلياً، ولآخر عباءة، ولغيره كتفية؛ فكانوا يشكرونه على ذلك بتعليمه أدعية، وتراتيل مفيدة، ويقدمون له (أبانا الذي في السماء) باللهجة العامية، و(أغنية القديس أليجو)، و(حسرة القديس برناردو)، و(تسابيح القديسة ماتيلدا)، وحماقات كثيرة أخرى مشابهة، يحفظها هو بتقدير كبير، ويكررها بورع من أجل خلاص روحه.

كان الروائي الشاب الميت يتذكر دائماً أحد قساوسة المدرسة الداخلية.. كان داكن البشرة، ويجري في عروقه دم هندي، أما وجهه فهو وجه سنطور، أذنان كبيرتان بالمقارنة مع حجم رأسه، وفمه واسع بشفتين مفترتين، ودائماً يسيل لعابه منه، شعره غزير، وله رائحة بهيمة، وتحت ردائه البني الطويل كما لاحظ الأولاد يوجد غالباً نتوء لم يكن الصغار يتمكنون من تفسيره، ولكنه مدعاة لسخرية الناضجين الذين كانوا يسخرون منه من خلف ظهره، وكان هذا النتوء يبرز فجأة في أية ساعة حين يكون الدرس قراءة من دون كيشوت، أو رابليه، أو أحياناً إذا كان يراقب الأولاد، ويتأملهم بشكل مجرد، وبالأخص كان يراقبه، ويتأمله هو.. كان يحب الانفراد بالروائي الشاب الميت ليعرض عليه ما لديه من كتب في مكتبته الخاصة، ومن بينها مؤلفات تضم صوراً لفخاريات من حضارة الإنكا، وغالباً عليها نقوش لرجال يقفون قبالة بعضهم بعضاً، وكان الصبي يسأل أسئلة يجيب عليها القس العجوز بغموض، وفي أحيان أخرى تبدو الصور، والرسوم بمنتهى الوضوح، وفيها عضو طويل يبرز من وسط أحد الرجال ليخترق قرينه من الخلف.

كان الروائي الشاب الميت متزوجاً من شاعرة قصيدة نثر، لم تكن جذابة، ولا جميلة تُدعى السيدة نون، هي ابنة مانوشيو دي لاكوكليا.. امرأة حكيمة، ومتبصرة، تعرف سذاجة زوجها، وقد أُغرمت يوماً بكاتب قصص قصيرة، وهو شاب وسيم، ومفعم بالحيوية، وأحبها هو بدوره.. بمساعدة خادمة لها، رتبت السيدة نون أمر مجيء كاتب القصص القصيرة لتبادل الحديث معها في بيت ريفي جميل يملكه زوجها في كاماراتا، وتقضي الصيف فيه.. كان زوجها الروائي الشاب الميت يأتي في بعض الأحيان لزيارتها، ويبقى هناك لتناول العشاء، والنوم مع زوجته؛ لكن زياراته تلك لم تكن كثيرة.. في مساء أحد الأيام ذهب كاتب القصص القصيرة إلى هناك، ولأن الروائي الشاب الميت لم يأت في تلك الليلة، فقد ظل لتناول

العشاء مع السيدة نون، وأمضى الليل بين ذراعيها، وقد علّمته المرأة ستة من تراتيل زوجها، وقررا تكرار تلك اللقاءات الليلية، واتفقا معاً على أن يمر كل يوم، وهو عائد من أرض له قريبة، فينظر إلى دالية كرمة قريبة من البيت، حيث يجد جمجمة حمار معلقة على غصن من الدالية، فإذا كان وجه الجمجمة باتجاه فلورنسا، يكون الطريق آمناً، ويمكنه المجيء إلى البيت في تلك الليلة؛ وإذا لم يجد الباب مفتوحاً، يطرقه ثلاث مرات، فتفتحه له.. أما إذا رأى وجه الجمجمة باتجاه فيسولي، فعليه عدم المجيء لأن زوجها الروائي الشاب الميت يكون موجوداً هناك.

كان الروائي الشاب الميت يسترجع أيضاً جلسات الاعتراف بمدرسته الداخلية:

كان القس يغمر الصبيان بالأسئلة، وكلما بدا أنهم أبرياء، ألح عليهم بأسئلته في الظلام المخيم على مقصورة الاعتراف الصغيرة، والضيقة، ولم يكن بوسع الأولاد الراكعين أن يشاهدوا القس الجالس في الداخل.. كان صوته الهامس يأتي من خلال نافذة يغطيها الشباك، ويسأل: "هل تنتابك خيالات عاطفية على الإطلاق!.. هل تفكر بالنساء؟.. هل حاولت أن تتخيل امرأة عارية؟.. كيف تتصرف ليلاً، وأنت تستلقي في سريرك؟.. هل تلهو بأعضائك التناسلية؟.. هل تحب جسمك؟.. ماذا تصنع صباحاً حينما تنهض؟.. هل تشعر بالانتصاب؟.. هل تحاول استراق النظر من صبيان آخرين، وهم يبدلون ثيابهم؟ أو وهم يغتسلون في الحمام؟".

الصبي الذي لا يعرف شيئاً عن ذلك سوف يفهم سريعاً ماذا يجب عليه أن يقول، ويشعر بالعذاب من جراء الأسئلة، والصبي الذي لديه فكرة عن الموضوع يشعر بالمتعة خلال الإدلاء باعترافاته عن نوازعه، وأحلامه بالتفصيل.

كان يوجد صبي يحلم كل ليلة، ولم يكن يعرف كيف هو شكل المرأة، ومما

هي مصنوعة، ولكنه شاهد الهنود يمارسون الحب مع فيكونا، التي تشبه غزالة رقيقة، وحلم بممارسة الحب مع الفيكونات، وكان يستيقظ، وهو مبلل بنطافه كل صباح، وكان القس العجوز يشجعه على الإدلاء باعترافاته هذه.. يصغي له بصبر لا ينفد، ويفرض عليه عقوبات غريبة.. كان يطلب من الصبي الذي يستمني باستمرار أن يذهب للمصلى في الدير برفقته حينما يكون مهجوراً، ويغمر عضوه في الماء المقدس، وهكذا يتطهّر، ويصبح نقياً بلا شوائب.. مثل هذه الطقوس كانت تجري في الليل بسرية بالغة.

كان هناك غيره صبي شرس له محيا أمير مغربي صغير، ووجه أسود، وقسمات نبيلة راقية، وشجاعة الأباطرة، وجسم متناسق التكوين، وبض حتى أن عضلاته، وعظامه لا تبرز فيه.. إنه ناعم، ومتناسق كأنه تمثال.

تمرد هذا الصبي على عادة ارتداء ثوب النوم، واعتاد على النوم عارياً فالبيجامة تخنقه، تكبّل حركاته، غير أنه يرتديها كل ليلة مثل سواه من الصبيان، ثم سراً ينتزعها، وهو راقد تحت الملاءات، والأغطية، ثم يغط بالنوم.

في كل ليلة يقوم الجزويتي العجوز بجولات تفتيش ليتأكد أن الأولاد لا يزورون أقرانهم في السرير، ولا يستمنون، ولا يتبادلون الكلام في الظلام مع المجاورين لهم، وعندما يصل لسرير الصبي غير المستقيم، يرفع الغطاء بتؤدة، وحذر، ويلقي نظرة على جسمه العاري، ولو استيقظ الولد يؤنبه قائلاً: "حضرت لأتأكد أنك تنام من غير بيجامة مجدداً!"، ولو أن الصبي لم يستيقظ يأخذ منه نظرة مستقرة طويلة يتأمل بها جسمه الشاب الراقد.

يتذكر الروائي الشاب الميت في إحدى المرات خلال درس التشريح حينما كان جالساً يستمع، ويرنو بينما الجزويتي العجوز يقف على منصة

التدريس، وكان البروز تحت ثوبه الكهنوتي واضحاً للعيان لكل ناظر. سأله الجزويتي العجوز: "كم عدد العظام في جسم الإنسان؟"

رد الروائي الشاب الميت بميوعة، وقال: "مائتان، وثمانية". جاء صوت صبي آخر من نهاية الصف قائلاً: "ولكن لدى الأب دوبو مائتان، وتسعة!"

التقى كاتب القصص القصيرة، والسيدة نون مرات كثيرة، وفي أحد الأيام، وكان مفروضاً أن يأتي كاتب القصص القصيرة للعشاء مع السيدة نون، فأعدت له عشاء فاخراً بشواء ديكين سمينين، ولكن.. حدث أن حضر الروائي الشاب الميت في وقت متأخر، فتضايقت السيدة نون كثيراً من مجيئه، وخبأت الطعام الفاخر في شرشف أبيض، وتناولت معه قليلاً من اللحم المملح، والمقدد، ثم أمرت الخادمة بأن تحمل الديكين المشويين، وكمية من البيض الطازج، والنبيذ الفاخر إلى مكان في الحديقة حيث يمكن لعشيقها الدخول دون المرور بالبيت، وحيث اعتادت أن تتناول العشاء معه في بعض الأحيان، وطلبت من الخادمة أن تضع ذلك كله عند أصل شجرة دراق بجوار مرج صغير، وكان استياؤها شديداً حتى إنها نسيت أن توصي الخادمة بأن تنتظر إلى أن يحضر كاتب القصص القصيرة، وتخبره بمجيء الروائي الشاب الميت المفاجيء، وبأن يأخذ تلك الأشياء من الحديقة.

بعد أن أوى الزوجان إلى فراشهما، قرر الروائي الشاب الميت بفرح أن يحكي مجدداً للسيدة نون أنه ذهب مع أولاد المدرسة الداخلية برحلة إلى الطبيعة، وضل الطريق منهم عشر أولاد، ومن ضمنهم هو.. وجدوا أنفسهم في غابة، بعيداً عن الأساتذة، وبقية الزملاء في المدرسة، وجلسوا ليأخذوا قسطاً من الراحة، ثم قرروا اتخاذ مبادرة يكسرون فيها الروتين.. بدأوا بالتهام التوت، ولكن كيف بدأ ذلك، لا أحد يعلم بالضبط.. بعد فترة قليلة أُلقي الروائي الشاب الميت على بساط الأعشاب، وتم تجريده من

ثيابه، وأُلقي على بطنه، وجلس فوقه الأولاد التسع الآخرون، واغتصبوه كما لو أنه عاهرة، وفعلوا ذلك بقسوة، وقد اخترقه الصبيان الخبيرون بما يفعلون من الخلف لإشباع رغباتهم، بينما الأقل خبرة لجأوا لحك سيقانهم مع ساقي الصبي، الذي له بشرة حساسة مثل امرأة، ثم بصقوا على أيديهم، وحكّوا أعضاءهم باللعاب.. كان الروائي الشاب الميت يصرخ، ويرفس ويبكي، ولكنهم تكاتفوا جميعاً لتقييده، والاعتداء عليه حتى النهاية.

حضر كاتب القصص القصيرة، وطرق الباب برفق، وكان قريباً من غرفة نوم الزوجين، فسمع الروائي الشاب الميت الطرق بوضوح، وسمعته كذلك زوجته، ولكنها تظاهرت بالنوم كي لا توقظ شكوك زوجها، وبعد قليل، طرق كاتب القصص القصيرة الباب مرة أخرى، فنبّه الروائي الشاب الميت زوجته، وقال لها:

- أتسمعين يا نون؟.. هناك من يطرق الباب...

وكانت المرأة تسمع خيراً منه، ولكنها تظاهرت بأنها تستيقظ من نومها، وقالت له:

- ماذا تقول؟...

فكرر الروائي الشاب الميت:

- أقول إن هناك طرقاً على الباب.

- طرق على الباب؟.. آي يا أيها الروائي الشاب الميت! أتعرف ما هذا؟.. إنه شبح أخافني كثيراً في الليلة الماضية، حتى إنني غطيت رأسي، ولم أتجرأ على رفع الغطاء عنه حتى الصباح.

عندئذ قال الروائي الشاب الميت:

– لا تخافي يا امرأة، فعندما أوينا إلى الفراش، وبعد أن حكيت لكِ ما جرى لي في المدرسة الداخلية، تلوت دعاء (تي لوشيس)، و(إنتريمراتا)، وصلوات أخرى؛ كما أنني رسمت إشارة الصليب على الفراش باسم الأب، والابن، والروح القدس؛ فلا يمكن لشبح، مهما كانت سطوته، أن يُلحق بنا الأذى.

ولخشية السيدة نون من أن تخامر كاتب القصص القصيرة الشكوك، وتذهب به الظنون مذهباً آخر، قررت أن تنهض، وتنبهه إلى أن زوجها موجود معها في الداخل، فقالت للروائي الشاب الميت:

– ما تقوله كلام حسن، ولكنني لن أشعر بالطمأنينة إلى أن نطرد هذا الشبح معاً، لاسيما أنك موجود هنا الآن.

قال الروائي الشاب الميت:

– وكيف تريدين طرده؟...

فقالت المرأة:

– انظر يا عزيزي الروائي الشاب الميت، عندما ذهبتُ أول أمس إلى فيسولي، علمتني متدينة ورعة دعاء بالغ القداسة، وقالت لي إنها جربته مرات عديدة قبل أن تدخل سلك الرهبنة، وقد أفادها على الدوام، ولكن الله يعلم أنني لم أتجرأ قط على تجريب هذا الدعاء، وأنا وحيدة، وبما أنك الآن معي، فإنني أريد أن نذهب معاً لطرد الشبح بهذا الدعاء.

وافق الروائي الشاب الميت على طلبها، ونهضا معاً، ونزلا إلى الباب؛ وهناك قالت السيدة نون:

– عليك أن تبصق عندما أطلب منك ذلك.

وبدأت المرأة بالدعاء قائلة:

– أيها الشبح، الشبح، يا من أتيت منتصب الذيل، ستُصرف الليلة، وأنت منتصب الذيل؛ فاذهب إلى البستان، عند أصل شجرة الدراق الضخمة، وستجد هناك شحماً مطبوخاً، ومئة بعرة من روث دجاجاتي؛ فخذها، وتلذذ بأكلها، وانصرف بسرعة، ولا تُسبب الأذى لي، ولزوجي الروائي الشاب الميت.

وما إن انتهت من قولها هذا حتى أمرت زوجها:

– ابصق الآن أيها الروائي الشاب الميت!

بصق الروائي الشاب الميت، وكان كاتب القصص القصيرة يسمع من الخارج، فتلاشت غيرته، وأوشك على الانفجار بالضحك، لكنه قال بصوت خافت، حين بصق الروائي الشاب الميت:

– فلتبصق على العفاريت!

وبعد أن عزّمت السيدة نون على الشبح ثلاث مرات بهذه الطريقة، رجعت إلى الفراش مع زوجها، أما كاتب القصص القصيرة الذي كان يأمل بأن يتناول العشاء معها، فأدرك ما الذي تعنيه كلمات الدعاء.. فقد ذهب إلى حيث شجرة الدراق في البستان، ووجد هناك الديكين المشويين، والنبيذ، والبيض، فحمل كل ذلك إلى بيته، وتعشّى على خير ما يرام، وصار كلما التقى بالسيدة نون بعد ذلك، يضحك، وإياها مقهقهين من ذلك الدعاء السحري).

بالطبع لم أتوقف يا دكتور.. أصبحت أمارس العادة السرية ما يقرب من أربع مرات كل يوم، واستمريت في النوم مع جارتي، وكنت أبدّل بينها، وبين (سعاد حسني)، و(نجوى فؤاد)، و(سهير رمزي)، و(ميرفت أمين)، و(نبيلة عبيد)، و(مديحة كامل)، و(ليلى علوي)، و(مارلين مونرو)، و(صوفيا لورين)، و(جين مانسفيلد).. حينما تفرغ خزانة الصور،

والمجلات -لا أدري الآن السبب الذي منعني من الاحتفاظ بالصور، والمجلات، وهل كان الخوف من الفضح هو الدافع الذي جعلني لا أُبقي على غنائمي الساحرة مدة طويلة، والتخلص منها في أسرع وقت، أم أنه كانت هناك أسباب أخرى- كنت أعتمد على قوة خيالي في نسج حكايات، ومواقف مختلفة تؤدي للنوم مع كل واحدة.. قصص واقعية أجمل ما فيها قدرة تفاصيلها العادية على إثبات أنها للوهلة الأولى لن تقود إلى الجنس.. لكنني فجأة أخلق حدثاً صغيراً، تتفجر على إثره المشاعر الشبقية العاتية التي تقود إلى المضاجعة.. كانت هذه معجزة (سعاد حسني) خاصةً يا دكتور.. موهبتها الجنسية في التعري، والتقبيل، وفي امتلاك الفراغ بالنظرات، والتلميحات، والابتسامات الشهوانية بتلقائية غريبة، وعبقرية، تتخطى بها، وتتفوق على جميع الممثلات، والراقصات.. راقب يا دكتور كيف كانت تكشف جسمها، وكيف كانت تتحرك بتلك المناطق المكشوفة في حياد ظالم، وكيف كانت المناطق غير المكشوفة تتحول - إثر ذلك - إلى سماء نائمة في حِجرك، لكنك لن تلمسها.. (سعاد حسني) كانت تقول لك دائماً بعينيها، وهي متجهمة حتى، أو تبكي (أنا لم أكشف عن ثدييّ، ولكنهما قاما بتعرية نفسيهما استجابة لحاجة طبيعية، أو لمبرر منطقي بينما كنت منهمكة في نقاش عن حالة الجو، أو زحمة المرور، أو عن وصفة طعام جيدة.. الاستغراق في أمور الحياة ليس إلا تخديم على جسدي الذي يعرف كيف يتولى أموره بنفسه).

هل تحدث معها عن قريتها، عن أبيها، عن الرجال، واللغة، والإذلال المحتوم في التقارب؟!.. بماذا أخبرها عن الحنان، والذنب، والسلطة، والسلب، والتعويض؟!.. هل أخبرته ماذا فعل كل الرجال بها؟!.

أتذكر يا دكتور أنني في إحدى فترات افتقاد الصور، والمجلات السكس، أو ربما خلال الزمن الذي سبق التعرف عليها بقليل كنت أحياناً أُمسك بالقلم

الفلوماستر البني، وأضيف حلمات إلى صور النساء اللاتي كن يرتدين المايوهات في مجلات (حواء) القديمة الخاصة بأختي.. كنت أُشكّلها بالطريقة التي تجعل السوتيان يبدو كأنه قد انزاح قليلاً فكشف عن جزء صغير من الحلمة.. كنت أُضيف بالقلم الفلوماستر الأسود بعض الشعيرات عند حافة الكلوت ليبدو كأن جزءاً من العانة قد ظهر.. مرة كانت أمي، وأختي تُرتبان الحجرة.. كنت واقفاً معهما، ورأيت يد أختي تمتد بالصدفة لتفتح أحد أعداد (حواء) المدفوسة تحت التراب.. وجدت عينيها تتسعان من الصدمة، وملامحها تتقلص، وتنتفض من الغضب، وهي تعطي المجلة المفتوحة لأمي كي تشاهد (المصيبة).. شعرت بأنني هالك لا محالة، وأن الليلة ستشهد عقاباً جماعياً لي لم يخطر على قلب بشر.. فوجئت بأختي تقول لأمي بمنتهى الاستياء، والتقزز: (البيه إللي على وش جواز بيعمل زي المراهقين الأوساخ).. في البداية لم أفهم، ولكنني بعد لحظات أدركت بمنتهى الشكر، والامتنان أن أخي الذي يكبرني بخمسة عشر سنة قد لبس التهمة بدلاً مني.. على الفور استدعت عينيّ نظرة البراءة، غير الواعية بما يحدث حولها، بينما قلبي الذي كاد يتوقف منذ لحظات بدأ يرقص ضحكاً على أمي التي غمزت لأختي، وهي تقفل المجلة كي تتوقف عن الكلام حتى لا آخذ بالي.. الأجمل، والأغرب يا دكتور أن أياً منهما لم تأتِ بسيرة الموضوع لأخي، فنجوت للمرة الثانية من الاتهام الذي فلت منه أول مرة، والذي كان سيصيبني بالتأكيد حين ينكر أخي الجريمة، وبل حين يعاقبهما بأي شكل على نسبها إليه.. ربما كان في الأمر من الإحراج ما منع أمي، وأختي من التحدث مع أخي فيه، وهذا يدفعني للضحك الآن يا دكتور حينما أفكر في أن أمي ماتت، وأن أختي ستموت باعتقاد أن أخي هو من كان يضيف الحلمات، وشعر العانة لنساء مجلة (حواء)، وأن أخي قد مات أيضاً، وهو لا يعرف بأنهما لم تترددا في اختياره كفاعل لتلك الجناية.. هل كان يبدو عليّ الأدب، والخُلق الحميد للدرجة التي تستبعدني

بشكل بديهي جداً من دائرة الشك، مقابل اعتبار المسألة أكثر منطقية حينما يقوم بهذا شاب في آواخر العشرينيات.. ربما لم يكن هناك أحد في البيت –خاصة أمي، وأختي– يستطيع أن يصدق، أو يخطر في باله من الأساس احتمال أنني قد أمتلك الشجاعة، والجرأة التي تجعلني أُفكر – مجرد التفكير– في هذه المحرمات.. ما بالك يا دكتور إذن أن أضيف احتياجاتي البصرية لصور المجلات، وأُعيد صياغة الأجساد شبه العارية بما يحررني قليلاً من الاختناق، أو بالأصح يُزيده.. رأيت الغيرة تشتعل داخل مشاعر الغضب، والتقزز عند أختي.. الغيرة من الرغبة الذكورية لأنها أعلنت عن نفسها بطريقة ما، حتى لو كانت بدائية، وساذجة.. الغيرة من الرغبة لأنها موجودة أصلاً عند أحد آخر، حيث كل الرغبات تُذكر بعضها بما يعنيه الكتمان، وتضغط بقسوة على كل حرمان مماثل.. ربما رأت أختي في صور مجلات (حواء) بعد التعديل كافة الأعضاء الذكرية التي لم تتمكن من إضافتها لصور الرجال.. لم أرى في وجه أمي الغيرة، بل رأيت استدعاء فوري لمزيد من الطاقة الشاحبة، اللازمة لمعاونتها على التمسك بالصورة الخارجية للأم.

أتخيّل لو كنا نحن الثلاثة أصدقاء.. كنا سنتفق على اشتغالات نضحك بها على الجميع داخل الوسط الأدبي.. نوزع أدواراً على أنفسنا، وننشر تدوينات، وموضوعات في الصحافة العربية بأسماء مستعارة عن شخصيات، وأحداث، وكتب وهمية، وتفشخنا القهقهات الشاخرة على التعليقات، وردود الأفعال.. ربما سيخرج من السيدة نون أثناء الضحك جيصاً ستعتذر في البداية مدعية أنه كان رغماً عنها، لكنها ستعقبه على الفور بواحدٍ آخر أكثر قوة حتى تزيد ضحكاتنا.. كنا سننتهز مشينا في وقت متأخر داخل شارع قاهري خالٍ، شبه مظلم حتى أضاجعها أنا، والروائي الشاب الميت على الواقف في أحد أركانه.. سيكون في حقيبتها – بالصدفة – كتاب (المبتسرون)، وستكون به علامة عند الصفحة التي

تقول فيها (أروى صالح): (من الأحاسيس الغريبة إللي بتلح عليا دلوقتي – ومش فاهمة طلعت منين – ومش قادرة أقاومها رغم ما فيها من قسوة، النفور من العواجيز! نفور أحياناً بيوصل لدرجة شعور جسدي بالاشمئزاز! باحس إنهم سُبّة في وجه الحياة، وبافتكر حاجة بشعة سمعتها عن تقليد ياباني، إن الناس لم تعجّز تأخذ قليل جداً من الزاد، وتطلع على قمة جبل، تستنى الموت فيه!.. غصب عني ابتديت أشوف فيها فكرة! وابتدِت تداعبني فكرة إني لما أوصل مرحلة معينة من العجز أنتحر).

كنا سنُجبرها على خلع كلوتها في دورات مياه الأماكن التي تُقام فيها الندوات، ثم نشير لها به من وسط الجالسين، وهي تقرأ الشعر.. ما كنا سنسمح لها أن تُغلق على نفسها باب الحمام، وهي تقضي حاجتها، وكنا سنُبقيها عارية أمامنا تماماً طوال الوقت، لكننا كنا سنترك النظارة فقط على وجهها، وهي تُحدثنا عن البلاغة القديمة، وتاريخ الطبقة الوسطى، وصورة المرأة المصرية في سينما التسعينيات.. كنا سنكتب فقرات من كتاب (المثقفون) لـ (سيمون دي بوفوار) على جسمها، وكنت سأحب أن أكتب على بطنها: (وبقي في المطبخ بينما كنت أتعرّى. والتففت بين الأغطية، تحت الغطاء المكسيكي. كنت أسمعه يحوم، ينضد، يفتح ويغلق الخزانات، وكأننا زوجان منذ زمن طويل. بعد كثير وكثير من الليالي التي أمضيتها في غرف فنادق، في غرف أصدقاء، كان من المريح أن أشعر أنني في بيتي، في هذا الفراش الغريب عني. وكان الرجل الذي اخترته والذي اختارني يهم بالرقاد إلى جانبي).

كنا سنأخذ كوب الشاي من يدها، وندخل به أنا، والروائي الشاب الميت بالدور إلى دورة مياه المقهى، ثم نعيده إليها حتى تشربه شاي بلبن.. كنا سنشترك في كتابة نص طويل عن شارع عماد الدين، و26 يوليو، وعبد الخالق ثروت، وجروبي، وريش، والأتيليه، وزهرة البستان، والجريون،

والنادي اليوناني، ثم نخلق داخله نصاً آخراً افتراضياً يشارك فيه نجيب محفوظ، وأمل دنقل، ويحيى الطاهر عبد الله، ويوسف إدريس، ونجيب سرور، وأحمد فؤاد نجم، وعبد الرحمن الأبنودي، وبعد ذلك لا يعجبنا فنمزقه، ونتخلى عن الفكرة.. كنا سنأخذ طفل شوارع إلى الشقة بعد أن نشتري له ملابس جديدة، ونقدم له الطعام، والشراب ثم نحدثه عن حرب الخليج، وحزب العمال الشيوعي، وأحمد عدوية، و8 يناير، والحشيش، والتيار الثوري، وما بعد الحداثة قبل أن ننهال عليه فجأة بالضرب، والشتائم، ونطرده.. كنا سنؤلف أغاني وطنية عن الخرتية، وعن الأجنبيات المتعطشات للقضيب الأدبي المصري، وعن الجبهة الشعرية للدفاع عن أزواج الشراميط.. كنت سأجننها بالتناقض بين كلامي، وحركاتي؛ أقول لها أنها دميمة، ومقرفة، وأنه لا يقف عليها إلا لطيبة بيضتيه، بينما يديّ تعريان جسمها، وتقطّعان لحمها.. كانت أجمل لحظاتنا ستكون حينما تتمدد بيننا أنا، والروائي الشاب الميت على السرير، ونمارس العادة السرية في وقت واحد.. لا تنكري.. الآن تتخيلين كل هذا، وأنتِ تقرأين.

أضفت لبطلات استمنائي يا دكتور مومساً في الشارع الذي أسكنه.. كانت تتنقل بين سراير المصريين بمختلف مستوياتهم الاجتماعية، وسراير الخليجيين في الفنادق، والشقق المفروشة، كما أنها عملت فيلم سكس مع تاجر مخدرات.. كانت واحدة من اللاتي اتّبعن ستايل (ليلى علوي)، والذي كان سائداً في التسعينيات.. ساعدها على ذلك جسمها القصير، الممتليء، والمدملك.. أضافت إليه ماشيت الشعر، والمكياج الفاقع، والملابس التي تبرز ثدييها الكبيرين، ومؤخرتها العريضة المنفوخة، التي تترجرج في مشيها داخل جيبة قصيرة، تنتهي عند منتصف الركبة، تاركة فتحة خلفية لتُبرز بطني الركبتين، وجزءاً من طراوة الفخذين الساخنين.. كانت البديل الأكثر واقعية لـ (ليلى علوي) في تخيلات عادتي السرية، حيث لم أكن مضطراً لأن أصبح بطلاً سينمائياً حتى أشاركها فراش أحد الأفلام، بل كان

يمكنني أخذ واحدة في نفس جسمها تقريباً إلى الكابنيه، ودون مقابل.. أتذكر أنني رأيتها أكثر من مرة في الشارع تحمل عدداً جديداً من مجلة فنية على غلافها (ليلى علوي) بما يعني حرصها على تتبع، واقتناء تذكارات مثلها الأعلى.. بالطبع لم يخطر في بالي وقتها أن بإمكاني ممارسة الجنس فعلياً مع هذه المومس مثلما يفعل غيري.. ليس لأنني لا أمتلك الثمن، ولكن لأنني لن أقدر على طلب ذلك منها، ولأنني سأخاف أن أفشل في مضاجعتها لو وافقت.. ربما سأعترف لأسرتي بما فعلته معها.. لأنها سترفض، ولأنها ستخبر أبي، وأمي بأنني سافل، وقليل الأدب، ومعدوم التربية.. لأن أبي سيضربني بكفه الغليظ، وستحرقني أمي بالملعقة، أو ستضع الفلفل الأسمر في فمي مثلما فعلت ذات مرة، ولا أتذكر السبب.. أشعر بطعمه الآن، وأنا أحكي لك يا دكتور، أشعر به يختلط بطعم مهبل المومس الذي لم أتذوقه.

كان المفروض أن يدرس الروائي الشاب الميت الفن التشكيلي في العصور الوسطى.. بدأت أقرأ، وأعمل في هذا الموضوع يا دكتور.. قابلته هو، والسيدة نون كثيراً في اللوحات التي صادفتها، مثلما قابلت آخرين كثيرين جداً.

لم تكن العادة السرية فقط هي التي لا أعرفها حتى المرحلة الثانوية يا دكتور.. كان هناك شيء آخر لم أكن أعرفه أيضاً.. كان معي في المدرسة الثانوي صاحب من أيام إعدادي، وتعوّدنا على القفز من فوق السور بعد الحصة الأولى، أو في الفسحة، ثم الذهاب إلى السينما.. ذات مرة اتفق معي على الذهاب لبيت صديق له بعد الهروب من المدرسة كي نشاهد فيلم سكس.. أخيراً سأشاهد فيلم سكس يا دكتور.. أخيراً ستتحرك الصور الثابتة.. بمنتهى الحماس، والفرح قفزت من فوق السور مع صاحبي، وركبنا التاكسي إلى بيت صديقه، واكتشفت أنه يسكن في عمارة يملكها

أبوه، وأنه يعيش وحده في إحدى شققها المجهزة بالتليفزيون، والفيديو، والأفلام السكس.. بدأ الفيلم، وأنا أحاول بقدر ما أستطيع إخفاء التوتر، والارتباك في تلك اللحظة الفارقة من حياتي التي لا يعلم صاحبي، وصديقه أنني لم أشاهد خلالها فيلماً كهذا من قبل.. لم يكن جميلاً بالتأكيد أن يعرف أحد عني هذا يا دكتور.. جلست متأهباً، وقلبي يدق بسرعة، وأنا أحدّق في الشاشة، وعينيّ تترقبان بشدة لحظة القلع، والركوب المنتظرة.. كان فيلماً ألمانياً عن سبّاك ومساعده يمرّان على البيوت حيث ينتظرهما في كل بيت امرأة، أو أكثر.. أول لحظة عري مصوّرة شاهدتها في حياتي عندما دخل السبّاك ومساعده أول بيت، وتوجها إلى الحمام؛ فوجدا صاحبته عارية تماماً، وتضع الحنفية التي تسّرب الماء في فتحة شرجها.. ترك السبّاك مساعده يصلح الحنفية، وأخذ صاحبة البيت إلى السرير.. عندما بدأت المضاجعة، وجدت السبّاك يتحرك للأمام، وللخلف، وعضوه داخلها.. يتحرك دون توقف.. بتلقائية، ودون تفكير سألت صاحبي (هو الراجل ده بيعمل كده ليه؟!).. حاول صاحبي أن يفهم معنى سؤالي، وحينما فشل سألني (انت كنت عايزه يعمل إيه؟!).. لحظتها سكت تماماً حتى لا أفضح نفسي.. أيقنت أن الرجل حينما يضع عضوه في المرأة لا يظل ثابتاً.. عليه أن يدفعه داخلها طوال الوقت حتى يصل إلى الأورجازم.. استرجعت على الفور ملايين الحكايات، والمشاهد الجنسية التي تخيلتها قبل أن أبدأ في ممارسة العادة السرية، وأيضاً بعد أن تعلّمت كيف أمارسها، وكنت في جميع تلك الحكايات والمشاهد أضع عضوي، وأنتظر.. فقط.. كيف لم أفهم طبيعة الممارسة لوحدي وفقاً لحركة الاستمناء نفسه؟!.. كيف لم أفهم أن حركة اليد هي بديل لحركة العضو؟!.. لا أعرف لماذا جعلني هذا الفيلم أتذكر مشهد وقوفي مع أبناء خالي حول سرير أبيهم، وأمهم، وهما يداعبان بعضهما.. كأن الأفلام تستدعي بعضها، أو كأن كل فرجة هي استكمال لمنظر سابق مهما اختلفت الأماكن، والأزمنة،

والبشر.. ربما ذاكرتي التي تقودها الشهوة تلعب (بازل) طوال الوقت؛ تُجمّع الأجزاء الناقصة، والمبتورة، وتضمها لبعضها بحثاً عن الصورة الكاملة، الغامضة، التي تفتش عنها منذ البداية.. بعد هذا الفيلم تطوّرت معرفتي بكيفية ممارسة الجنس يا دكتور، وكذلك فنونه كخبرة تتطلبها عادة سرية مثالية، ستظل مدعومة بجميع الأفلام التي لا حصر لها، والتي لازلت مستمراً في مشاهدتها منذ سنوات طويلة جداً.

الذكريات تُستخدم في اختراع الماضي.. أنت بالتأكيد تعرف هذا جيداً يا دكتور.. هناك ذاكرة كان ينبغي أن تولد، وحياة كان يجب أن أخلقها.. ذلك لن يحدث – أنت تعرف هذا أيضاً – إلا بالأكاذيب.. تحويل السيرة الذاتية إلى مجاز.. بصرف النظر عن أنك تستحق أن يضحك الواحد عليك، ويخبرك بأشياء غير صحيحة – أنت تستحق جداً – فإنني بشكل شخصي استمتعت بتدافع، ونسج، وتنظيم المشاهد الخاطئة في كل ما قلته لك.. أنت تذكرني بكل معرصي الحكمة على (الفيس بوك) الذين يبدأون ستاتساتهم بـ (البشر ينقسمون إلى).. (الفرق بين الذوق العام، والذوق الخاص هو).. (المشاعر الإنسانية هي).. (الثورة تحتاج منا إلى).. (اتجاه فتحة الطيظ أثناء الشخ يجب أن يكون).. ما بعد ذلك ليس سخرية من شيء، بل أولاد الوسخة يتكلمون بجد.. أيضاً أصحاب الكبرياء الثقافي، الطامعون في تحول استثنائيتهم إلى سير شعبية تُروى على مقاهي الغوغاء، والرعاع كي تُخلد حصانتهم ضد السائد، ومفارقتهم للحس العمومي.. يسخرون بعنجهية جديرة بالشفقة من تفضيلات الآخرين في الأدب، والسينما، والغناء، ثم يبكون على عرضهم المهتوك لو مس أحد تفضيلاتهم.. أنت مثلهم.. بالمناسبة هل تعرف فعلاً الاتجاه الصحيح للفتحة؟!.

اسمها لا يبدأ بحرف النون.. هو فقط حرف مستعار طبعاً يا دكتور.. هو نون النسوة مثلما قرر كيتش اللغة.. لكن الأهم هو أن أمي يبدأ اسمها في الواقع بحرف (النون) أيضاً.

هامش الرجل الذي ربما يكون طبيباً نفسياً، أو صاحب مقهى باريسي في الثلاثينيات

فضل (شوبنهاور)، و(نيتشه) على (فرويد) في اكتشاف اللاشعور..

نستخدم اللغة التي حددها لنا رجال الدين بالقرون الوسطى في الاستمتاع باللعبة، بالاشتغالة التي اتفقنا على التعاون في ابتكارها.. زلة اللسان، ونسيان الأسماء، والتحقير ليس من الضروري أن تكون دليلاً على كبت أوديبي، وجنسي، كذلك الأحلام.. أقمنا حفلاً للتحليل النفسي، ثم وضعنا الشمع في خرومه.. اختراع مرضى يخدمون النظرية.. صنعنا تورتة شهية، ثم كتبنا عليها بخرائنا أن (الفرويدية) عصا رجل أعمى، وليست الشارع الضيق الذي يعبره، ثم أجبرناه على أكلها.. كتابة نص يمر في المغامرة الوجودية لـ (فرويد)، تشابك سيرتين ذاتيتين لا أكثر.. علقنا زينة في السقف، ثم اكتشف حين لمسها بالصدفة أنها ثعابين مدلاة تدعي النوم.. استخدام التذكر اللاواعي، والتأويل الذاتي، وذكريات قتل الأب في السخرية من علم النفس.. غرسنا أسنان الشوكة في عينيه حتى نزف كل ظنون النهايات السعيدة من بصره.. قبّلنا رأسه فلما اطمأن اكتشف حريقاً هائلا داخلها، أكل ثقته في الرهاب، والهستيريا، والبارانويا.. أجلسناه أمام مرآة العيادة فلم ير نفسه، بل هلوسات مبتورة، تجذب شذرات من كل اتجاه، وتُدمج نكات تبدو للوهلة الأولى لا علاقة لها ببعضها في أواصر هازئة.. تفضل حلل بنفسك، واكتشف أوهاماً جديدة.. تاريخ داخل خيال داخل ذاكرة، كأطراف أخطبوط كوني مقطوعة، تخلق صلات بلا هدف، حيث تتساوى كل الأشياء دون حاجة لمعيار.

هل تعرفون أباً سبق أن فكّر في قتل ابنته ذات الثلاث سنوات لأنها قالت له: (أنا معايا مصاصة, إنت لأ).. ابنته التي هي نسخة مصغرة من أمه.

في إحدى لوحات (ادموند بلير ليتون) عن العصور الوسطى يمد العاشق باقة ورد من النافذة إلى حبيبته النائمة.. أول ما رآها ظن أنها ميتة، بل ربما لا يزال متأكداً من هذا.. لا أتكلم عن العاشق، بل عن الذي يتأمل اللوحة أمامي الآن.

أريد أن يُقال من ضمن ما يمكن أن يُقال عن هذه الرواية: (لقد وقف "ممدوح رزق" عارياً في ميدان مزدحم، ثم أطلق من فوهة عضوه العفاريت كي يعذبها – للحظات – بالخروج منه، قبل أن ترتد إلى داخله ثانية).

يقرأ لي: (بدأت مؤشرات إحياء الفنون في الظهور خلال القرنين الحادي عشر، والثاني عشر الميلاديين؛ إذ ظهر الأسلوب الفني الذي عُرف باسم الرومانسك (طراز فن العمارة) في غربي أوروبا خلال هذه الفترة، ومن السمات الرئيسية لطراز الرومانسك في فن العمارة قوته، ومتانته.. تميزت كل المباني التي شُيدت على هذا الطراز تقريباً بسماكة جدرانها، ومتانة دعاماتها، وانخفاض، واتساع أقواسها.. أما الصور الزيتية على هذا الطراز، فإنها غنية بالألوان، إلا أنها لا تُصور المساحات والأشكال الحقيقية).

هذه الرواية نسخة مضادة، موازية، ومتطابقة بجنونها الخاص من حكاية واقعية كان يمكن أن تحدث بيني، وبين البطلة الحقيقية في مظاهرات 1968 لو أتاح لنا العالم أن نعيش سوياً تلك الحقبة في جامعة أجنبية واحدة.. بالطبع أُفكر الآن في (تعويذة) لـ (بولانيو).

"There are two types of people in this world: people who say they pee in the shower and dirty fucking liars".   Louis ck

أنا صاحب كتاب (عداء النص)، الناقد الذي يتحدثون دائماً عن براعته في الحفر داخل النصوص.. مع تقديره، واحترامه لكل كتابات الآخرين عن أعماله فإنها حتى هذه اللحظة لم ترتق إلى ما يكتبه هو عن أعمال الآخرين.. أجمل مقال كُتب عنه هو (استعادة السيء في الأمر) الذي كتبه بنفسه، وربما سيكون الأجمل منه ما سيكتبه عن هذه الرواية.

قال لي أنه بشكل عام -ولأسباب مرتبطة بثقافة المجتمعات العربية، والإسلامية- فإن كاتباً مثله -لو لم يكن بمقدوره الهرب- يأتي إلى العالم مدفوناً تحت طبقتين قدريتين من القهر، لا سبيل لإزاحتهما: قلة القراء، وأمراض، وتشوهات، وإعاقات هذه القلة.. إذا كان بحياتك الشخصية -أو لو كانت حياتك كلها- عذابات، وخسارات دُفعت ثمناً للكتابة -وهذا عادي- فإن أحقر ما في تلك المعادلة لن يكشف عن سخريته المذلة إلا عند الحصول على المكافآت البضينة.

يعرف قاطنو (الفيس بوك) أنني أُعامل الجميع بشياكة، واحترام، وأنني لا أتأخر عن تقديم أي مساعدة في استطاعتي، كما أنني لا أُضيّع وقتي في سجال عدائي، أو مشاجرات تافهة، وأن أسهل ما عندي هو الحظر بهدوء، وصمت إذا صادفت مجروحاً لا يطيق نفسه، ويظن أن راحته تكمن في دخوله حرب ضدي.. أنا لست طيباً، ولا متواضعاً، ولكنني ببساطة أعرف أن وجودي الحقيقي يكمن في الكتابة.. الهوية الفعلية التي يجب أن تكون مدخلاً لكل محاولة تعريف لشخصي.. هذا الوجود ليس هشاً بحيث يعوزه توزيع بلطجة نرجسية على كائنات الهرتلة التي تحاوطه.. (شد القلوط) الاستباقي الذي يتعامل به الآخرون من رفقاء السلاح.. كأن كتاباتهم تحتاج، وتلزمهم أن يبدأوا أي حوار بـ (إحذر، وخذ بالك، ولا تنس.. أنا فريد من نوعي، وذو مكانة خاصة، ومميزة، أستطيع التهام الحشرات من أمثالك بسهولة).. المعنى الذي يستطيعون كتابة تدوينات لا نهائية عنه

لمجرد البضن، وهذا بالضبط ما أفعله الآن.. نعم.. ما تفكرون فيه الآن صحيح جداً.. أنا أحسن منكم جميعاً.

هل لاحظتم أننا لم نغادر العيادة أبداً، ولم نخرج إلى الشارع، أو نذهب إلى مكان آخر.. بالضبط.. حتى لا يصاب أي منا بتعب خطير، ومفاجيء لو ابتعدنا عن أي أحد يعرفنا، ويقدر على التدخل بسرعة لإنقاذنا.

حتى لو كنت تعتبر أن كل ما يُكتب عن تقنيات الكتابة مجرد اقتراحات، وليست قوانين فإن الإفراط في تناولها قد يحوّل ذائقتك إلى أجهزة ضبط، وقياس لا واعية تفرض معايير مغلقة للصواب، والخطأ، كنوع من المجابهة الصنمية لاحتمالات النص.. الثواب، والعقاب على الظاهري.. دلائل قوة، وضعف السطح.. كيف تجرؤ على تحويل آلامك إلى لغة بتلك الطريقة الخاطئة!.

تخيّل أنك ترسل نصاً، أو تدوينة، أو فقرة من رواية في رسالة إلى صديق، أو إلى أحد معين.. تخبره أن في هذه الكتابة رد على ارتكابه عنف ما ضدك، وأنك تتمنى أن يقرأها، ويفهمها، ثم يتخذ رد الفعل المناسب الذي يُرضيك، ويُشبع رغبتك في شفي غليلك منه.. تخيل مدى غضبك لو لم تحصل على نتيجة من هذا.. لكن تخيل أيضاً أي شعور بالسخافة، وبرُخص الكتابة ذلك الذي سيصيبك لو استجاب لك.. لو اعتذر مثلاً، أو ظهرت عليه الآثار المدمرة لانتقامك.. الكتابة هي ألا يستجيب إليك أحد.

المشكلة أنني بالفعل مضطر لكم.

ثم أن هناك دائماً ابن وسخة لابد أن يتدخل في كل فرح لإفساده، دون سبب أكثر من أن حياته التي لا تدري أنت عنها شيئاً قد كلّفته بهذا، وجعلته يؤمن بأن تلك المهمة ضرورية، وواجِبة، إن لم تجعله سعيداً فإنها على الأقل ستُسبب الحزن لآخر.. في أغلب الأحوال سيكون هذا الابن وسخة من أولئك الذين كنت تستبعد أن يكونوا كذلك، بل كنت تظن أن لديه

هامش ثابت من أُلفة يمكن استدعائها، أو هو على استعداد لإبقائها بينك، وبينه.. صدقني.. ستشعر كأن حسابه على (الفيس بوك) قد سُرق، وأن شخصاً آخراً غير الذي تعرفه منذ زمن هو من يُكلمك.. سيكون الخطأ خطأك.. هناك من لا يستطيع تحمّل سعادتك، وفي ذلك فرح إضافي أنت تستحقه.

أفتقدك يا أماسي الشتاء

بأضوائك الضعيفة

شفتا أمي المطبقتان

وأنفاسنا المحبوسة

أثناء جلوسنا إلى طاولة الطعام.

أصابعها الطويلة، النحيلة

إذ ترتب أوراق اللعب

ثم تترقب وقوعها.

وقع الجزمات في الشارع

إذ تضطرنا إلى السكون للحظة.

ليس ثمة ما نقوله بعد

الباب موصد

ومن نافذة وحيدة ملونة بأحمر خفيف

تبدو شجرة وحيدة في الفناء

عارية مشوهة.

(تشارلز سيميك)

كل ما سيُكتب بنية عدائية عن هذه الرواية – أياً يكن – سيكون من باب الدفاع عن النفس، وتحسين الصورة، واستدراك ما يمكن إنقاذه.. فرصة أخرى.. أنا سبقت، وانتهى الأمر.

المنفسن الحقيقي: (لا تذكّروني بالعاصمة، ولا بالامتيازات غير العادلة للنخبة القاهرية، أريد نسيان أن لحم أكتافي من خير المركزية، وهيمنتها.. أرجوكم لا تحرموني من الدفء المجاني الناجم عن وجودي هناك، حيث يمكنني تزوير الواقع بكليشيهات سطحية، سهلة الاستخدام عن الحقد.. أنا لا أطيق أولئك الذين استطاعوا بلوغ غاياتهم، وهم بعيدون، الذين لم تكن لديهم علة تجبرهم على التعريض لمدينة، ولا نقص يلزمهم بمد رِجل في جريدة، والرِجل الأخرى في دار نشر كي يدخل المعايرون من خارج (الانتلجنسيا) في المنتصف.. أجد نفسي مدفوعاً، وبطرق غير مباشرة لمحاولة طمسهم كي لا تحرقني عاهتي كلما نظرت إليهم).

تخيلوا لافتة داخل مكتبة، أو عنوان خبر في صحيفة، أو إيفنت على (الفيس بوك): (غداً مناقشة الفشل في النوم مع السيدة نون) ☺ تخيلوا واحداً لا يعرف شيئاً عن الرواية، وكان يبحث في جوجل مثلاً، ووجد هذه العناوين: دراسة عن الفشل في النوم مع السيدة نون.. الفشل في النوم مع السيدة نون بالمكتبات، وعند باعة الجرائد.. سعر الفشل في النوم مع السيدة نون.. أُحصل على الفشل في النوم مع السيدة نون.. نفاد الفشل في النوم مع السيدة نون.. رؤيتي للفشل في النوم مع السيدة نون.. جزء من الفشل في النوم مع السيدة نون :D

أعترف أنني تعمّدت الانتهاء من هذه الرواية بأقصى سرعة ممكنة.. يقول (راي برابيري): (لطالما كانت حياتي صراعاً ضد الموت. أُنهي القصة، وأنطلق إلى صندوق البريد، لأضعها هناك، وأقول: "حسناً أيها الموت.. لقد سبقتك".. أترى؟.. في كل مرة أكتب فيها قصة قصيرة، أو مقالة، أو

قصيدة، أو انتهي من رواية جديدة، أنا متقدم على الموت).. ربما كان الأمر أكثر سهولة، ويحمل إمكانيات انتصار أعلى - كما أتصور- حينما يتعلق بالقصة القصيرة، أو المقال، أو القصيدة.. هذا بالرغم من أن الموت لا يخضع بالتأكيد للتقديرات الزمنية المرتبطة عادة بإنجاز تلك الأنواع من الكتابة.. لكن بالنسبة للرواية فالخطر يزداد قوة، وتتقلص حتماً إحتمالات النجاة.. تصبح فرص اقتناصك أكثر قابلية للتحقق بفضل طول المدة التي تلزمك حتى تنتهي منها.. كنت أشعر بالفعل بأنني أخوض حرباً مزدوجة لخلق الرواية التي أريدها، والحفاظ على توازني في نفس الوقت بينما أخطو نحو نهاية حبل ضعيف، معلّق فوق هاوية بين جبلين شاهقين.. هذه ليس ملحوظة هامشية، أو إشارة عابرة تخص حياة منفصلة عن الرواية نفسها.. بالعكس.. هي نقطة ضوء مرشدة لجوهرها.. لأشلاء ذلك الجوهر.. أثر يمكن اقتفاءه لمن يريد الوصول إلى بِنية الرواية، أو بالأحرى لمن يريد بيع روحه للشيطان الذي دهس تلك البِنية بأقدامه الثقيلة السوداء.

كان يجب أن نتوقف عن الكلام عند أول استمناء في حياته.. حياته بعد ذلك لم تعد أكثر من استمرار لذلك الاستمناء.

ممدوح رزق

كاتب، وناقد مصري

وُلد في (المنصورة) 1977

صدر له:

- **مكان جيد لسلحفاة محنطة / مجموعة قصصية - سلسلة حروف (الهيئة العامة لقصور الثقافة) 2013**
- **الخبراء في الحياة / مسرحية من فصل واحد - ميتا للنشر والتوزيع 2013**
- **عداء النص / مقالات نقدية - دار حروف منثورة للنشر الالكتروني 2013**
- **صندوق الذكريات / مجموعة قصصية للأطفال - دار عرب للنشر والتوزيع 2013**
- **خلق الموتى / رواية - سلسلة إبداع الحرية 2012**
- **قبل القيامة بقليل/ مجموعة قصصية- دار عرب للنشروالتوزيع 2011**
- **سوبرماريو / رواية - دارميتا للنشروالتوزيع 2010**
- **بعد كل إغماءة ناقصة/ نصوص- دار المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات 2009**
- **السيىء في الأمر / نصوص - دار أكتب للنشر والتوزيع 2008**
- **رعشة أصابعه.. روح دعابة لم تكن كافية لتصديق مزحة / نصوص - مكتبة معابر الالكترونية 2004**

- جسد باتجاه نافذة مغلقة / مجموعة قصصية – سلسلة أدب الجماهير 2001
- احتقان / مجموعة قصصية – سلسلة إبداعات (الهيئة العامة لقصور الثقافة) 2001
- انفلات مصاحب لأشياء بعيدة / مجموعة قصصية – مطبوعات إقليم شرق الدلتا (الهيئة العامة لقصور الثقافة) 1998

كتب مشتركة:

- يوم واحد من العزلة / مجموعة قصص قصيرة جداً مع كتّاب عرب – دار فراديس للنشر والتوزيع 2013
- الكاتب وتحديات اللحظة الراهنة / دراسات مؤتمر اليوم الواحد لاتحاد الكتّاب مع نقاد مصريين 2012
- النمو بطريقة طبيعية / مجموعة قصصية مع كتّاب مصريين – دار ملامح للنشر 2009
- العامية كنز الإبداع / دراسات الملتقى الثاني للمّة بيت العامية المصرية مع نقاد مصريين 2009
- ملامح وعرة / ديوان شعر مع الشاعرين السوري (عبدالوهاب عزاوي)، والعراقي (صلاح حسن) – اتحاد كتّاب الانترنت العرب 2005

أفلام:

- قصة وسيناريو فيلم (إخفاء العالم) / روائي قصير – مع فناني أفلام اسكندرية المستقلة / إخراج: محمد صبري 2012
- سيناريو فيلم (من أجندة الخيانة) / روائي قصير – بالاشتراك مع المخرجة الإماراتية (منال بن عمرو) / مجموعة دبي للأفلام – إخراج: منال بن عمرو 2008 / شارك بمهرجان الخليج السينمائي 2008

- قصة وإخراج فيلم (بازل) / موبايل - شارك بمهرجان القاهرة لأفلام الموبايل 2008

ترجمة:

- قصة (النمو بطريقة طبيعية) إلى الفرنسية / ترجمة: سعاد بني أخي - منتديات من المحيط إلى الخليج 2010
- نص (Download Free Games) إلى الفرنسية / ترجمة: آسية السخيري - موقع دروب 2007
- نص (رحم واسع يسمح بهزة رأس صغيرة) إلى الفرنسية / ترجمة: قيس سعدي - مجلة (أوغاريت) / العدد الرابع - ربيع 2005
- مختارات من مجموعة (انفلات مصاحب لأشياء بعيدة) إلى الإنجليزية / ترجمة: مسعد عبد الرحمن - مركز إبداع للنشر والترجمة 1998

تحت الطبع:

- دون أن يصل إلى الأورجازم الأخير - قصص قصيرة
- بعد صراع طويل مع المرض - شعر
- جرافيتي المنصورة - متتالية قصصية